DRENCHED WITHIN
THE BOOK ONLY.

رواية

أنا الجاني

أو

المتهم البريء

الفصل الاول

الاستنطاق في قتل الأيمة لروج

دخل يوم الخميس في السادس من اذار عام ١٨٦٢ ليوين من المرفع نفرٌ من نساء قرية لاجونشار دار زعيم ثقافي بوجيفال يشكين اليهِ تغيب جارتهنَّ الأيمة «ارملة لروج» منذ يومين عن منزلٍ كانت تنقطع اليهِ وحدها قائلات — اننا قد وقفنا بمنزل الجارة المتغيبة فطرقنا الباب طويلاً دون جدوى وامتنع علينا النظر الى داخلهِ لانهُ كان موصدًا والنوافذ مقفلة فحرنا وعدنا من نهاية الحيرة ونحن في الحيرة الى باب الحكومة نسالها كشف الحجاب عما يكون وراء الباب

ان بوجيفال قرية معروفة بحسن موقعها موصوفة بانس اهلها ينتابها ايام العطلة والاعياد النواتي على تضارب اجناسهم فيحدث احيانًا بينهم من الجرائم ما لا يبلغ حد الجناية . ولعلم زعيم الثقافين بذلك كان قد ابى بادىء بدء اجابة الشكوى ولكن الشاكيات ما زلن بهِ ملحات في السؤال الى ان حملنهُ على

الرضوخ لمن كرهًا. فدعا اليهِ شرطيين وزعيمها وقفّالا (غالاني) وسار بهم مع النسوة الى المحل المقصود

ان لاجونشار قرية صغيرة على مسافة عشرين دقيقة من الجادة الممتدة من باريس الى سان جرمان . قائمة على منحنى نجوة تكتنف السان ما بين مالمزون و بوجيفال يصعد اليها على طريق حلّق نظر المهندزين. فاخذ الزعيم يسير بقومهِ على طريق يعارض سد السان عاطفًا منهُ على ممر يتغوّر بين سوزين الى ان وقفت النسوة بهِ قبيل بناء حقير تالف من غرفتين سفليتين وكلار اعلاها قائم وسط حديقة مهملة يدخل اليها من شبيكة ضعيفة قد شدت الى الجدار باسلاك من حديد . وقلن مشيرات الى البناء — ذلك المنزل المقصود

فوقف الزعيم عند الاشارة وقد تألّب الناس اليهِ من الجيرة حتى بلغوا الاربعين عدًا فاحدقوا بهِ يرومون الوقوف على وجوه الحادثة فرأى عندئذٍ ان يجعل الشرطيين على باب الحديقة ليمنعا الزحام ودخل يتقدمهُ زعيم الشرط والقفال فطرق الباب والنوافذ دون طائل فالوى حينئذٍ الى القفال وقال لهُ — تقدم فافتح

فالقى الصانع عدتهُ عن ظهره واخذ منها المثقب فجعلهُ في القفل يعالجهُ واذا بالقوم يضجون قائلين — دونكم المفتاح

انهُ بينما كان احد الصبيان يلعب مع اقرانهِ على قارعة الطريق وجد المفتاح ملقيًا وسط القناة فالتقطهُ وجاء بهِ الى القوم فدفعهُ الى زعيم الشرط ففتح الباب ودخل مع رفيقهِ

وكان الجمهور المزدحم قبيل باب الحديقة قد تأباهُ الصبر في موقف الانتظار فتسلقت فيئة منهُ الجدران يتطاللُ كل من الفريقين الى معرفة ما يجري داخل المنزل . فلما استبطنهُ الزعيمان والقفال ثبت لديهم قول من قال بالجناية بدليل ما لاح لهم من اثار الاشقياء على الاثاث المشعث في

الغرف فمن صوانٍ محطم وصندوق مخلـع والى غير ذلك من دلائل النهب والاعتداء . واشد ما كان البغي واضحًا في المضجع حيث وجدوا جثة الايمة لروج مطروحة الى جانب المستوقد وقد التهمت النار صفحتها وفرعها

فصاح زعيم الشرط عند هذا المشهد المفجع – ويل ام الجاني وأبيهِ تبت يداه . أما كان الاجدر بهِ ان يسلب مالها فيبقي عليها

أما زعيم الثقافين فسال قائلاً – ارشداني موضع الضرب فلااري دمًا

فاجابهُ زميلهُ – ارجوك يا اخي ان ترفعها على يدك فانظر في جسمها لانهُ لا بد للضارب من اثر فيهِ قد ذهب بالعين قبل ان تستهل دمعة . ثم هوى الى الجثة يجسها قائلاً يتبين لي من رطوبة الاعضاء ولينها أن قد قضي عليها منذ زهاء يومين

وكان زعيم الثقافين يعلق على رقعة لديهِ بيان الحال اتفاقًا . الى ان عدل الى زميلهِ وقال لهُ – خلِّ عنك التفصيل الطبي واعمد الى ما يناط بك ألا وهو البحث عن الجانين واقتصاص اثرهم ذلك غاية ما نطالب بهِ . ومن الراي ان نبعث الان بطلب شيخ الصلح وضابط القرية فنوجه رسالة في هذا الشان الى محكمة باريس لتنفذ الينا المستنطق عاجلاً وفي اثناء ذلك نشتغل في جمع ما نبلغ اليهِ من الادلة والبينات

فسالهُ زميلهُ قائلا – أأكون رسولك الى باريس

— كلاَّ بل ننفذ اليها احد اعوانك وانت البث عندي لتدفع عني غارة الزحام وتاتيني بالشهود

فوجه الزعيم الشرطيّ الى باريس وجلس في غرفة ينظم الاسئلة التي عزم اقتراحها وهي

— من الايمة لروج . ومن هي . وما كان عملها وموردها وسيرتها واخلاقها وعوائدها . وهل كان من يعاديها او [illegible]هم مالاً في ناديها

فاحضر الشهود جملةً ولم يكن منهم من ينبئهُ بحقيقة حال تلك المنكودة

الا بستانية كانت تخادنها و بائعة حليب تنف ببابها كل يوم قد كشفنا لهُ شيئًا عن غامض سرها وهذه جملة ما صرّح بهِ الشهود تفصيلاً على كثرة عددهم وقلة مواردهم

· في غرة عام ١٨٥٠ قبل عهد الحادثة بعامين دخلت ألائمة لروج بوجيفال و وراءها عربة نقل رياشها فأوت الى النزل ريثما تصادف محلاً في الجيرة · فما طال بها الزمان الى ان عثرت على هذا المنزل فاكترتهُ للحال دون مساومة بخمسة عشر دينارًا تنقدها صفقتين كل عام سلفًا . غير انها ابت ان توقع موثقة الايجار . فنزلت عليهِ يوم الكراء وانفقت دون ترميمهِ نحوًا من خمسة دنانير وكانت المراة قد اهدفت الى الخامسة والخمسين من عمرها وهي لم تزل صحيحة البنية قوية العضلات . فعجب القوم من احتلالها قرية لا تعرف فيها احدًا فمنا من ظنّ بها لزيها صباحًا نورماندية المنشأ ومنا من غالطهُ حسن بزتها في النهار وافتنانها بالحلى الثمينة ومنا من قال انها نزيلة الثغور لذكرها السفن وسيرها في البحر في كل حديث.لكنها اثناء تلك المدة التي اقامتها بيننا لم تاتِ على ذكر زوجها الذي قضى غرقًا فتأبى ان تبوح بشيء من ماضي امرها معهُ الا انهُ بدر من فمها امام بائعة الحليب وعلى مسمع من ثلاثة اشخاص هذه العبارة وهي : ما من امراة تعاني الشدة التي عانيتها في منزلي · ثم باحت في موضع آخر بما هو . — ان الحب لم يعقد بيني وبين زوجي الا عامًا واحدًا

وما عرف عنها انها في ليان العيش جوادة سخية وقد قرضت امراة من مالمزون نحو ثلاثة دنانير الى اجل مسمى ثم انكرت استرجاعها . وقد اسلفت في موضع اخر صيادًا في بورمارلي نحو دينارين وكانت تنفق المال في حاجاتها ورغد عيشها بكل سخاء وكان من همها ايضا الاحتفاء بالزائرين والترحب بهم فتكرم وفادتهم وتولم لهم الولائم وتقربهم من مجلسها فتوثر الاطراء بثروتها وقد حفظوا عنها هذه الجملة وهي — لئن لم اكن ذات موارد طائلة وارزاق

عريضة فحسبي بما عندي من المال وبما اقوى على احرازه كفاء حاجتي

لكنا لم نأخذ عنها ما ينم بما كان من امرها مع عيالها واهلها . وكانت في محاضرتها ثرثارة تكثر من ذم الملاِ والغضِّ من شرفهم وقد دلّ تفننها في الحديث على سعة اطلاعها واخبارها العالم . شديدة الحذر والخوف توءثر الامتناع في منزلها امتناع الجند في المعاقل آن الحصار . فلم تخرج منهُ مساء ولم يفد عليها من الغرباء الاّ سيدة وفتى ثم اقبل اليها على عربة فاخرة رجلان احدهما شيخ على صدره شارات الجلاء والآخر فتى

وبالجملة ان المرأة كانت تغامز نفسها بحديثها الهرآء وتحط من قدرها بسفاسف لم تتساقط من فم ذات نقاب . وقد سمعهـــا الناس تواضع ابنةً الشر وتبغي بهِ اليها . ثمَّ علمنا ان جزار بوجيفال كان قد تردد اليها في زياراتهِ اذ عض الدهر عليهِ بنابهِ فصدتهُ قائلة : كفاني ما قاسيت من شرّ الزواج

ثم تعقبهُ زوار آخرون منهم فتى يبان كأنهُ من العاملين في سكة الحديد ومنهم شيخ اسمر اللون شقي . فتوهمها الناس احبابها

ولما بلغ زعيم الثقافيين من بحثهِ الى هذه الغاية وفد عليهِ المستنطق يصحبهُ زعيم آخر يدعى جفرول ومعهُ احد رجالهِ

ان المستنطق دايرون كان في الثامنة والثلاثين من عمرهِ وسيماً انيساً حاذقاً مجرّباً قد احرز ببديع صفاتهِ وسداد ارائهِ ثقة الجمهور لم يتحرّ زمانهُ البحث عن معضلةٍ او مشكلة الاّ وجلاها يستنبط البرهان والحجة من الوجس بهِ يستجلي الحقيقة من الحدس وكان الرجل على رغم ما تفرد بهِ من الصفات الحسان وما تحلى بهِ من الذكاء والرصانة في مهنتهِ بين افراد ذلك الزمان يخشى ان ياتي بما عنده من فنون الاستقراء وضروب الدهاء ما يجلي الحقيقة بطريقة غير مطروقة وخليقة غير خليقة . وكان يأبى ان يسلك كزملائهِ في مقاضاة المتهم مسلك الشدة أو ان ياخذه بحبائل العنف والحيف الى نهاية الحدة لانهُ كان

ينفي الاجحاف بحقوق النظام في رعاية الانام . فلم يكن ليحكم ابدًا على الحدس والتخمين بل كان همهُ الاهتداء الى الحق المبين فلا يقر لهُ قرار ولا يحلو لهُ اصطبار حتى اذا طاطأ المتهم راسه للحق مختارًا . ورضخ بهِ وجارى

أما جفرول زعيم الثقافين الثاني الذي نتوقع منهُ الفوز بهذه الحادثة فكان حاذقًا مقدامًا شجاعًا هامًا لا تصدهُ العقبات . ولا يهاب الافآت . الاَّ انهُ كان عنيدًا الا يذعن للحق اذا توهمهُ زورًا وينكر وجود الظلمة اذا رآها بعينيهِ نورًا . وجلّ ما اشتهر بهِ هذا الرجل فكان اسَّ مجده وعزه حسن الفراسة فما تفرّس برجل وغاب عنهُ طويلاً الاَّ وعرفهُ على رغم تقلباتهِ مع الزمان والمكان . وقد أيد مكانتهُ في هذه المزية لدى من عرفهُ بشاهد العيان

اما معين جفرول والثقاف الذي قدم معهُ فكان عارفًا في مهنتهِ نحيل البنية قويًا شديد الباس تتآكل الغيرة فؤادهُ من رتبة زعيمهِ فيبغي ان يخلفهُ . وكان اسم الرجل لكوك فلما استقرَّ بهم المقام وتلا عليهم زعيم الثقافين الاول ما كان قد سطره وعلقهُ لديهِ قال لهُ المستنطق

— لقد احسنت يا اخي في ما فعلت ولكن فاتك ذكر شيء جليل

— قل ما هو

— متى كان آخر عهدهم بالايمة لروج وفي اية ساعة

— كان من همي ان آتي على ذكر ما سألت وها قد دونتهُ امامي . فان المرأة كانت عائدة الى بوجيفال الساعة الخامسة وثلث من مساء اخر يوم المرفع وفي يدها قفعة (سلة) الزاد

فسالهُ جفرول — هل تحققت الساعة

— نعم وذلك ما بعثني على الاستناد الى تصريح بعض الشهود منهما مدام تاليه وفناطسي (صانع براميل) وكلاهما من الحي . فهذان الشاهدان كانا قادمين على الحافلة (عربة يحتفل فيها الركّاب) الاميريكية التي تسافر كل ساعة من مارلي فابصرا الايمة لروج تجوز طريقًا معارضًا فاسرعا اليها ولا وماها يتعاطيان

الحديث الى ان بلغا باب الدار

فسالهُ المستنطق قائلاً — ما وعت تلك السلة

— جلُّ ما صرَّح به الشهود عنها أنها كانت تحمل زجاجتين من الخمر و واحدة من العرق وهي تتذمر من الصداع الذي نابها قائلة — انني اقصد الفراش على خلاف المعتاد في المرافع

فصاح الزعيم الثاني وقال — عرفت الكمين وطريقة الامين

— أأنت على ثبت من جلية الامر

— وهل بقي في الحال من اشكال فضالتنا الشيخ الاسمر ورفيقهُ الشيخ الفاني . أما الخمر والعرق فقد كان لاغتباقها فاتيا الايمة فآنست بهما

فاعترضهُ زعيم الشرط بانكاره قائلاً — لم تكن المرأة في شيء من الجمال

فرد جفرول عليهِ اعتراضه وقال — اعلم يا اخي ان المرأة المثرية هي جليلة الشباب والجمال ما آلفها وحالفها المال

فقال المستنطق متوسطًا بينهما — لا انكر صحة ما تصرحان بهِ ولكن الغاية التي قضت بعجبي انتهت عند هذه العبارة التي باحت بها الايمة لروج وهي «كانت لي الزيادة متى طلبتها كفأً حاجتي»

وتلاه الزعيم الاول — ذلك ما وقفت عندهُ ايضاً

اما جفرول فحول اذنهُ عن سماع ما دار من الاحاديث وصرف النظر الى البحث في الغرف منقبًا في زواياها وخباياها ثم عاد الى قرب الزعيم الاول وقال يخاطب زعيم الشرط

— اما تلبدت الغيوم عندكم يوم الثلاثا فامطرتكم السماء الغيث سيولاً

— بلى

— فمتى كان عهده

الساعة التاسعة ونصف وقد كان غزيرًا حتى سالت الطرق باقل من بضع دقائق

– كان من الواجب ان ننظر في أثر نعل الرجل لنتحقق الساعة التي دخل فيها الدار

– صدقت وقد فاتنا دليل في سبيلنا

ثم استطرد الزعيم الاول كلامهُ الى ان قال – فطنت الآن الى دليل آخر من مثل ما طلبت وهو في الغرفة الثانية اذ لم نبدل شيئاً من اوضاع الاثاث وحال المبلط

فعدل الى الثانية وقبل ان يفتح الزعيم الباب اعترضهُ جنرول قائلاً

– لا تفعل قبل ان تستاذن المستنطق في التنقيب منقطعاً عن الاخرين

فأذن لهُ دابيرون فدخل وغادر الآخرين وراءهُ بالباب. فدار في الغرفة يدقق النظر في اثاثها على حدة وكان وسط الغرفة طاولة عليها سفرةٌ بيضاء وكاس من البلور الفاخر والى جانب الصفحة الصينية سكين بديع الصنعة وزجاجاتا الخمر والعرق لم يفرغ منهما سوى خمس كاسات وكان ايضاً في تلك الغرفة صوانان خاليان من خشب الجوز قد تشعث ما كان فيهما من المتاع على المبلط وسهوةٌ (خزانة الاكل) حذاءَ المستوقد قد وعت الصحف والجفان وادوات المائدة وصندوق تخلع غطاؤُه وجرد من سجابتهِ فالقيت على الارض. وكان السرير عن يسار الغرفــة وقد انقلبت أدواتهُ فتمزقت حشاياه وافرغ ما كان حشوها. فقال جنرول في نفسهِ – لا أثر لنعل الشقي فلا بد ان يكون قد دخل الدار قبل الساعة التاسعة ونصف ولما فرغ من تنقيبهِ دخل الواقفون بالباب فدنا عندئذٍ الزعيم جنرول وهوى الى جثة الميت قائلاً

— ان الجاني لصناع اليدين

ثم نفض الغرفة يمنة ويساراً قائلا – لا ريب ان الجاني قد فاجأها اثناء اشتغالها في ارصاد الطعام فقطع بها قبل ان تذوق منه شيئاً. فحرمها وحرم نفسهُ من لذة الفاكهة التي كانت مزمعة ان تتفكه بها على المائدة

فاعترضهُ الزعيم الاول اثناءَ تنقيبهِ وقال موجهاً الخطاب الى المستنطق

—ما اخال الجاني عليها الاَّ لصًا

فاجابهُ جفرول ساخرًا من بيانهِ — صدقت ولذلك لم أرَ على المائدة شيئًا من الادوات الفضية. فتلاه لكوك قائلاً — أنَّى تنكر وجود الفضة وقد لقيت في هذه السحابة ذهبًا بقيمة نحو ثلاثمائة وعشرين فرنكًا

قد دهش جفرول من حديثهِ برهة ثم قال — لا غروَ اذا دهم الجاني عند تنفيذ اربهِ ما دَهَمَ غيرهُ من الفشل من قبل فكم من اللصوص الذين يتغللون المنازل قصد السرقة فيفاجئهم اثناءَ وقوفهم فيها ما يذهلهم احيانًا عن الغاية التي دخلوا من اجلها فيرتدون عنها بخفي حنين . فلربما شعر الفاتك عند تنقيبهِ بحركة ازعجتهُ ففعل ما فعلهُ عجلاً وفاز بنفسه من اقرب الموارد ومما يؤيد حكمي بالسرقة ان الشمعة التي كان قد اشعلها لهدايتهِ لم يذب منها الاَّ القليل

فقال لهُ لكوك ذلك برهان لو عصرناه لما بلَّ صدى مسئلة فقدر ان الرجل كان من ذوي الاقتصاد والحرص فاطفأ الشمعة ضنًا بقيمتها

فما اغنى البحث والتنقيب الثنافين شيئًا فانقلبوا عنهُ خائبين وجفرول يهجس قائلاً — ما رأيت قط ندًا لهذا الجاني في الحذاقة والدهاءِ

ولما طال بهم الامر سالهم المستنطق نتيجة ابحاثهم فاجابه جفرول — لقد غرَّنا الرجل يا مولاي بما رأيناه منهُ اذ لم يبدُ لنا في كل هذه الآثار ما يهدينا سبيل معرفته لكنني لا اقنط من السعي وراءَه فسابث الليلة الشرط في مواضع الظنة واطوف بهم في كل الاحياء علني اعثر عليهِ بدليل ما احتمل معهُ من الحلى والادوات الفضية

فقال لهُ دابيرون — اننا لم نزل الان عند النقطة التي وقفنا عليها ساعة دخولنا اي ان بحثنا ذهب سدى

— مولاي وهل نكلف نفس فوق وسعها

قال لكوك — يا ليتنا جئنا بتيروكلر في صحبتنا

فغضب جفرول على ثقافو وقال - أتراه كان يرينا العجائب ويستنزل الغرائب

فاطرق لكوك راسهُ مشتفيًا بغمز قناة زعيمهِ

فسالهُ المستنطق قائلاً - من يكون الرجل الذي ذكرت وقد سمعت بهِ من قبل

فاجاب لكوك - من اشد الناس باسًا وخبرةً

فاعترضهُ جفرول بقولهِ - ان الرجل كان عاملاً في المون دي بياته ذا ثروة طائلة وقد تجرد مدةً للسعي مسعى الثقاف واسمهُ الحقيقي تاباري

فقال لكوك - ما سعى الرجل سعي الثقاف طمعًا بالمال بل ميلاً مع غرضهِ وهواه وقد رأيتهُ مرارًا ينفق من جيبهِ الدراهم في غايتهِ حرصًا على مصلحة قريبهِ وهو الذي بجدهِ وجهدهِ اهتدى الى معرفة السبب في دعوى امرأة الصيرفي فابتلى سرها وكشف للحكومة خداعها ومكرها اذ كانت الجانية على نفسها .

فعارضهُ جفرول قائلاً - كنت اودّ تصديق كلامك لولا ان ما اعلمهُ من امر صاحبك تيروكلر ينقضهُ ما كان منهُ في دعوى دريم الذي اتهمهُ بقتل امراتهِ وهو برآء من ذلك

فقاطعهم المستنطق الجدال قائلاً - لقد ذهب جدالكما بالزمان عبثًا فاذهب يا لكوك وجئنا بالرجل نختبر دهاه

فخرج لكوك يعدو في طريقهِ وقد غادر زعيمهُ واقفًا منكس الراس

فقال جفرول مخاطبًا المستنطق - إنّ لك يا مولاي ان تستنجد في مهمتك من شئت ولكن . . .

- لا يكدرك يا اخي استدعاء تيروكلر واعتمادي عليه وتيقن انني لا انكر حسن صنائعك ولا ابخسك حقك من الدراية والحكمة في المهنة التي قمت فيها مدة طويلة نشيطًا حاذقًا خبيرًا ولكن اذ كنا على خلاف في الراي انت تستهدف الرجل الاسمر وانا لا اصدق دعواك فاخطئ مرماك رأيت ان

اجعل ثالثًا بيننا حكمًا

– كلاَّ يا مولاي انني لم اخطئ المرمى والبرهان دون كفي فلا بد من جلائهِ بالاهتداء الى الضالة ايان استقرت

– حبذا الاعتراض لو صحت نتيجتهُ

– لكن اسالك يا مولاي شيئًا لا اعلم بما اعتذر عن الجراة في طلبهِ . . .

– تكلم واشرح مرادك

– مولاي الحذر كل الحذر من تيروكلر او تاباري (هو اسم الرجل ايضًا)

– وما السبب في ذلك

– ان الرجل يا مولاي حريص على غرضهِ وذو هوى في نفسهِ يميل معهُ كيف شاء وقد جرى في هذه المهنة مجرى بعض المؤلفين الذين يعنون بارسال الكتب بين الناس قصد الشهرة ليس غير . فتراه اذا انتدب للاستقراء عن حادثةٍ من الحوادث او كلف النظر في مسئلة اختلق فيها الاحاديث والروايات المتضاربة ما يوهم سامعهُ انهُ كان شاهد العيان . بل ربما اعتمد على عرض في جناية بنى عليهِ كل مظاهرها كما بنى ذلك العالم عالم الحيوان المفقود على شظية التقطها عرضًا . وقد أيدت كلامي يا سيدي بما قدمت عنهُ في دعوى دريم الخائط

– انني اشكرك على بيانك فاعتمد عليهِ وغناماني كما لا يخفاك للحال الوقوف على منشأ الاية لروج

فاهاب مجلس المستنطق بالشهود الذين حضروا امام الزعيم الاول مرة اخرى فاستطلع كل واحدٍ منهم علمهُ بعهد تلك المراة فلم يستفد شيئًا ينم بغامض سيرتها بل اطبق الكل على اتهام الرجل الاسمر الذي رماه جفرول بظنهِ قائلين ان هذا الرجل كان شكسًا شرسًا يابى القوم الدنو منهُ وقد استندوا في تهمتهم الى ما كان من امرهِ مع احدى النساء اذ تهددها بالقتل فنجت منهُ والى ما رأوه

منهُ في ضرب احد الفتيان بغيًا وعدوانًا . لكنهُ تعذر عليهم اعلان اسم المراة والفتى تاكيدًا للرواية

ولما كان قد وهى صبر المستنطق وخانهُ الجلد في استجلاء الحادثة دخلت عليهِ امرأة عطارة كانت تنتاب الايمة لروج حانوتها لابتياع عطارتها يتلوها فتى في الثالثة عشرة دفعها القوم للتصريح بما عندها من العلم بشؤون تلك المسئلة

فقالت العطارة — انني سمعت الايمة لروج تحدِّث عن ولد لها لم يزل حيًا

فسألها المستنطق — هل انت على يقين مما تصرحين بهِ

— ويقيني بهِ كيقيني بوجودي وفي تلك الليلة التي جاهرت بقولها عن ابنها كانت قد لعبت براسها الحميا فجلست عندي نحو الساعة . . .

— وما كانت نتيجة حديثها كلهِ

— انني لم ازل يا سيدي اتمثل مجلسها امامي تمازح صيادًا من مارلي يدعى « هيسون » وهو شاهد مقنع عما كان منها في تلك الليلة . فانها اخذت تغامزهُ تارة بالضعف وحينًا بالخرق قائلة لهُ اين انت من زوجي الذي كان صناع اليدين خبيرًا في مواضع الصيد مقدامًا جريئًا طوافًا جوابًا برتاد لي الطرف فياتيني بجوز الهند من اقصى البلاد . ولي من فضل الله ولد يتأسى بابيه وقد تحلى بصفاتهِ فقام الان نوتيًا على احد سفن الدولة

— هل اشهرت اسم ولدها

— كلاَّ يا سيدي انها لم تات على ذكره في تلك الليلة ولكن قد ذكرتهُ على مسمع مني في جلسة اخرى فقالت انهُ يدعى جاك وكان قد فرّق الزمان بينها و بينهُ فاطال عليها تغيبهُ لبعد الشقة وحرم عليها مرآه

— هل كانت تستقذف زوجها

— كلاَّ بل كانت تتهمهُ بالغيرة والشراسة وتشكو منهُ التقلب في الراي

من حال الى حال و بالجملة قالت انهُ كان يعبأ بالوهم اكثر منهُ في الحقيقة

— هل زارها ولدها اثناء قيامها في لاجونشار

— لم تنبئني بذلك

— هل كانت تتوسع في نفقاتها

— إنني لا استطيع ان آتيك في ذلك البيان الصريح لانهُ كما لا يخفى سيدي ان النفقة تختلف باختلاف الدواعي . فان المرأة كانت احيانًا تبتاع في الشهر بقيمة ثلاثة دنانير واحيانًا تضطر الى انفاق ما يزيد عن ذلك قيمة المشروب . واما النقد فكان عند الحافرة

وعند هذا الكلام وقف علم العطارة بالحال فطلبت الانصراف فاتيح لما ودخل الغلام اثرها وكان من خيار قوم تلك القرية ذكيًا نبيهًا تلوح على محياه سيماء النجابة وتوقد الذهن فسالهُ المستنطق قائلاً

— ما عندك يا صاح من العلم بالمسئلة التي نحن الآن في صددها

— مولاي انني رأيت اول امس وكان احد المرفع رجلاً واقفًا بباب الآية لروج

— في اية ساعة من نهار ذلك اليوم

— اذ كنت قاصدًا صباحًا المعبد

— هل كان الرجل اسمر اللون طويل القامة

— كلاَّ يا سيدي بل كان شيخًا ربع القامة بدينًا

— هل تحققتهُ جيدًا

— كيف لا وقد رأيتهُ عن كثب فخاطبتهُ

— فقل بما عندك من امره

— انني بينا كنت مارًا بهِ رأيتهُ بالباب اصلع وقد احمر وجههُ غضبًا وكيدًا

— هل بدأك بالخطاب

— نعم يا سيدي انهُ دعاني اليهِ فدنوت منهُ فقال — انقوى يا غلام على الجري . فاجبتهُ نعم . فقال — اريد ان ابعثك في مهمة انقذك من اجلها قرشين وهي ان تذهب الى السين فتلقى قبيل الرصيف سفينة فادخل اليها وقل لصاحبها «فرجاي» ان يهم بالسفر فاوافيهِ قريباً فقبضت الجعالة منهُ وسرت اقضي امره

فقال زعيم الثقافيين — اكرم به من شاهدٍ ذكي نبيل لقد حدثنا ببيان يقصر عنهُ سائر الشهود

فاستانف المستنطق السوال قائلاً — بيّن لنا ما فعلت في قضاء مهمتك

— قصدت الرجل في سفينتهِ فابلغتهُ المراد وكفى

واذ كان جنرول صاغياً بانتباه دنا من المستنطق فهمس في اذنهِ قائلاً

— اتسمح لي ان اقترح على الغلام السوال

— سل ما بدا لك دون باعث

— فسالهُ حينئذٍ الزعيم قائلاً — انستطيع ان تعرف الرجل الذي حققت اذا مثل لديك

— نعم يا سيدي

— هل كان في هيئتهِ شيء يمتاز بهِ

— لون وجههِ كالآجرّ (كالقرميد)

— وما كانت حلتهُ

— كان عليهِ رداء كبير الجيوب عند ابطهِ يبرز من احداها منديل ازرق مسهم

— ما لون سراويلهِ

— لم افطن لها

— وصدرتهُ

— لم يكن لهُ صدرة بل كان على صدره أبنة (عقدة) مسوَّرة

— احسنت يا غلام الجواب عما سئلت فاكدت لنا توقّد ذهنك وفرط ذكائك ولو امعنت الفكرة ايضاً فتمثلت الرجل جيداً لاتيتنا بما ذهلت عنهُ الآن

فاطرق الغلام يشحذ ذهنهُ ويحدث نفسهُ برهة ثم قال

— فطنت لشيء آخر وهو انهُ كان في أُذني الرجل اقراط طويلة

فتهلل وجه جفرول بشراً عند هذا الدليل فمال الى المستنطق وقال لهُ

— لا بد من الاهتداء الى الرجل فهاتِ يا مولاي رقعة الطلب

فقال دابيرون — ان شهادة هذا الغلام لا جلّ ما قيل في هذا الشان .

ثم عطف على الفتى وقال لهُ

— هل يتسنى لك بيان ما وصفت تلك السفينة

— كلاَّ يا سيدي لان ظهرها حال دون مرأى شحنها

— هل كانت آخذة في مجراها صعوداً او انحداراً

— انها كانت راسية

فاعترضهُ جفرول قائلاً — ان المستنطق يريد بسوالهِ ان تفيده هل كان مقدم السفينة موجهاً جهة باريس او جهة مارلي

— قد استوى طرفاها فتشابها بالوضع

— لا بد ان تكون قد ابصرت في اسمها فوعيتهُ في ذهنك

— لم ارَ لها اسما

قال المستنطق — اذا كانت السفينة كما قال قد ارست على مقربة من الرصيف فلا بد من ان يكون الاهلون قد رأوها فعرفوها

فصدقهُ الزعيم وصوّب رأيهُ قائلاً — ومن عادة النواتي ان ينزلوا الى البرّ فيقصدوا الحانات . فعليّ ان ابحث فيها لكن ما هيئة ربانها او صاحبها جرفي

— كهيئة سائر نواتي هذه الضواحي

ثم همّ الغلام بالانصراف فاستوقفهُ المستنطق قائلاً لهُ

— هل حدثت احدًا من قبل بتلك اللقيا

— قصصت على والدتي ما جرى لي مع الرجل فدفعت اليها الدراهم

— هل نطقت بالصدق ام كان ذلك منك زورًا . فاحذر ان تخادع فالامر ذو بال فانتبه

فنكس الغلام رأسهُ وقد احمرّ وجههُ اضطرابًا

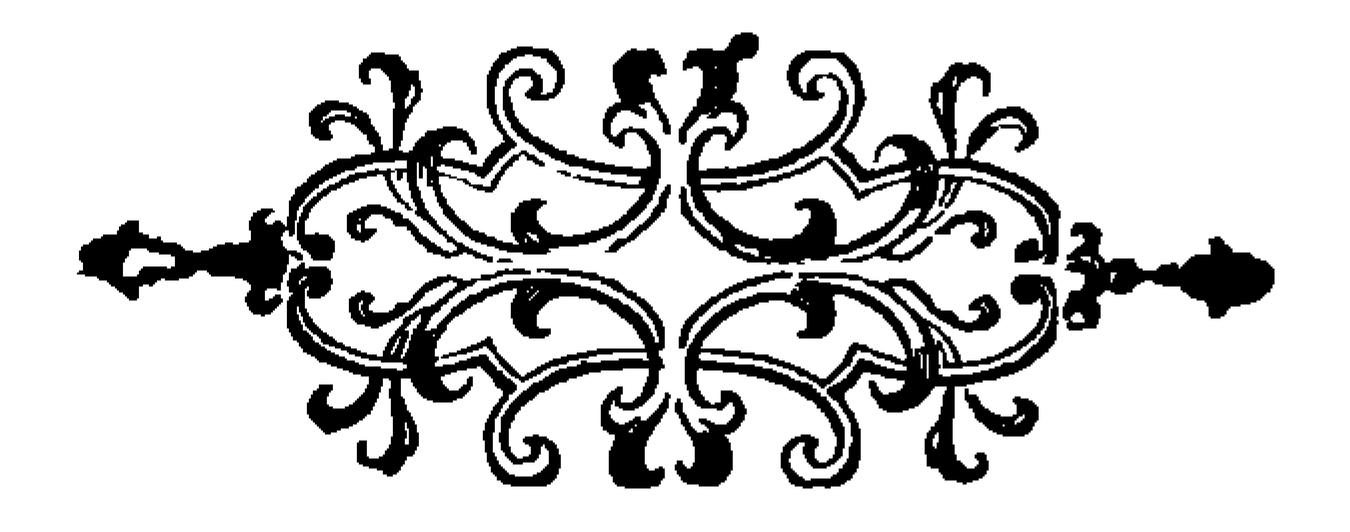
فاستانف المستنطق الخطاب قائلاً — اراك قد كتمتنا شيئًا فاعلم ان الثقاف لا يفوتهُ العلم بما كتمت

فتاثر الغلام من حديث المستنطق فبكى وقال — لا ترمني بسوء فتصدني عن البيان

— فبح اذن بما كتمت

— ان الرجل كان قد نقدني اربعة قروش فاعطيت والدتي منها قرشين وابتعت سرًّا بما بقي كريات

— انني اعفو عنك الآن يا فتى ولكن اوصيك ان لا تنكر مستانفًا بيان الحقيقة في ما تعلم من امرٍ تطالب بهِ فانصرف لشانك واعلم ان الحق يعلو ولا يعلى عليهِ



الفصل الثاني

تاباري

ان المستنطق آنس في كلام الشاهدين الاخيرين نورًا يصدع حجاب الاشكال عن مسئلة الأيمة كما يأنس الساري بالنجم اذا بان القمر . فاطال النظر في تحقيق ما قرّراه ومعارضة ما اثبتاه ليستجلي الحقيقة من التلميح ويستنبط السر من الاشارة في موضع التصريح ١

وبينا هو بين التدقيق والتحقيق ابتده جفرول الخطاب قائلاً — أتسمح لي يا مولاي ان انحدر الى بوجيفال

— ارى ان تلبث مكانك لنعلم بما كان من سيرة الأيمة نهار الاحد يوم كان الرجل ببابها صباحًا

ثم دعا المستنطق اليهِ بالشهود الذين وقفوا على سيرتها في ذلك النهار فتقدم اليهِ من نساء الحي ثلاث اجمعن على القول ان جارتهنّ في ذلك اليوم لم تهجر الفراش وقد اجابت عن سوال احداهنّ تستعلم حالها . « قد فاجأ في الليل الغابر عارض كاد يقضي عليّ » ثم انصرفنَ من عندها دون ان نعلم بما كان من امرها بعد تلك الزيارة

فارسلهنّ المستنطق وقال مخاطبًا جفرول — ان اقتصاص اثر الرجل الذي دعوه بشنف الآذان غدا امرًا لا مندوحة لنا عنهُ فعليك يا جفرول بالجد في اثره .

— سيمثل لديك يا مولاي قبل ان تتعدى الاسبوع لان من عزمي ان اخوض نهر السين جائزًا فيهِ عرضًا لطول فالتقي بربان السفينة جرفاي ومنهُ اقف على البيان الشافي

وقبل ان يتم الزعيم حديثهُ دخل لكوك وقد تصرمت انفاسهُ عياء فقاطعهُ الخطاب قائلاً

— هوذا تاباري الرجل الذي بعثتني بطلبهِ . فبالحقيقة انهُ من ذوي الاقدام والنشاط والغيرة لانني ما كدت ابلغهُ الطلب حتى قام من مكانهِ يلبي الامر متقدمًا في سيره على ساعة سفر القطار

فمثل الرجل المنوه عنهُ امام المستنطق وكان في الستين من عمره قصير القامة ضئيلاً حدِبًا وبالجملة لا يتوسم فيهِ رائيهِ شيئًا من شارات الحذاقة والدهاء بيد انهُ كان حسن البزة تبرق على صدره سلسلة من الذهب المصمت (الروباص) لا يألفها ذوق ذلك العصر . فما وقف في المقام حتى القى السلام وسال المستنطق بذلة وخضوع قائلاً

— أأنت يا مولاي الآمر باحضاري

فاجابهُ المستنطق — نعم . ثم قال في نفسهِ . ما اراه الرجل المطلوب

— هاءنذا يا سيدي فمر بما تشأ

— انني دعوتك اليَّ لاواضعك الراي في مسئلة ارتجت عليَّ فالملك تقوى على جلائها بدرايتك وفرط ذكائك فاجلس لاقص عليك القصة بوجوهها

— لقد ابلغني لكوك المراد فكان حديث الطريق

فقال زعيم الثقافين — ومع ذلك لا بد من بيان الاسباب التي توسلنا بها في الاهتداء الى الفاتك

— انني في غنى عن هذا البيان واحب اليَّ ان ارتجل البحث برأيي فلا انهج منهج الآخرين . . . فدعني اتزاول التنقيب مع لكوك

وبينا كان تاباري يتكلم كانت عينهُ تبرق من الفرح والسرور فتنبسط

المِخرق او المِخرَقة: آلة كالقدوم او المعزق الارض والمسحاة ينبش بها الطعام ج مخارق - المنكوش والاغلب انه منكاش ج آلة ينبش بها اي يثار بها الارض

اسرة جبينه من الطرب الذي استخف قلبهُ ثم نثقف اوده فنزا الى الغرفة الثانية وهناك استفرغ الجهد في استجماع الآثار التي تنمُّ بانواع الحادثة حتى اجهد لكوك في خطراتهِ تارة بطلب الورق وتارة اخرى بالمعزق (المنكوش) وحيناً بالجصّ وآونةً بالماء والزيت الى ان اعيا المستنطق الملل فسال عما بلغ اليه الباحث في بحثهِ

فاجابهُ زعيم الشرط — مهلاً فانهُ يرغف الجصّ (يعجنهُ) لغرض في نفسهِ وعن قريب يأتيك بنتيجة سعيهِ

فما طال الزمان حتى عاد تاباري الى المستنطق يتهلل وجههُ بشرًا وفي اثره لكوك على يده قفعة (سلة) تعنيه فقال لهُ

— لقد زال الاشكال ووضح الامر تماماً

ثم مال الى لكوك وقال لهُ — ضع يا صاح القفعة على الطاولة

وفي تلك الاثناء عاد ايضاً جفرول مسرورًا بما صادفهُ في غايتهِ . فقال

— انني وقفت يا سيدي على التحقيق اللازم لادراك اثر المشنف الآذان اذ بلغت الرصيف عند انحدار المركب فتحققت هيئة صاحبهِ جرفي

فقال المستنطق — هاتِ يا تاباري ما رأيت

فافرغ الرجل للحال على الطاولة ما وعت تلك القفعة من الاختبارات الجصية وقال

— انني ادحض بادىء بدء زعم من قال بالسرقة سبباً للجانية

فاعترضهُ جفرول قائلاً — اخطأت يا صاح

— لا اجازف بالقول ولديَّ الحقيقة الواضحة البينة وساكشف مستانفاً السبب الوحيد الحامل على ارتكاب الجناية . اما الآن فاقتصر على ذكر ما انتهى اليهِ بحثي عاجلاً فاقول ان القاتل دخل المنزل قبل الساعة التاسعة ونصف اي قبل وقوع المطر . ولئن كنت لم اعثر على اثر الوحل في الغرفة كما صرّح من قبل صاحبي جفرول الاّ انهُ لم يفتني ادراك رسم النعل الراسخ

الرابعة : [illegible] في الليل والقصر ١٢ الجزمة : [illegible]
[illegible] ١٢ . جزمة بالتركية ١٢

على الارض تحت الطاولة وبذلك تاكدت الساعة التي دخل فيها القاتل المنزل . اما الآنسة لروج فلم تكن بانتظاره بل كانت قد اخذت بنضو ثيابها وتوقيت ساعتها عندما طرق الباب

فعارضهُ الزعيم بقوله — يا للغرابة

فاجابهُ تاباري — ما في الامر غرابة وقد اسندت قولي الى دليل بيّن راجح انهُ لو تحققت الساعة المعلقة فوق الصوان لالفيتها من الساعات التي توقت كل خمس عشرة ساعة مرة . فاقول انها كانت توقتها مساء قبل النوم . واذا سالت عن اتفاق وقوف الابرة عند الساعة الخامسة فاجيب ان ذلك كان مفتعلاً وقد كانت المرأة آخذة بسحب السلسلة عندما طرق الباب . وبالنظر الى الكرسي الموضوع اسفل الساعة ورسم القدم المؤثر فيهِ يتضح لك ايضاً دليل آخر ادعم بهِ بياني . ثم ان الثوب الذي عليها لا صدرة لهُ لانها كانت قد انتضتها لتوقت الساعة ففاجأها الطارق في تلك الاثناء فاضطرت ان تشتمل بشملتها بدل الصدرة بحكم السرعة

فحار زعيم الشرط من الامر وتعجب قائلاً — لله دره من مدقق خبير

فاستانف الباحث بيانه قائلاً — لا ريب ان الآنسة كانت تعرف الطارق ودليلنا في مبادرتها وهي على تلك الحال لفتح الباب فضلاً عن ذلك سياتينا البرهان في نتيجة البيان . فدخل اذن الجاني دون معارض

اما الزائر فكان يربو بقامتهِ على الربعة حسن البزة وكان على راسهِ في تلك الليلة قبعة عريضة وفي يده عالة شتوية (شمسية) وفي فيهِ سيكارة

فاكبر جفرول تفصيله وقال — يعز علينا تصديق ما اوضحت

— ربما كان يتعذر عليك استجلاء ذلك اما انا فقد تاكدتهُ كانني شهدتهُ عياناً . ومن جدّ يا صاح وجد . فانظر بحقك الى تلك الرسوم التي طبعتها على الجص وتامل جيداً رسم عقب جزيمانو الذي اخذتهُ عن رسم قدمهِ الراسخ عند القناة حيث وُجد المفتاح . ثم دقق النظر في ارتفاع العقب وتقعر

القدم وصغر النعل ودقته يتبين لك من هذه الادلة ان الرجل يتانق في نعله ويجلي لك هذا الرسم في موضعين على مدى الطريق ثم تلقاه خمساً في الحديقة حيث لم يدخل احد وذلك ما يوكد لك ان الجاني لم يطرق الباب بل الشباك لانهُ آنس فيهِ نوراً . فعند مدخل الحديقة يبدو لك رسم النعل اشد رسوخاً منهُ في غير موضع لان الزائر أُجبر في ذلك الموضع الى ينفز حذر ان يطأ الرطب النابت على مدى ذراعين ومن نفزاتهِ نتاكد ايضاً ان الزائر كان فتى . واذا اعظمت الامر ليبانيَ حجم القبعة فقم الى ظاهر الطاولة وتحقق كلامي بالنظر الى رسم قطرها كما انني احيلك ايضاً على ظاهر الصوان لتحقق طول قامة الرجل حيث ترى آثار يديهِ التي تجسس بها اعلاه . واذا اعترضت عليَّ قائلاً . ربما رقي الكرسي لادراك غايته . نقضت اعتراضك للحال بقولي انهُ لو رقي الكرسي لابصر بعينيهِ غرضه فاغنى بذلك عن التجسس . واذا كان قد ادهشك قولي بوجود العالة فانظر الى هذه الردغة (وحل جاف) التي طبع عليها رسم الفلكة (خشبة مدوَّرة تضم قماش الشمسية) فهناك ما يذهب بدهشتك اما قولي بالسيكارة فدليلي بوجودها في الغرفة

فتعجب الجميع من بيانهِ العجيب وتحقيقهِ الغريب لا سيما لكوك فانهُ كان يصدي بهِ يديهِ فرحاً لنجاح رأيهِ وتبريزه على رئيسهِ

ثم استانف تاباري الخطاب فقال — انني كشفت لكم عن حال الرجل في المنزل ولكن يقتضي ان نعلم بالسبب الذي توصل بهِ اليهِ . فاعلموا اخواني ان الشاب وفد على المرأة بعجة العشاء فسرَّت تلك المسكينة بضيافتهِ فاكرمت وفادته وقامت تقدم لهُ ما تهيأ لانها كانت قد تقدمتهُ في العشاء بدليل ما رأيت في السهوة من فضلاتهِ . ولنا على ذلك دليل ما يبدو على الطاولة من الادوات المفردة كالسكين والجام . واذا سالنا عن منزلة الرجل لعرفناه من احتفاء المرأة بهِ فقلنا انهُ اكرم منها لاختيارها في ضيافتهِ احسن ما لديها من الآنية والادوات التي لا تبتذلها في خدمتها كل يوم وعندها منها في سهوتها

ما هو دونها ثمناً وقيمة

فهجس المستنطق واوجس قائلاً – لعمري انهُ قد صدق في بحثهِ وايده ثم استانف تاباري البيان فقال – ولما جلس الضيف اخذ يتوجس كاس الخمر بينا كانت المرأة تعرض اللحم على النار فما طاب لهُ الخمر فطلب العرق فترشف منهُ خمساً وفي اثناء ذلك حدث نفارٌ بينهما اذ كانت المرأة جالسة القرفصاء عند النار فطعنها في ظهرها ولكن لم نقضِ للحال بل تشبثت بيدي الجاني فاحجم عنها ودفعها ثم حفزها فثبتت في موضعها حيث هي الآن

اما الآلة التي طعنها بها فهي السنان (الحربة) وقد تبينت لي من رسمها على ثوب المرأة اذ مسحها بهِ

فقاطعهُ جفرول الكلام قائلاً – ما اخال بيانهُ الأ احلاماً او رواية يقصها بنت الساعة

— ما قلت ولا اقول الأ الحق المسنود الى دليل العيان فانظر الى اطراف اظافر المرأة فتجد من الآثار ما يكفيني رد افترائك ويكفيك الجدال بلا طائل

اما مراد الجاني فلم يكن المال كما زعم الباحثون قبلي بل كان يطلب اوراقاً يضن بها وقد امسكت المرأة عنها فقام يشعث الاثاث باحثاً فيهِ عنها الى ان وجدها . ترى فما فعل بها . انهُ احرقها في مستوقد الغرفة الاولى وبذلك اشتفى ولكي يغفر فعلتهُ ويضل الباحث في سبيل غرضهِ سرق ما لقيهُ من النفيس في المنزل فجعلهُ في منديل ثم اطفأ الشمعة وانصرف بعد ان اقفل الباب والقى المفتاح في القناة

فقال المستنطق – بالحقيقة يا تاباري انك من الخبيرين بل من الباحثين المجربين فقد اكدت لنا الان بما اتيت من الادلة والبينات الجلية انك على هدى في الامر فلا يتعذر عليك القبض على الجاني والاستظهار عليهِ

وتقفاه لكوك قائلاً – اما صدقت يا مولاي بما رويت عنهُ واثنيت عليهِ

فاعترضها جفرول ساخرًا من كلامها وقال — ترى اما لقي الرجل عناء في احتماله المنديل بما وعى . اما تخالهُ خاف رقيبًا في مسيره

فاجابهُ تاباري للحال — ان الرجل لم يطوّف بحمله البلاد ولم يقصد موقف القطار على الحافلة الاميركانية بل رجل اليهِ من اقرب السبل آخذًا بطريق النهر حتى اذا بلغهُ القى عن يده العناء

فانكر عليهِ جفرول هذا البيان وقال — ما ظننتك تقطع بصحة ما تزعم

— امهلني فاريك الحقيقة وقد انفذت الى السان من قبلي وعلى نفقتي الخاصة ثلاثة رجال برأسهم ضابط قصد البحث في رقهِ (الماء عند الشاطئ) عن المنديل

— هل مثلك يا حريص من ينفق من مالهِ الخاص في سبيل غيره

— نعم

فقال المستنطق — عساهم ان يلتقطوا المنديل

فما اتمّ المستنطق بيان ما يتمناه حتى دخل ضابط و بيده المنديل الندي بما وعاه من الآنية الفضية والحلى الكريمة فقال

— ان الذين التقطوه يقتضون جعالتهم

فاخرج للحال تاباري من محفظتهِ قرطاسًا ماليًا ودفعهُ الى الضابط ثم نظر الى جفرول عن عرض نظر الفائز وقال مخاطبًا المستنطق

— ما رأيت يا مولاي في ما تنبأت عنهُ

— لا بدّ يا تاباري من ان نبلغ بحذقك وهديك كبد الغرض

وفي اثناء الخطاب دخل الطبيب الذي دعي لتشريح الجثة فنهض بعد السلام باعباء مهمته الى ان قال ما كان من نتيجتهِ اسناد ما رآه تاباري فايد النزاع قبل حدوث الجناية بدليل ما بدا من الزرق حول عنق القتيل ثم اثبت انها كانت قد تناولت طعامها قبل ان تطعن بثلاث ساعات

وعقيب ان وعى تاباري كلام الطبيب قام الى الغرفة فجمع لديهِ من

الاثار التي يفحصها الجاني اذا خطر لهُ الانكار فاخذ ثوب المرأة و بقية كفوف الضارب فضمها الى المنديل الذى التقطهُ رسلهُ في السان وجعل الكل لديهِ اثرًا يتتبع بهِ العين

— لا خفى ان دابيرون عظم املهُ بما اهتدى اليهِ بمساعدة تاباري من اثار تلك الحادثة الغامضة فصار يتوقع السير فيهما على نهج بيّن يقصد بهِ الحقيقة . ومن المعلوم ان الاستنطاق في المشاكل الغامضة كثير المخاطر لاشتباه وجوه المسئلة على المستنطق فربَّ بحثٍ يلتوي مقصده عليهِ فيتحراه ضلالاً وكلما امعن فيهِ بعد عن مواطن الحقيقة

ولما دجا الليل نهض المستنطق بريد مزايلة لاجونشار فطلب اليهِ جفرول ان ياذن لهُ بالبقاء فيها حرصًا على املهِ بالقبض على الرجل المشنف الآذان فاجاب طلبه وصرف الآخرين عنهُ كلاًّ لشانهِ الاَّ تاباري فدعاه للرحيل معهُ

فخرجا سوية يتفاوضان بشان المسئلة التي اشغلت افكارهما الى ان قال تاباري

— هلاَّ نستطيع يا سيدي الوقوف على سابق سيرة الأيمة

— كان ذلك لدينا سهلاً اذا صرَّحت بهِ العطارة . لئن كان رجلها وابنها في جملة النواتي عرفنا حقيقتها من سجل نظارة البحرية التي اكتب اليها الليلة

فما زالا يتباحثان الى ان بلغا موقف رويال فركبا القطار ولحسن الجد كان نزولها منهُ في العربة الاولى لا ثالث بينهما فجلسا معًا يشخص المستنطق رفيقهُ وقد استغرقت ذهنهُ الخواطر فامسكتهُ عن الحديث الى ان تعجب دابيرون من حسن اجتهاده واهتمامهِ في امور لا يجني منها الاَّ الكد والعناء فسالهُ قائلاً

— متى كان عهد اشتغالك في هذه المهنة المجهدة

— انني ازاولها منذ تسع سنوات والغريب الان انك لم تسمع بي اثناء كل هذه المدة

— كيف لم اسمع بك وقد بعدت شهرة حذاقتك وثقوب ذهنك وفرط ذكائك ذالك ما حملني على استنجادك والاعتماد على رأيك . اما مكان العجب مني فهو عند تهورك في مهنة مجهدة لا اعلم بالسبب الذي دفع بك اليها

— ليس غير الحزن والعزلة والضجر . لان الله لم يقسم لي الراحة والهناء

— أنيّ تشكو العناء وقد قيل انك ذو ثروة طائلة

فتنفس عندئذٍ الرجل الصعداء متلهفًا تلهفًا لا ينم به الاَّ سره وقال

— عهدي بالراحة يا مولاي قريب المدى فلم ابلغ الحال التي انا عليها الان الاَّ بعد شق النفس فان ابي كان قد عبث بشبابي فاحرمني لذته فكان اظلم في عيني من بياض الشيب

من الناس من فطر على حب الاستقراء والاستقصاء في كل امرٍ يبدو لديهِ فلا يزال بهِ حتى يستجليه ولا سيما اذا كان عارفًا بالسبيل القاصد كالمستنطق دابيرون فانهُ رأى عند كلام تاباري ان يعمل بمهنتهِ فيتتبع السوال متدرجًا من المسبب الى السبب فسالهُ قائلاً

— عجباه يا صاح ما تدعي على ابيك ايمكن ان يكون سبب شكواك ومنشيء بلواك

— واحسرتاه نعم نعم كان لي شخص الشقاء وعين العناء وقد اضربت الان عما جناه عليَّ وما ساقهُ من الهموم والغموم بين يديَّ عندما علمت . . .
آه يا مولاي لقد دعوتني بسوالك الى سرد قصة ينقبض لها صدري وتدمي منها عيني فلا باس ان قصصتها عليك وقد تاكدت ثقتك ورزانتك

لما بلغت الخامسة والعشرين من عمري كنت اعمل في «المون دي بيانه» براتب لا يقل عن مائة دينار مساناة . ففي ذات يوم صباحًا دعاني ابي اليهِ وشكا اليَّ فقره وشظف عيشهِ وبالغ بالشكوى الى ان قال . قنطت من العيش

ذليلاً فاما ان ارى ما اعالج بهِ فقري واما المنية . فرثيت لشكواه واويت لبلواه فسريت عنهُ الهم وزينت في عينيهِ الحياة باسطًا كفي لنجدتهِ موفرًا لديه اسباب الراحة ورخاء العيش بعد اشتداد نكبته وامتداد بليته فاقمت معهُ على هذه الحال زهاء عشرين عامًا وهو كلٌّ عليَّ

— اتندم على حسن صنيعك عند ابيك

— ليت كان ذلك الخبز الذي التهمهُ سما

فتعجب دابيرون من كلام رفيقهِ عجبًا لم يخفَ عليهِ فاعترضهُ تاباري قائلا

—مهلاً يا مولاي بالحكم عليَّ قبل ان اكمل الشكوى التي ابتدات بها . فان والدي عاش كلاًّ عليَّ نحو عشرين سنة قطعت فيهما عن الملاذ وحملت منهُ اثناءها ما لا تقوى على حملهِ رضوى من الهم والبلوى اكدُّ ظلَّ ليلي وسحابة نهاري من اجلهِ وهو غير راضٍ عني فكنت تراه يتململ ويضجر نادبًا افول ماضيه شاكيًا حالهُ وآتيه . وبالجملة انني لقيت معهُ صنوف البلاء وضروب العناء

وكما لا يخفاك يا مولاي انني ما خلقت لاعيش منقطعًا لذاتي عن لذّاتي بل كنت ممن يرغب في العيشة العائلية ويأنس بالولد فاود من صميم فوادي لو وفقني الزمان الى فتاة اتقاسم معها اعباء تلك العيشة وهناءها ولكن أنىَّ لي تحقيق هذه الآمال وذلك الشيخ وعنتهُ عليَّ عيال فكنت كلما فكرت في الزواج ارفضَّ الدمع من عيني اسفا وذابت حبة قلبي على زماني لهفا فاحاول ابعاد تلك الخواطر ابعاد المخاطر وكان الله قد هداني في تلك الايام الى فتاة تدعى اورتانس فهويتها ولكن في عمرٍ هوى بها عني فلم يبرح حبها من فوادي حتى الآن دون ان اعلم لها بمكان فما زال بي والدي حتى ازال ريق الشباب واعاضني منهُ باللهف والعذاب

فقاطعهُ المستنطق القصة قائلاً — ما يفيدك الندم على ما زلت بهِ القدم منذ القِدَم

— لقد صفحت يا مولاي عما نلت منهُ ولكن لم انتهِ بعد الى النتيجة المرغوبة فاسمع مختارًا ما فعل بي الغيظ يوم فارقني فلقيت في سحابتهِ صكًا بقيمة الف دينار من الريع

— اذن كان والدك مثريًا

— نعم يا سيدي وقد كان لهُ اقطاعات في جيرة اورليان يأجرها كل سنة بقيمة ثلاثمائة دينار ولهُ الدار التي اقطنها الآن على انني لجهلي بسره كنت انقد البواب كل ثلاثة اشهر قسطًا من اجرتها

— بالحقيقة انهُ كان جائرًا

— بل قل كان لصًا سلبني مالي وعمري وما زادني غمًا ما قرأتهُ في وصيتهِ حيث يقول انهُ لم يفعل ما فعل الاَّ قصد العظة والارشاد يريد ان يعلمني ضروب الاقتصاد وحسن النظام في المعيشة وما كان اولاه ان يقول ليعلمني فنون الجنون فينتزع من فوادي حب الوالدين ليزرع فيهِ الحذر وسوء الظنّ

فتعجب المستنطق من قصة تاباري لما وعت من المضحكات المبكيات فقال لهُ

— هنيئًا لك فقد اتاك المال اتيان الفرج بعد الشدة

— كلاَّ انني لم اسر بلقياه بل كان في عينيَّ اشأَم من الشيب في عين الغادة فما لذة الشيخ من الخبز اذا كان ادرد او افرم وقد مال الشباب ولوى ونادى حيَّ على النوى . انما كانت المنفعة بما اصبت من المال لقريبي اذ هجرت العمل لمن كان اشقى مني حالاً وامتنعت في منزلي اعالج الضجر والملل بالمطالعة وجمع الكتب ولكن ربما تعترض عليَّ قائلاً ان من يتعشق المطالعة وجمع الكتب وجب عليهِ ان يكون من العلم بما وعت في شيء

— لا انتقد عليك هذه الرغبة على جهلك بالعلم وشفيعك المال وكأيّ من الرجال يحرزون الكتب الضخمة المفيدة والمطولات العلمية المرغوب فيها وهم لا يعرفون من العلم الاَّ وضع الاسم

— ربما صحّ حكمك ولكنني لم اجمع عندي الاّ ما افادني في فن الثقاف ضلعًا قويًا فقرأت عنهُ الكتب والخطب والرسائل وكنت كلما تصفحت عنهُ كتابًا زدت فيهِ ولوعًا لا سيما عندما اطلعت فيهِ على كشف الحجاب عن المكامن والاسرار الغامضة فتوصلت منهُ الى ادراك الخبايا في الزوايا واستنباط المسببات المبهمة واشد ما سرّني منهُ العلم بقدر الرجال واختبار مكائدهم وابتلاء سرائرهم . وكنت ادهش عندما كنت اطالع اعمال اولئك الثقافين الحاذقين الذين كانوا يسيرون في مهماتهم سير العدل فلا يدركهم الملل ولا يتولاَّهم الضجر في سعيهم حتى يهتدوا الى ضالتهم من طريق الحق في محجة العدل والصواب فشاقتني دراسة هذا الفن فكلفت بها انتصارًا للحق وازهاقًا للباطل فما زلت اجد ليلاً نهارًا الى ان ادركت الغاية

— اذن تسرك مزاولتها والتفاني في اتقانها

— كيف لا وقد سلوت بهذا الفن شقائي فكان في وحدتي عزائي لا سيما اذا كان الخصم الذي اطارده من اكفائي . ان الفخر يا مولاي في مطاردة الرجال كالظفر في مقارعة الابطال . لان الثقاف يستنفد دون اقتصاص اثر ضالتهِ وسعهُ من الذكاء والدهاء فيتجرب باساليب الحكمة و يتدرب على فنون الحيلة وبالجملة لا يعرف لذة هذا الفن الاَّ من عاناه وخاض فيهِ فاطلع على اسرار حاضره وماضيه اما اليوم لنكد الطالع فقد ضعف العزم ووهت القوى وقلة الحيلة لضعف الخصم فلا يكاد الجاني يرتكب الجناية حتى يدركهُ الثقاف عن كثب

— صدقت ولكن ما اخال ضالتنا في مقتل الايمة لروج غبيًا

— ولذلك تراني اشمر عن ساعد الجد للقبض عليهِ ولو تكلفت من اجلهِ النفس والنفيس فاتخلل المنازل واتغلغل فيها سعيًا وراء الجاني ولو كره مسعاي اقراني

ثم اتفق المستنطق وتاباري على ان يتعاقدا على السعي معًا في حل المسئلة

فينزل تاباري في بوجيفال حيث يتوفر على استكمال البحث والتحري و يتعهد المستنطق ان يفيده عما يبدو لديهِ من خصوصياتها لا سيما اذا عثر على الصكوك التي فقدت من الاية لروج والحّ المستنطق على تاباري ان يوافيهِ ايان شاء لمشافهتهِ اما في محلة جاكوب واما في دار الحكومة

وكانا قد بلغا وقتئذٍ الموقف فاكترى المستنطق عربة ودعا تاباري للركوب معهُ فاعتذر لديهِ لقربهِ من منزلهِ في محلة سان لازار

فعندئذٍ ودعه دابرون وعاهده على اللقاء القريب

الفصل الثالث

فاتحة السعي

ان معان (وَكالة) تاباري كان على مسافة بضع دقائق من موقف سان لازار تالف من طبقات شتى اعدّ قسما منها للكراء ونزل القسم الآخر في الطبقة الاولى المطلة على الطريق وكان ذلك القسم كثير الغرف حسن الوضع والرياش جمع فيهِ من الكتب اثمنها واجداها نفعًا لغرضهِ ولم يكن في داره الا كهلة التزمت خدمتهُ زمانًا طويلاً وكان يخرج مرارًا من داره النهار فيعود تارة اليها المساء وتارة يبيت خارجًا فلا يدري احد بما كان يخرج اليهِ ولا ما كان يسعى فيهِ لان امارات السذاجة البادية على جبينهِ كانت تغفر ما نقلب فيهِ الرجل من ادوار الحيل والتدبير . فتقوّل الناس عنهُ لجهلهم بهامهِ اقوالاً

متضاربة فمنهم من قال فيهِ البله ومنهم من ظنهُ طريد الهوى وشريد الغرام فرموه بالسوء قائلين «شمخًا لهُ من شيخ يسود بياض لمتهِ ويبذل ماء صفحته»

وكان تاباري على وفر موالفيهِ وكثرة محالفيهِ لا يخادن الّا امرأةً أيمةً تدعى مدام جردي نزلت وولدها نوال في جيرتهِ منذ خمس عشرة سنة

وكان نوال محاميًا في الثلاثة والثلاثين من سنيهِ صحيح البنية تلوح على محياه سيماء الذكاء والنباهة اسود شعر الراس والعينين بعيد الصيت مكبًا على العمل في مهنتهِ يتظاهر بالنزاهة وسلامة المبدأ

وكان تاباري اذا دخل منزل مدام جردي اقعد فيهِ واقام شانهُ في منزلهِ حتى انهُ عنَّ لهُ مرارًا ان يبوح لها بما عنده منها على كبر سنها فيمسكهُ عن الطلب خوف القطيعة اذا قابلتهُ بالجفاء والصد . فما لبث اخيرًا ان ولج نوال بصك شرعي مالهُ مخلفًا قسما منهُ وقدره مائة دينار يدفع مساناة للثقاف الذي يقوى على استجلاء اغمض المشاكل

فمكث تاباري في طريقهِ بعد انفصالهِ عن المستنطق نحو ربع ساعة وهو يتردد في سيره تردد الخواطر في ذهنهِ قبل ان يبلغ منزلهُ القريب وكان كلما تقدم خطوة يحجم اخرى باحثًا في نفسهِ عن مفاد كلام الآية لروج في قولها «ولي متى شئت زيادة ما اروم» قائلاً

— ان كل الصيد في جوف الفرا ما خلت المرأةُ الّا امينة سر اودعهُ صدرها بعض القوم لغرض في نفسهم فضنت بهِ لما لها فيهِ من جزيل الخير . لكن ما عساه ان يكون ذلك السر وانىَّ اتصل بها . لعلها خدمت في صباها بعض الاعيان فرأت منهم او اخذت عنهم شيئًا خطيرًا يوجب الكتمان وغض الطرف . لابد من ان يكون ذلك السر قد انطوى على مشكلة غرام او قضية هوى كانت فيها الرسول . وهنا تختلف وجوه المسئلة فنضطر عندئذٍ ان نتحرَّى الاهتداء الى الحبيب والمحبوب فلا يبعد ان يكون الحبيب نفسهُ هو غريمها او انفذ من ينفذ فيها غايته . لان القاتل الذي جنى عليها كان حاذقًا مدربًا

فلم يترك لعينيهِ اثرًا يعثر عليهِ الباحث عن الحقيقة . فما كان اضلّ جفرول لو اصرّ على عناده فجعل القتل سرقة ولكن ابى الله الاّ ان يظهر الحق وينصدع الباطل فصددت الزعم وابطلت الوهم مبينًا وجه الجناية وهو الهوى ان لم اقل البغي وكل آتٍ قريب

فما زالت تلك الهواجس تدور في خلده الى ان وقف عند دهليز الدار فكان البواب وامرأتهُ جالسين على مسافة فابصراه يخطو خطو القلق الحذر فقال البواب لامرأتهِ

— ها ان صاحب الدار مقبل

فاجابتهُ المرأة – ما اقبالهُ في هذه الساعة الاّ دليل ازراء خليلاتهِ بهِ فانهن ارسلنهُ ضجرًا منهُ قبل حين

— يا للغباوة والخسة أنىّ لمن كان مثلهُ ان يتجشم الذل او يلتحف العار فينزل على كبره منزلة الصغار . ولا عجب اذا تيهنهُ الخالبات الفاتنات فسقنهُ بدلالهنّ الى البيمارستان

وكان تاباري يتقدم شيئًا فشيئًا الى ان بلغ آخر الدهليز فرفع قبعتهُ مشيرًا بيديهِ اشارة المضطرب في امره قائلاً في نفسهِ

— لم ادرك المراد وقد فاتني الوصول اليهِ . . . أكاد اذوب كيدًا . .

ثم تخطى الباحة الى باب منزلهِ فطرق الباب والمفتاح في جيبهِ

ففتحت قيمتهُ وقالت متعجبة من قدومهِ في تلك الساعة

— ما بال سيدي قد عاد عجلاً على غير مالوف عادتهِ

— ما تقولين . . .

— قلت يا مولاي ان عودتك كانت على خلاف المعتاد فان الساعة الان قد تجاوزت الثامنة ونصف وقد كان داخلني الظن بتاجيل اقبالك الى الغد فهل تناولت طعام العشاء يا سيدي

— كلاّ

— اذن لقد احسنت اذ هيات المائدة وجعلت الطعام عليها احتياطاً فانهض يا مولاي غير مامور اليها

فجلس تاباري على الطعام واخذ الملعقة ليتناول الحساء (الشوربة) فما ترمّق منها شيئاً حتى وقف متردداً حائراً يشتغل في حلّ ما تعقد في خاطره فلما رأتهُ منة القيّمة على هذه الحال ارتبك بالها واضطربت قائلة — ما بال سيدي يفعل كالممسوس ويلي ماذا عرض لهُ ثم دنت منهُ ونبهتهُ بقولها

— ما بالك لا تاكل ألست بجائع

— كيف لا ولم اذق طعاماً منذ الصباح اضطراراً

ثم امسك عن الكلام لمعاودة الهجس فاعترضتهُ منة قائلة

— ما الذي كان يمنعك من الطعام

فرفع قبضتيهِ وصاح صياح من استبشر باليسر بعد العسر وقال — بلغت المراد . . .

فنبضت فرائص منة من هول حركاتهِ فارتدت مذعورة ووقفت بباب المائدة

فاستانف تاباري هتافهُ قائلاً — لا ريب ان في سرّ القضية ولداً

فدنت منهُ منة متلطفة وقالت — ما تقول يا سيدي وما المقصود بالولد

ولما عاد تيروكلار الى رشده انكر وجود قيّمته لديهِ وهو في حال الذهول فزجرها قائلاً

— أنى تجرأتِ علي الدنو مني تريدين مراقبتي واختلاس اسراري فاليكِ عني عجلاً والزمي مطبخك فلا تخرجي منهُ قبل الامر

فلبت القيمة امر مولاها وهي تزمجر قائلة — لقد اشتدت الحدة في حواس مولاي حتى صرت اخشى عليهِ العته

ثم عاود التهام طعامهِ ونجواه قائلاً — ما الذي اذهلني حتى الآن عن ادراك الغرض او ما عدل بي عن استجلاء السبب وهو واضح بوجوهه للعيان

فما اظن الحائل بيننا الا الكبر والعناء

فاطن الجرس يدعو الخادمة فاقبلت عليهِ للحال فطلب اليها ان تاتيه باللحم المعرّض فلبت الطلب عجلاً وانصرفت لشانها فلبث تاباري على المائدة يهجس قائلاً

— لقد وضحت لي القصة الآن بانحائها واحنائها وهي : ان الأيمة لروج ربما قامت في خدمة احدى السيدات المثريات وكانت ذات بعل نوني قد لفظتهُ الاسفار الى ارض الغربة فخلا لها وجه خليلها فبغت فعهدت الى تلك الايمة بثمرة الخيانة والبغي

ثم اخذ يتسأل قائلاً — ما حلّ بتلك الثمرة واين استقرت ؟ ترى هل اتلفت ومن اتلفها ؟ فلو عزونا الجناية الى الأيمة لروج لبطلت دعوى الخوف والحذر منها . كلاً فان الخليل المائم كان حريصاً على نموّ ثمرة بغيهِ وفساده فلا بد من ان يكون قد دفعها الى الأيمة لتعللها وتداريها حتى اذا بلغت النموّ المرغوب استرجعها منها دون البينات التي تثبت نشأتها ووجودها . وهذا تأويل القصة التي قدّرت . ان صاحب الثمرة هو الرجل الذي جاء منزل الأيمة على العربة الفاخرة ومنشاؤها كان في مستودع تلك المراة التي جاءت الى الايمة يصحبها فتىً وسيم . اما السبب الذي حملها على الفتك بتلك الايمة الغبية ان هو الاّ الحذر من اذاعة سر كتمتهُ طويلاً فكلف اصحابه مالاً جزيلاً الى ان نضجت الثمرة و باجلى عبارة الى ان بلغ المسبع (ثمرة الخيانة) اشده فحمل على الايمة كفيلتهُ فقتلها ليذود عن حوض امهِ واحرق ما كان لديها من الصكوك ازالة للشبهات .

وكانت الخادمة منة اثناء هجس سيدها ونجواه واقفة بالباب تسترق السمع من خصاصهِ وحاصل ما استفادتهُ في وقوفها بعض كلمات كانت قد فرطت من فيهِ عن حدة منهُ وبعض اشارات دلتهـــا على ان بعض النساء يتوهمن سيدها باغياً . فثارت في صدرها الحمية حتى خطر لها ان تقتحم فتح الباب

فاطلت منهُ وقالت

— ألا ترغب يا سيدي بالقهوة

— بلى

فما كان الاَّ برهة حتى دخلت الخادمة عليهِ بها فتناولها للحال وصرفها قائلاً في نفسهِ

— لقد صدق من شهد لي بالحذاقة والدهاء اذ ادركت الان من نفسي حل معضلة تعصب قوم على استجلائها دون ان يفتح الله عليهم بكلمة . أَنى لجفرول ان يبلغ مني شأْوًا يقصر عن مداه اعظم الساسة . فما ضرَّني لو قمت اسعى الان في مكاشفة دابيرون المستنطق فاطلعهُ على نتيجة مسعاي وبحثي . . لا لا من الحكمة ان امعن الفكرة في وجوه المسئلة الليلة فاوفقها عاني ادرك ايضًا ما يزيدها وضوحًا وبيانًا . لكن اخاف اذا لبثت مكاني ان اتمادى في الاشتغال بها فاضنك جسمي واقلق راسي بما ينالني من الانزعاج بعد الاكل فاحرِ بي ان اقصد زيارة مدام جردي فاستعلم حالها اثر العلة التي نزلت بها اخيرًا واجالس نوال حيلة للتسلية

فصوَّب من نفسهِ هذا الراي فنهض للحال واخذ قبعتهُ ورداه وعصاه قاصدًا وجهة الباب يريد الانصراف فاستوقفتهُ الخادمة بسوالها

— اتريد يا مولاي الخروج الليلة

— نعم

— هل نتاخر في عودتك

— لا اعلم

— هل تنام خارجًا

— لا استطيع بيان خاطري في هذا الشان

وانطلق تاباري بعدو الى منزل جارتهِ فما كان الاَّ القليل حتى طرق الباب

ان مدام جردي كانت تحسن تدبير منزلها وتتوفر على اتقانهِ ونظامهِ شان اصحاب البيوتات فتوثر الامتناع فيهِ مع ولدها نوال . ولم يكن يتردد الى زيارتها الاَّ كاهن الرعية واستاذ نوال واخوها وجارها تاباري الذي كان كما قدمنا اليفها منذ خمس عشرة سنة

فهولاء الزوار كانوا اذا اجتمعوا في الدار جلسوا في الردهة يتلهون احيانًا بالحديث واحيانًا ببعض الالاعيب المالوفة عندهم اما نوال فكان ينقطع في مخدعهِ صارفًا الليالي في تصفح الدعاوي الموكول اليهِ فصلها او الدفاع عنها

وكان كلٌّ من الام والابن يتفانى في حب الآخر ويفدي من اجل هذه الغاية اعز ما لديهِ حتى سرى حبهما بين القوم مثلاً . فما من واجب على الابناء نحو الآباء الاَّ وكان نوال يقضيهِ برغبة ونشاط منقطعًا عن كل الملاذ واقفًا عند حدّ رضى والدته وسرورها ليس غير فكأَن الدنيا وما جمعت لديهِ آثارًا يرى فيها عين امهِ . وكذلك الام كانت تشهد فضل ولدها ودليل نجابتهِ في كل ما كان يبدو لديها فتهفو اليهِ وتعطف عليه وبالجملة كأَن ابنها لم يخلق الاَّ لها وكأَنها لم تكن الاَّ لهُ

فما انتظر تاباري على الباب الاَّ برهةً حتى طلعت عليهِ الخادمة فابتداها بهذا السوال

— ايمكنني الاجتماع بمدام جردي

ودخل قبل ان يتلقى الجواب متخطيًا الى الردهة فولجها على ضوء شمعة وتعجب اذ رأَى خلاف المعتاد ان ايدي الخلل قد تطرقت اليها فعبثت بنظام اثاثها ثم بدت لهُ صحيفة مجعدة على المباط عند قوائم كرسي مدام جردي فازداد عجبًا واندهالاً فسال الخادمة قائلاً

— ما لي أرى انقلابًا في نظام الردهة هل حدث عندكم ما اوجب ذلك

— بالله لا تسلني يا سيدي السبب اثناء الحزن وحذر القلق فقد باغتنا هول ذهب بروعنا

— بنّي ما جرى

— لا خفاك ان سيدتي كانت تشكو ألمًا مبرحًا منذ شهر امسكت اثناءه عن الطعام وقد قالت لي ايضًا صباحًا انها . . .

— لا اسالكِ ما قالت صباحًا بل اريد بيان ما كان المساء

— انها خرجت من المائدة فجلست في الردهة واخذت تتصفح صحيفة طلبتها الى نوال فما كاد يستقر بها المكان حتى صاحت صيحة ازعجت اهل الدار فبادر كلنا اليها فالفيناها ملقاة على الارض مغميًا عليهـا فاخذها نوال بين يديهِ واحتملها الى مضجعها . فسالتهُ احضار الطبيب فابى قائلاً ان ليس في الحادث من باس وهو اعلم بمعالجته

— وما كان بعد ذلك

— فاتني العلم بهِ لان سيدي نوال كان قد صرفني حالاً من المخدع وما اخالها الاّ في راحة وعافية لانني سمعتها تصيح صيحة غريبة

— ما تقولين وفيمَ الغرابة

— في حديثها مع سيدي

— تبًا لكِ من خادمة وقاح الوجه أأنتِ ممن يتجسسون الحديث على الابواب

— كلاّ يا سيدي ولكن لم استطع ان اصم آذاني عن صراخ سيدتي قائلة . .

— اقصري واعلمي ان التجسس على الابواب لمن شر العوائد واسالي عن ذلك خادمتي منة

فحاولت الخادمة التنصل من تبعة ما تهورت فيهِ فقاطعها تاباري الدفاع قائلاً .

— سيري لشانك ولا تزعجي احدًا فانني انتظر نوال في الردهة

فذهبت الخادمة وغادرت الزائر في مكانهِ يتلهى بمطالعة الصحيفة التي كانت على المبلط فما كاد تاباري يلقي انظاره على الصفحة الاولى حتى نبضت

فريصتهُ واهتزَّ هلعًا مما رآه عليها وكان ما قرأه في جملة الحوادث المختلفة هذا الخبر وهو :

« حدث في لاجونشار جناية هاج من جرائها الاهلون وماجوا فاستطارت
» البابهم من شرها هلعًا وتصدعت افئدتهم لعظم وقعها جزعًا
» تطرقت ايدي الاعتداء الى منزل الايئة لروج امرأة عرفت بين اهل
» البلد بالسكينة والوقار ونزلت عندهم منزلة الحب والاعتبار ففتكت بها
» بغيًا وعدوانًا وجرعتها كاس المنون ذلاًّ وهوانًا ولما نمى خبرها الى الحكومة
» ارسلت للحال رجال البحث والتدقيق ومما علمنا انهم قد اهتدوا الى الجاني او
» كادوا يهتدون باقرب طريق »

فلما اتمَّ تاباري تصفح الخبر صاح حيرانًا – ترى أَهي مدام جردي ...

وما طالت حيرتهُ الى ان تبددت فهزَّ منكبيهِ واطرق راسهُ خجلاً وقال في نفسهِ

— ان حادثة الايئة لروج تهمني وكأَن الحق يدعوني لاطالة البحث فيها في كل مجال عجباه فاية صدفةٍ ساقتني للاطلاع على هذه الصحيفة وتصفح ما جاء فيها تاييدًا لهواجسي

وبينا هو يناجي نفسه في معنى ما رآه وما بدا لهُ عمومًا فتح باب الردهة صدد مضجع مدام جردي وطلع عليهِ منهُ نوال تبدو على وجههِ امارات الاضطراب والقلق فلما رآه تاباري قام اليهِ وابتدأهُ بهذا الكلام

— رجوتك بالله ان تسكن ما جاش في فوادي من انزعاج والدتك

— ما عليها من باس

— اتنكر عليَّ يا نوال انزعاجك مما دهاها وقد نمَّت بهِ آثاره على جبينك

— لا انكر الاثر الاَّ انفاء شره في النفس

وكان نوال اثناء حديثهِ يحاول جهده تسكين اضطرابهِ ليتسنى لهُ الجواب على كلام زائره بصراحة تنفي كل ريب ولكن أنىَّ لتاباري ان يفطن للحال

مخاطبهِ وقد اشغلتهُ الخواطر حتى بعدت بانظاره عن مواطن الحقيقة الظاهرة فسالهُ متعطفًا

— حبيبي ما الذي اوجب انزعاجها

ولما كان نوال مضطربًا في امره لم يتبين لهُ للحال وجه الجواب المطلوب فتردد في نفسهِ برهة ثم قال

— انها تاثرت من خبر مزعج نقلتهُ الجريدة عن امرأة كانت تودها مودة شديدة

فصاح تاباري متعجبًا — ما في الحادث من محل لشدة الاسف واللهف . .

ان تاباري كان قد بلغ بهِ العجب ودفعتهُ الحيرة ما اصابهُ وادعًا الى حد الاقرار بسره والسوال عن حال الايمة اروج وامرها مع والدة نوال لكن شدة الفرح بوصولهِ عند الغرض من ابحاثهِ اشغلتهُ عن افتضاح سره فلبث صامتًا

وقفى نوال حديثهُ قائلاً — ان تلك المرأة كانت تتهالك على خدمة والدتي وتستميت بها

— هل لك معرفة فيها

فاجابهُ نوال وقد تهدج صوتهُ من الحزن — لقد طال بيننا عهد اللقاء ولكنني ما زلت اودها لانها ارضعتني

— هل هي نفسها ارضعتك

وهنا طفح السرور على فواد تاباري حتى كاد لا يصدق بوجدانهِ فقال في نفسهِ — لا ريب ان العناية الالهية قد دعتني للسعي في هذه الدعوى فكانت هدايتي ودليلي فاعلمتني ببرهة وجيزة ما كاد يذهب برشدي حيرة وارتباكًا .

ولما كان امساكهُ عن الحديث مظنة لدى نوال رأى ان يبطلهُ بقولهِ

— بالحقيقة انها لرزيئة كبرى

— ويا لها من رزيئة يعزُّ عليَّ فيها الصبر قهرًا . ويهون فيها صب الدم لا الدمع صبًا مستمرًا . آه لو تعلم بما نالني وحدي من فقد هذه الأيمة لما لمتني

على الزهد من بعدها بالبقاء والتماس الفناء . بها نقوضت مباني الاماني وخاب املي من زماني . بوجودها كنت اصد نبال الاعداء . وفي فنائها نقصدت نبالي فعدمت الرجاء . فلا ريب انني من اهل الشقاء

فحن تاباري متعجبًا لشكوى نوال فقال له

— ما بالك تشكو القهر والدهر وقد خانك الجلد والصبر وانت وحيد في هنائك وراحتك وفريد في عزك وسعادتك

— اين انا من ساحة الهناء والراحة وقد شطت بيننا المساحة . آه انني اخاف ملاقاة الجور والغدر واتقي سهام الريبة والمكر بل اخشى ان يقذف الناس عرضي في العار فيتقولوا عني ما لا استطيع عليه الاصطبار

فاستبهم على تاباري وجه العلاقة بين شرف نوال ونازلة لاجونشار فتالبت الى ذهنه الهواجس ولعبت براسه الوساوس فحاول استجلاءها بالمناظرة فقال

— هوّن عليك يا نوال ودع ذكر الريبة والغيبة فلا وصول لها اليك ولا اثر لها فيك وقد كثر محالفوك وخلانك . ووفر موالفوك واخدانك . فاعتمد عليهم في الذود عن حوضك وخصوصًا انا صديقك الذي لا اعادل بحبك ثمنًا وعزك عندي كل رغبتي وتمام المنى لا تخفِ عني ما فعلت بك الاحزان فاشرح سرك وكن من كتمه في امان

فاستخفت عندئذٍ نوال ثائرة الاشجان فنهض وقال بصوت اللهفان

— لا بد من الشكوى الى ذي مروءة فيسليك او يتوجع . نعم نعم سابثك يا اخي ما كتمته صدري حتى كاد يتصدع

— اعلم يا نوال انك عندي بمكان ابني لا خدني وقد تاكد لك من قبل حرصي على تقدمك ونجاحك وضني بكلما يأول الى ترقيك وفلاحك فصرّح بما عندك دون ارتياب ولا تجزع فاني لديك خير من يذود عنك باقوى الاسباب

— فاسمع اذن ما ارويه من قصتي وشرح غصتي . . . لكن اخاف ان

بباغتنا هنا من يهم بالسر فيزيدني قهرًا على قهر فالاولى بنا ان ندخل المخدع حيث من لا ينظر ولا يسمع

الفصل الرابع

كشف السرّ

فدخل نوال وتاباري المخدع واقفلا الباب فما كادا يجلسان محاذاةً حتى ابتده تاباري نوال بالكلام قائلاً

— ربما دعت الحاجة والدتك اليك فما نعمل

— ان مدام جردي اذا احتاجت الى امرٍ نقست الجرس فتوافيها الخادمة للحال

لمن جواب نوال الجاف كان داعيًا آخر لارتباك بال تاباري وارتيابهِ لان نوال لم يكن ليفصل من قبل امرًا على حاجة والدتهِ او ان يسمح لاحدٍ دونهُ بقضائها وتنفيذها فما لبث ان اتخذ طريقًا لاستبطان سرّ نوال من هذا القبيل فقال

— يتبين لي يا نوال من اغفالك احترام امك في حديثك ان قد حصل بينكما نفور وقد اراه مشتدًا اشتداد حدتك فاحب اليك مسالمتها ونزع الموجدة من فوادك الصافي فعد الى حبك الاول وذلك احق واعدل . فلا عدت تناديها بمدام جردي كما تنادي الغريب فهي امك لا قرين ولا حبيب

— آه ما ضرَّ لو ناديتها باسمها

— وما الداعي الى هذا الفتور والاحتقار

فنهض نوال عن كرسيهِ وجال في عرض المخدع برهة ثم عاد فجلس الى جانب تاباري وقال لهُ

— لانها ليست بوالدتي بل هي مدام جردي

فانقضت هذه الكلمة على راس الجاسوس انقضاض الصاعقة فضعضعتهُ وذهبت برشده فما لبث ان قال قول من يحاول دفع ما لا يريد تصديقهُ

— ناج نفسك يا نوال واستجلب هداك فان ما قلت لا اصدقهُ ولو حلمًا

— لا انكر ما في الامر من عجب ولكن لقد وضح السبب فتاكد انها ليست بوالدتي وان هذه المرأة منذ ثلاث وثلاثين سنة اي منذ نشأتي اخذت تمكر بودي وحبي من اجل ابنها ومنفعتهِ فهل سمعت برواية اعجب من هذه الرواية . و بغواية اغرب من هذه الغواية

فعندئذٍ استشفَّ تاباري عين الأيمة لروح من وراء الاثر الذي نشر لديهِ فاحب ان يخوض في الحديث فقاطعهُ نوال وصدَّ آذانهُ عن سماع كلامهِ مستاثرًا بالخطاب وقد تجاوز حدود السكينة التي عرف بها من قبل فالتزمها في كل حال فكان وقتئذٍ كالنضناض يتململ فما لبث ان باح قائلاً

— تبًا لي انا الغرُّ الغبي فما كان اغواني في حب تلك المرأة وما اضلني في سبيل احترامها واعتبارها . اسفاه لقد ضيعت ايامي في رضاها و بذل ما يضمن راحتها وهنائها . فياللوقاحة ان عهد مكرها بي وبحبي كان منذ اخذتني على ركبتيها وضمتني الى صدرها على انهـا تمكنت من غفر زلتها فعصبت على عينيَّ كما يعصب على عيني الطفل فارتني المكر ودادًا . والضلال رشادًا . والغدر سدادًا . والرياء صفاء . والجفاء وفاء . آه من لي بتزع ما سلبتنيه حرامًا . وما اغتصبتهُ من عواطفي بردًا وسلامًا . اواه لو كنت تعلم بما كانت غايتها وغرضها من الغدر بي . انها غرَّتني لتخول مسبعها حسبي ونسبي

— يا للفظاعة انهُ لم يخطر ببالي ان مدام جردي تاتي من الافعال ما لا تأتيهِ اخبث النساء وادهى الرجال . ولكن ما خلتها يدًا واحدة في الجريمة بل ان لها انصارًا تاخذ بتلك اليد الاثيمة وحسبها بزوجها عضدًا . . .

— لا زوج لها يا صاح ولا قرين وقد غرتك حالها كما غرت الآخرين فان مدام جردي ليست بأيمة وانا نشأت ابن غيها وفسادها من والد لا اصل لهُ يعرف فيوصف

— لقد تبين لي الآن السبب الذي من اجلهِ انكرت كريمة لفرنول الاقتران بك منذ اربع سنوات

— آه لو تمَّ لي ذلك الزواج لوقاني من شر ما اعاني ولكن عدلت عنهُ حبًا بتلك التي توهمتها امي وآثرت البقاء عندها اروم بملازمتها فرج كربتي وغمي فيا ندمي على ما فعلت و واحسرتاه على عمر طويتهُ بالغرور والضلال . فاسمع يا اخي ان خليل هذه المرأة لما اراد هجرها وصدها دفع اليها شيئًا من المال لقاء المدة التي قضاها عندها وتمتع فيها بودها

فقاطعهُ تاباري الكلام يريد ان يعارض في ذهنهِ وجوه هذه الرواية بتلك التي توهمها من قبل ليؤيد حذاقته فاضرب عن الجواب على حديث نوال قائلاً

— لا تخبط يا عزيزي في دياجير الضلال واهتدِ الى رشدك واصغَ الى ما اسالك عنهُ بغية ان انصحك في امرك وانت تعلم يقينًا انني اشد الناس حرصًا على منفعتك واصدقهم لهجة في مودتك . فقل لي . أنَّى اتصل بك ما علمت وهل لديك الحجة عليهِ ؟

ان اللهجة التي اتخذها تاباري في حديثهِ مع نوال كانت كافية لكشف الباطن ولكن الاضطراب الذي كان يتقسمهُ وفتئذٍ والالم الذي تنازع فوأده الجريح اذهلهُ عن التماس الدلائل والامارات فقال

— ان ما اتصل بي من هذا الامر كان قد جاءني عرضًا منذ ثلاثة

اسابيع اما بيناني فادية ليس غير فلو ابقي على الأيمة لروج لوضح الحق وخزل الباطل بكلمة من فيها ولكن قد تلافى الغادر الحذر فاتلفها . وقد كانت اخبرتني سرًّا القصة فعرّفتني بنفسي فاذا ثبت الان البرهان الى مدام جردي انكرتهُ عليَّ دون شك ولا ارتياب واخاف ان يتحوّل مكر ابي الباغي اليَّ فيبطل ما ادعيهِ وابينهُ . . . لكن تأكد ان ما قلت حقيقة لا يلابسها وهم

— بالله اشرح لي المقال جيدًا واسهب في التفصيل لاكون على بينةٍ منهُ حتى اذا رأيت النصيحة محضتها دون اشتباه

فقال نوال — مستني الحاجة منذ ثلاثة اسابيع الى تصفح بعض الصكوك القديمة فعمدت الى سحابة مدام جردي ففتحتها واخرجت منهـا بعض الرقاع المرصوفة فيها فاتفق انني اصبت عرضًا رزمة من الرسائل فتهيأ لي تصفحها ففككتها ونشرت رسالة منها

— لقد اخطات يا نوال في ما فعلت

— لا باس فانني قرأتها وعرفت منها اسم ابي الذي كتمتنيهِ مدام جردي زمانًا طويلاً على رغم الحاحي عليها باشهاره ولما رأيت ان لا بد من ان يكون لتلك الرسائل شان خطير في ادوار حياتي وحياة الخلابة جئت بها خفية الى هذا المخدع واخذت اتصفحها كلها واحدة فواحدة

— لقد لقيت جزاء ذنبك بما انطوت عليهِ

— صدقت وهل من كان في موقفي الحرج يقوى على كتمانها او يضرب صفحًا عن بيانها . كلاَّ فانها كانت مورد برهاني وحجتي عند مسيس الحاجة فلولا انني اطلعت على اسرارها لعجزت عن الاتيان لديك بما اتيت

— فهل ابقيت على هذه الرسائل

— نعم ولا بد من ان اطلعك عليها فتتدبرها جيدًا ليتهيأ لك وجه النصيحة على هدى

ثم نهض المحامي فعمد الى السحابة ففتحها بقفل متصل واخرج منها رزم

الرسائل وقال

— اسمح لي ان اصدف كشحًا على ما جاء عبثًا فيها فلا اذكر الاّ المفيد منها و بالجملة كل ما يؤيد صحة دعواي

فاستوى تاباري على كرسيهِ يتلظى من حر نار الرغبة في اكتشاف ذلك السر الخفي بينما كان نوال ينتقي الرسائل فيتخير منها ما كان عظيم فائدة في شانهِ . الى ان نشر هذه الرسالة وقرأ بصوت منهدج

«حبيبتي فالري»

ثم نظر الى تاباري قائلاً — لا خفاك ان فالري هو اسم مدام جردي

— عرفت ذلك فلا تنقطع

فاستانف نوال القراءة وقال

« حبيبتي فالري

» ان يومًا اقرأ فيهِ رسائلك لهو من ابهج الايام عندي واجلاها .واعظمها
» واحلاها . فقد انتهت اليَّ اقبال بشرى ثمرة ولائنا واخائنا فقبلتها بالترحاب
» وقبّلتها من الدهشة والطرب بلا حساب فطويت في صدري ما انطوت
» عليهِ وضممتها الى اخواتها حرصًا عليها من يد الحدثان وآفاتها
» فسقيًا لنا ان الدهر قد مكن بيننا الصلات واحكم بما بشرتني بهِ العلاقات
» فجعل لي معكِ عهدًا لا انسى ما عشت انسهُ ابدا ولو طال بيننا المدى .
» آه يا فالري ليت لي جناحين فاطير اليكِ وارفرف عليكِ . فعندكِ راحتي
» وتمام سعادتي . جزى الله ابي وامي اللذين قيداني بمن لا اهواها فاشربا قلبي
» بغضها وجفاها فلا خفاكِ انها تعد لي ايضًا قريبًا بمولود سيكون موضوع غمي ما
» دمت في الوجود

» يا الشقائي اني لقد غدوت الآن بين الهناء والعناء والعزّ والشقاء .
» لا ادري كيف اتدبر امر الولدين في مستقبل الايام فاعدل بينهما على حكم
» قلبي لا النظام انني احاذر يا فالري ان ينتزع ابني الشرعي حسبي ونسبي ومالي

» وكل ما ملكت يدي فيتجرد من احببت واحب من آثار النعمة والسعادة
» ليرفل من كرهت واكره في باحة الغبطة والسيادة

» انني لا اطيق صبرًا على هذا الجور والحيف وقد ضقت ذرعًا عن
» حل الاشكال فلا اعلم بما ازيله وكيف . ارشدني فالري ما الحيلة ؟ اهديني
» الوسيلة ؟

» تيقني يا حبة فوادي انني لا ازال باحثًا منقبًا محققًا مدققًا دون مكافاة
» الوداد فابلغهُ وابلغكِ من حياتي وجناها كل المراد . فانا وما ملكت بين
» يديكِ وراحتي في راحتك والسلام »

— من اين انفذ الكتاب وما عهد انفاذه

فعرض نوال لديهِ الكتاب وقال — « قد انفذ من فانيز في كانون الاول عام ١٨١٨ »

ثم استانف الخطاب في موضوع الكتاب فقال — لا حاجة الى بيان ما سطر فيهِ جليًا وقد ادركتهُ مليًا ومع ذلك فهذا مجازه : ان والدي كان قد تزوّج كرهًا فجافى زوجتهُ وكلف بحب خليلته وكلتاهما الان حامل فداخلهُ الهمّ من جراء القسمة بين الوالدين مستاننًا فارانا في كتابهِ انهُ يسعى في ابطال حقوق ابنهِ الشرعي زورًا وكفى

— انني تبلغت الامر تمامًا فعرفت وجه ارتباكه فيهِ فما لنا ولهُ

— وهاك كتابًا آخر بتاريخ ٢٣ كانون الثاني عام ١٨٣٦ ولئن كان مشبعًا حديثًا لا غرض لنا عنده فمع ذلك لا يخلو من فائدة نقف منها على ما في ضميره ومسعاه . وهذا مؤداه :

» انني اطاعن يا حبيبتي في محبتك صروف الدهر وانازل في القدوم
» اليكِ صنوف القهر . فلا تزال الايام تقعدني عنكِ وتمسك بي عن التقرب
» بالجسم منكِ لكن وحق هواكِ ان لي فوادًا لا يستقر جوى بين الضلوع
» وطرفًا لا يعرف على النوى طعم الهجوع لا سيما منذ بشرتني بحملك ثمرة الوفاء

» ورابطة الاخاء . فاعاهدك على العناية بهـا والسهر عليها معاهدة اب
» لا صديق فانكِ قد جرحتِ قلبي بانكارك في كتابك الاخير عنايتي بمن
» حملتِ مستانفًا وارتيابكِ بخلوصي الخصوصي له . فالري ما الذي يحملكِ
» على الارتياب بقلبي وقد ابتليتِ حبهُ واختبرتِ صفاءه . فتيقني انني اموت
» بكِ صبًا

ثم طوى نوال بعض صفحات من الكتاب قائلاً — لا حاجة لنا في قراءة السفاسف الغرامية والترهات الصبيانية وجل ما اتعمده الوقوف على ما يهمني من بيانهِ فاسمع ما جاء فيهِ ايضًا :

» ان حمل الكونتة ينمو شيئًا فشيئًا نموّ الحقد والبغضاء في فؤادي وقد
» رأيتها اخيرًا من الهمّ في حال يرثي لها فكانها قد عرفت باسراري واطلعت
» على افكاري او كأن حظها من الزواج بي حظي من الزواج بها وسيرتها معي
» سيرتي معها . اسمحي لي يا فالري ان احن لمصابها واشكو لما بها . لئن لم تكن
» زوجتي فقد صارت بالحظ قرينتي . وما اخالكِ تؤاخذينني بالشفقة عليها
» والرحمة بها »

فبكى عندئذٍ المحامي وقال — تلك التي يسال خليلها العفو عن رحمتهِ بها هي والدتي

ثم موّه الدمع المسترسل من اجفنيهِ باطراف بنانهِ قائلاً — لهفي عليها فقد ماتت

وكان تاباري على رغم ما وقع في نفسهِ من اثار تلك الحوادث التي وضحت لديهِ رأى ان يمسك عن الكلام حبًا بصديقهِ واحترام حزنهِ وغمهِ . اما نوال فانهُ رفع رأسهُ واخذ بقية الرسائل وقال

— ان هذه كلها حوت ما يشير الى اهتمام والدي بالمسبع والسعي في اغتصاب حقوقي من اجلهِ . فدونك واحدة منها انفذت من رومية في ٥ اذار ١٨٢٩ وقد انطوت على اجل ما يتحراه والدي للحال

» ان هي الوحيد ولدي او ولدنا وغاية مناي ان اوفر لهُ اسباب الراحة
» والسعادة في مستقبل ايامهِ فلا اعلم بما ابلغ الى تلك الغاية وقد ضاقت
» لديَّ السبل في زمن بات فيهِ اصحاب الجلاء في ضنكٍ شديد فهم اليوم
» والماهن لدى الحكومة شرع »

ثم جعل في ذيل الكتاب هذا الاطراء وهو :

» ان فوادي يا فالري يحدثني عن حسن الولد ومحاسنهِ فيتمثل فيهِ ذهني
» صفاء سريرة امهِ وذكاءها ولطفها ورقة شمائلها في اقدام ابيهِ وعلو همتهِ وكرَم
» اخلاقهِ وطيب ارومته . آه انني لا استطيع ان اتصوره دون ان تاخذني الرعدة
» فلا ريب يا حبيبتي ان البغضاء لا تولد الاَّ اطفال شرٍّ على مهد السوء كما ان
» المحبة تنتج القوة والحسن على سرير الجمال »

أَسمعت يا صاح ما يقول في هذا الكتاب معرّضًا فانهُ يشير اليَّ بربيب السوء ويخص ولد البغي بالحسن والجمال ولكن مالي ولتعريضهِ فان كل ذلك لم يكن الاَّ مقدمة سفر فعلاتهِ وسآتيك بذكر نتائجها

ان تاباري لم يتعجب من تمادي ابي نوال في الهوى وتطوحه في ميامهِ وفيافيهِ لما كان عنده بذلك من آثار صباه لكنهُ لم يتمالك ان تظاهر بالحيرة مما كان يتلى عليهِ فيكشف لهُ عن اسرار غامضة يتعذر عليهِ لولا حسنات التوفيق ابتلاؤُها

وبينا هو في شاغل من نفسهِ نبههُ نوال بقولهِ اسمع يا عماه ما اثرتهُ عن كتاب طويل بعث بهِ والدي الى خليلتهِ عن فانيز في غرة شهر ايار وهذا ملخصهُ :

«عزيزتي فالري

» سي لي زمان الوضع اني بانتظار الجواب على مثل الجمر ولا حاجة الى
» ان ازيدكِ بيانًا عما في فوادي من الاماني التي اريد تحقيقها ولَآمال السعادة
» التي انهج طريقها فعساي ان ادرك المرام فيكون لنا تمام الحظ في غرة جبين

» الغلام »

ذلك معنى الكتاب فلا ادري بما كان من مدام جردي جوابًا عنهُ ولعلها راسلتهُ في هذا الشان كما يتبين لي من كتاب ابي اليها في الرابع عشر من الشهر

«ان جوابك نزل على قلبي بردًا وسلامًا . فارشدني السبيل الذي » بهِ اضمن حياةً وراحة ولدنا ويوم اقبالهِ عليَّ كان عهد اماني ببلوغ الاماني » فاعلمي يا حبيبتي ان الغلام يدعى باسمي ولن ينفصل عني بل يلازمني ويقيم » عندي في منزلي بل على صدري

»آه لو كنتِ تعلمين بما بلغت اليهِ درجة سروري وفرحي . فالري ان » لي نفسًا تقوى على معاناة الاحزان وملاقاة الحدثان فيا ترى هل يكون لي » اخرى اقوى بها على استقبال الافراح . يا مالكة فوادي ويا رجائي الوحيد » لا تقلقا ولا تحزنا فان لكما في فوادي منزلاً يأهل بكما ولا يضيق عنكما ما » طال عمري

» انني انزح غدًا الى نابولي فانفذ اليكِ منها رسالة مشبعة . وتأكدي انهُ » لا يعيقني عن موافاتك الى باريس في ذلك اليوم عائق لان لكِ بوجودي » قوة يعززها الحب وراحة يصونها الوفاق »

فعندئذٍ اعترضهُ تاباري قائلاً — لا تلمني يا نوال اذا قاطعتك الكلام فسالتك بيان الاسباب التي كانت تمسك بابيك في ارض الغربة

— ان والدي كان على كبر سنهِ من خاصة كارلوس العاشر وموضع سره فرأى ان ينفذه الى ايطاليا في مهمة خفية وكما لا يخفاك ان ابي يدعى الكونت ريتو دي كومارين . ففي اثناء شهر ايار صار الى نابولي وهناك دفعهُ الجهل ومال بهِ الهوى الى ان يودع صدر صحيفة شفافة ادق اسراره بل شرها واخطرها على رغم فطنتهِ ودهائهِ في ضروب السياسة وفنونها وهذا مفاد تلك الرسالة بمبناها

« يا مني روحي

» انني انفذ اليكِ خادمي جرمان رسولاً اميناً وقد وجهتهُ الى نورمانديا
» لقضاء مهمة خطيرة فهو يدفع اليكِ رسالتي فثقي بهِ وكوني في امنٍ مما تودعين
» صدره من الاسرار . لقد آن الوقت الذي اطلعك فيهِ على ما دبرت وما عولت
» عليهِ بشان ولدنا العزيز وسانزل باريس بعد ثلاثة اسابيع . واذا رجح ظني
» كان موعد وضعكما سواء وان اختلف الزمان فتقدمت احداكما الاخرى
» بضعة ايام لا يزال الراي واحداً في ما دبرت وهو :
» انني اكل تربية الولدين الى ربيبتين في ضاحية اجتمعت فيها كل
» املاكي . فاحداها وقد كفلها جرمان خادمي فصار اليها حالاً تلائم مذهبنا
» وتاخذ في الامر اخذنا واليها اعهد بتربية ولدنا الحبيب اي ولد فالري .
» وستسافران معاً من باريس في يوم واحد فيكون جرمان في رفقة ربيبة ولدك
» وولدي
» وبحيلة دبرتها قبلاً يتفق نزول الربيبتين ليلاً في نزلٍ على الطريق
» وقد عاهدت جرمان على ان ينزلها معاً في غرفة واحدة
» حتى اذا انتصف الليل تعمد ربيبتنا الى مبادلة الولدين فتضع الواحد
» مكان الآخر وقد اخذت الاهبة لذلك ليكون سرنا في مكان حريز لا ينم
» بنا احد ومن عزم جرمان ان يعوج على باريس ليبتاع الاقمطة اللازمة من شكل
» واحد فوافيهِ الى السوق واسعديهِ على اختيارها طبق المرغوب
» لا ريب ان فوادكِ يتقطع اسفاً لبعد ولدك منكِ بهذه الحيلة ولكن
» ستنالين من الحظ في الاستقبال ما يسليكِ ويداوي كلومك واطلب اليك
» ان تقومي حق القيام بما تفرضهُ عليكِ السنن الوالدية نحو الولد الآخر
» فتودينهُ مودة حقيقية فتحرصين عليهِ وتدارينهُ مداراة العين وانظري في تربيتهِ
» نظر الوالدة الى ولدها واعلمي ان في ذلك غاية مناي ورضاي . لانني
» لا اقصد في اسعاد الواحد شقاء الآخر بل اريد ان اوفق بينهما في الراحة والهناء

» لا تؤاخذيني يا حبيبتي بما اجريهِ قبل ان تدركي النتيجة فان الزمان
» قضى عليَّ بذلك وما زلت اخشى عناده لكن املي ان ابلغ المراد فاتكلي عليَّ
» بعد الله »

ففال تاباري في نفسهِ — ذلك ما كنت اتوقعهُ من جدّي

ثم استانف نوال الحديث فقال — أنيَّ لهذا الشقي ان يتخذ الله لهُ على الغدر نصيرًا

فاعترضهُ تاباري قائلاً — هل رضيت مدام جردي عما اقترحهُ عليها والدك دون اعتراض

— انها حاولت بادىء بدء الانكار غير انهُ توصل ببيانهِ وقوة برهانهِ الى اقناعها كما يتضح لك ذلك في عرض الرسالة التي اجتزأتها

— مهلاً يا نوال فاني اراك قد وجهت كل الملام الى مدام جردي على ان العدل يقضي بشجب والدك الذي رغب بذلك اليها فارغمها عليهِ

— صدقت في ما قلت ولكن ارى سببًا من نفسي يدفعني للتحامل على ربيبتي الشقية . لئن كان والدي قد اخطأ في ما دبر على شقائي فعذره واضح في عشقهِ وغرامهِ . آه انني لا استطيع ان اذكر تلك الشقية الماكرة دون ان يتفطر قلبي كيدًا وحقدًا عليها . فانها قد عاملتني بالمكر والخديعة نحو ثلاثين عامًا فارتني البهتان حقًا . جزاها الله كما جزى والدي بما جنت يداه عليَّ

— هل لقي ابوك جزاه

— نعم نعم وستعلم بهِ مستانفًا اما الآن دعني استانف الحديث في معنى ما ابتدات بهِ معك وهو انهُ في غرة شهر حزيران بلغ الكونت باريس بدليل انقطاع رسائلهِ فاجتمع بمدام جردي واتفق معها على تدبير الحيلة وانفاذ ما قرَّ عليهِ . وهاك رقعة تزيل الريب وتميط اللثام عن وجه الحقيقة في هذه المسئلة وكان قد بعث بها الى الربيبة اثناء قيامهِ في التويلري باعمال لم تجز له مزايلة المقام حتى انهُ اضطر ان يرقمها في مخدع الملك على ورقهِ كما يتبين ذلك من

الشارة الواضحة عليهِ. وعلى مفادها تعاقد مع مدام جردي على تنفيذ المرام فابلغها النتيجة في الكتاب الآتي

« عزيزتي فالري

» جاءني جرمان بخبر وصول ربيبته ولدنا وستفد عليك نهارًا فثقي بها
» كل الثقة لانني وعدتها بمالٍ جزيل لقاء كتمانها فما لكِ ومالها فانها تجهل
» اطلاعكِ على جلية الامر فاضربي عن التداخل معها في شيء من ذلك
» واتكلي عليَّ فانني اعلم بحلّ المعضلة منكِ وهي من خاصتي وفي سلطتي ولها
» زوج نوني واسمها كلودين لروج

» اصبري على ما اسومكِ من المشاق في سبيل الحب صبر الحبيب على
» جفاء محبهِ واطمعي في حسن العاقبة »

فما كاد يتم نوال قراءة الرسالة حتى بدر من فم تاباري كلمة الاكتفاء راضيًا عما تبينهُ من غوامض المسئلة

فاستانف نوال حديثهُ قائلاً — ان تلك الرسالة كانت خاتمة مراسلة الكونت

— هلاَّ احرزت غيرها من البينات

— عندي بضعة اسطر يفيد معناها فائدة ادبية في هذا الشان

ثم عمد نوال الى طاولتهِ فالقى عليها الرسائل التي كانت في يدهِ ونظر الى تاباري وقال لهُ

— هب ان بيّناتي تنتهي عندما ابنت واقتصر علمي بالمسئلة على ما اعلمت فماذا كان رأيك في الامر

فنكس تاباري رأسهُ مفكرًا برهة ثم قال — يتبين لي مما سمعت انك لست بابن مدام جردي

— تلك حقيقة لا ريب فيها وكما لا يخفاك انني قصدت منزل كلودين فحنت اليَّ ورقت لحالي اذ كانت ربيبتي فاطلعتني على سر الخديعة . وهو انهُ

بعد ولادتي بثلاثة ايام جردني والدي ونصيري بعد الله من حق الارث فجعلني بين يدي تلك الكهلة تنشئني فقيرًا حقيرًا الى ان بلغت الحال التي تراني عليها بعد بذل اقصى الجهد وقد وعدتني بنجدتي اذا تهيأ لي استرجاع حقوقي ومناصبة المعتدي

فقال تاباري — لقد ماتت تلك الربيبة فطواها الرمس وانهال التراب على اسرارها

— ربما كان لي بعض الامل في ما اخلفت من الرسائل التي كان قد انفذها اليها الكونت او مدام جردي فابرزها للعيان واقطع بها حد كل لسان ناطق بالبهتان وقد اطلعتني تلك المسكينة عليها فتصفحتها كلها فرغبت اليَّ باحرازها فطويت عنها كشحًا لجهلي بمصيري. آه ليتني قبضت عليها ففزت بها على الخصم

ان نوال كان يعلل نفسهُ عبثًا بامل الحصول على تلك الرسائل التي كانت علة الفتك بالكهلة في لاجونشار لان الجاني كان قد احرقها كلها ولم يبقِ على شيءٍ منها

فسرَّ تاباري بما استفاده من الحقائق في الوقوف مع نوال وما استجلاه من الغوامض التي يقصر عن جلائها ادهى الثقافين واشدهم خبرة وذكاء فقال

— وضح لي ايضًا بعد الاطلاع على ما كشفتهُ من امركِ ان الكونت لم يقم بعهوده المالية مع مدام جردي واخلف بوعده لها ان يأتيها خيرًا من اجلك

— كان وعده لها كالبان يزهر ولا يثمر

— انها جريمة لا تغتفر

— لا ترمِ والدي بالسوء ولا تصب عليهِ اسواط الملام فان اخلافهُ بمواعيده كان عن سببٍ لم ادرِ بهِ وقد طال امد قيامهِ قديمًا على حب مدام جردي وعلائقهِ معها فانني لم ازل اتذكر هيئة شاب وسيم كان يقبل اليَّ في المدرسة معها قصد تفقد احوالي ثم تعقب ذلك انقطاع فاتتني اسبابه

فتضاحك تاباري وقال — هلاّ استنبطت اسرار تلك القطيعة

— لا تعجل بالسوال قبل ان تستوفي الخطاب. اذ كان لا بد لتلك المناواة من سبب وما اخال الكونت يكفر بحب خليلته عفوًا وعندي انهُ آنس منها اخيرًا وحشة المكر والخديعة فعاقبها بالقطيعة فكتب اليها تلك الاسطر التي اشرت اليك عنها

واخذ نوال يقلب الرسائل والاوراق المطروحة على الطاولة باحثًا عن رسالة القطيعة الى ان عثر عليها اخيرًا فقال اسمع يا اخي صورة الحرمان: الرسالة التي انكر فيها الكونت حب فالري وكفر بايمان هواها

«ان احد الاصدقاء قد زحزح عن جبين الحقيقة لثام الريب فبان
» لعيني خداعك . فتبًا لكِ يا فالري من ماكرة لقد خدعتني ومكرت
» بحبي طويلاً حتى داخلني الريب في صحة ثمرة هوانا فبطل اعتقادي بنسبة
» الولد اليّ »

فقال لهُ تاباري وقد تميز من الغضب — كفى بهذه الاسطر برهانًا قاطعًا على صحة دعواك ولولا ان الكونت كان حريصًا على حيلته في ابدال ابنهِ الشرعي بالمسبع لما احتاج الى بيان استيائهِ من سيرة فالري او مدام جردي . ولكن ابى الله الآن ان يوآخذ بذنبهِ

فاستانف نوال الخطاب قائلاً — فحاولت عقيب ذلك مدام جردي تبرئة ساحتها مما اتهمت بهِ فتعذر عليها الامر فكتبت الى الكونت فرد كتابتها عليها دون ان يفض ختامها فطلبت مكاشفتهُ فانكر عليها الطلب الى ان ملّت المحاولة فحبطت اعمالها وخفقت آمالها وقد زاد صدرها حرجًا يوم اقبل اليها قيّم الكونت وفي يده صك يخولها من اجلي ريع خمسة عشر الف فرنك بعد اذ كان الولد المسبع قد اخلفني لديهِ واتمت امهُ الحيلة في استنفاد مالي

وفي اثناء حديثهِ طرق الباب فامسك نوال عن اكمالهِ وقال — من الطارق

فاجابتهُ الجارية -- ان سيدتي تدعوك

فابى نوال تلبية الدعوة فاعترضهُ تاباري وقال

— قم يا اخي اليها ولا تسد دون ندائها باب الرحمة

فنهض نوال اليها مكرهًا وغادر تاباري لذاتهِ في الخدع حيث قال مناجيًا نفسهُ

— يا للاكتشاف الغريب الذي بدا لي واضحًا ويا لشقاء هذا البريء الذي قضى عليهِ الهوى ان يعاني من الشدة ما يلين لحالهِ الجلمود دون ان يدري بالكف التي تصب عليهِ اسواط العذاب . فالحمد لله الذي هداني اليهِ فاطلعني على الاسباب التي آخذ بها في نجاتهِ وابتلاء الجاني . لكن كيف كان كل ذلك فلا بد من الاحاطة بهِ . ليتني اسلب احدى هذه الرسائل فاعارض خطها بخط غيرها . فما لبث ان قام الى الطاولة فسلب احدى الرسائل وخبأها في جيبهِ وحينما عاد نوال على حال لا تمكن مناظره من معرفة نتيجة وقوفهِ لدى مدام جردي فسالهُ تاباري قائلاً

— ما شأنها

— ان حالها تزداد ارتباكًا وما اخالها الاّ عرضة اللمم فقد رمتني باحاديث لم تفقه معناها فكان شاني لديها شان الرعاع

— لا غروَ اذا ادت بها الحال الى الذهول ولكن من الواجب يا اخي ان تبعث بطلب الطبيب

— تقدم الرسول بطلبي اليهِ

ثم عاد المحامي رهو نوال الى رصف الاوراق حسب تاريخ ورودها ضاربًا عن الراي الذي كان التمسهُ من تاباري صادفًا النظر عن استكشاف الخطاب في هذا الشان فاعترضهُ الزائر بقولهِ

— كلما اطلت الفكرة في قصتك ازددت عجبًا وحرت في وجه تدبيرها

— ان قصتي لمن القصص التي يحار فيها فكر اعظم الرجال دهاء وذكاء

— صدقت واني لمقرّ بعجزي عن الحكم فيها لكن ما دبرت وما اجريت فلا بد من ان تكون قد استكشفت فيها مدام جردي

— انها كانت اوّل من سالت واستكشفت

— فما كان بيانها

— هل من بيان افصح من ذلك البرهان

— اما حاولت انكار ما قدمت فبرأت نفسها

— كيف لا وقد زعمت اموراً لم تتعدّ حد البهتان فقالت ان لتلك الرسائل تأويلاً يستفاد منها غير المعنى الظاهر الى غير ذلك من البراهين الوهنة التي لا تكلف المدعي لضعفها ردًّا

وكان نوال قد رتب الاوراق والرسائل دون ان يفطن للكتاب الذي انتزعهُ تاباري منها فالقاها في سحابتهِ واقفلها . ثم قام يخطر في عرض المخدع محاولاً تسكين اضطرابهِ قائلاً

— انها كانت قد سعت جهدها ان تصرف ذهني عن معنى الرسائل الحقيقي ولم تعلم بما اتصل بي من البراهين الدامغة التي تؤيد حقي وتوجب اسقاط دعوى ولدها في الارث من مال والدي ومالي

فاعترضهُ تاباري قائلاً — ربما كانت قد اطلعت الكونت على جلية الامر

— ان الكونت متغيب عن باريس فلا يعود اليها قبل نهاية الاسبوع

— من اعلمك بذلك

— انني كنت قد ذهبت لمكاشفتهِ

— هل ذهبت انت بنفسك اليهِ

— وهل في الامر من عجب او موضع للحيرة ألا تخالني ممن لا يغضون عن حقوقهم الواضحة طرفة عين . أأرضى بالذل والسلب صاغراً صابراً ولديّ من الذرائع ما تضمن مطالبي وتكفل نجاحي

— لا ارى مانعاً يمنعك من تقدمك الى ابيك في كشف ما عندك

— انني لا اكتمك ما كلفني العزم على الدنو منهُ اثر ما داخلني من الهم والقلق بداعي اكتشاف الاوراق التي وعت اسباب نكبتي فقمت اعمل الفكرة في ما ارتايت اياماً طوالاً احاذر فيها ذيوع السر في تعرضي للبحث عن تلك المسئلة واخشى ان احرم شهرة اسمي الحقيقي قبل ادراكهِ فترتب عليَّ ان اتخذ طريقاً قاصداً خفياً

— احسنت اذ عوّلت على مواجهتهِ فما كانت النتيجة

— فقصدت اذن منزلهُ في محلة سان جرمان وكان قصراً مشيد الاركان حسن البنيان وسط حديقة اشجارها باسقة صفوفها متناسقة يحدق بها موقفان جمعا من الجياد احسن ما كان في قصور العظام وبالجملة كان ذلك القصر بمعداتهِ من نوادر تلك الايام

اما تاباري فكان يتململ ضجراً اثناء اطراء نوال واطنابهِ راغباً في الوصول الى حقيقة ما يتمناه قبل ان تفوتهُ الفرصة فاعترضهُ بلطف قائلاً — لا ريب انهم اذنوا لك بالدخول لتعهد غرف القصر ومبانيه

— انني تعهدتهُ بنفسي وطفت فيهِ مراراً منذ تاكدت ثبات حقي بامتلاكهِ فدخلت الخزانة وتصفحت تاريخ اسرتي وكنت كل مرة اقف بهِ اسكب الدمع دماً على بعدي من مسقط رأسي ظلماً وغدراً فيتهيأ لي احياناً ان ادخل الردهة فانتزع منها ذلك المسمع ولد جردي واطرحهُ خارجاً لكن املي بالوصول الى حقي في سبيل الملاينة كان يمسك بي عن العنف والاعتداء

ولما بلغت باب القصر استقبلني الحاجب فطلبت اليهِ مكاشفة الكونت فاجابني انهُ متغيب ولم يكن في الدار الاَّ الفيكونت فانقلب رجائي بعكس آمالي . فلبثت برهة افكر في نفسي الى ان اتجه لي الراي في مقابلة الفيكونت بدل كفيلهِ وكان الحاجب اثناء وقوفي ينقد بعينهِ اليَّ ليتحقق اهليتي في مواجهة الفيكونت فمن كرامات التوفيق ان الحلة التي كانت ثم عليَّ كانت تؤذن باعتباري فدفعني الى احد الغلمان فخطى معهُ الدهليز صاعداً الدرج الى باحة

الدار وهناك وجهني الى خادم غرفة البرت وهو اسم ابن مدام جردي اي اسمي الحقيقي . فقمت لدى ذلك الخادم قيام الجاني لدى المستنطق فسالني اسمي وشهرتي ومهنتي ومكاني فاجبتهُ بالمجاز انني غريب الدار واقصى مرادي مكاشفة الفيكونت في امر خطير لا اتعدى في الوقوف عنده بضع دقائق . فاوعز اليَّ ان اجلس منتظرًا الاذن فلبثت مطيعًا الى ان عاد فابلغني رضى البرت بدخولي عليهِ . فدخلت ردهة لم يكن فيها من الرياش الاَّ السلاح على اختلاف طرزه وكان الفيكونت حينئذٍ جالسًا على كرسيهِ مترديًا مدرعة من القطيفة حسن الطلعة رشيق القد يحاكيني بهيئتهِ الاَّ انهُ كان يبان اصغر مني سنًا لرخاء عيشهِ وراحة بالهِ فلما اقبلت اليهِ قام للسلام عليَّ متلطفًا

— لا ريب ان قلبك قد تاثر عند ذلك اللقاء

— ان كدري الان اشد ما كان قبلاً لان دخولي على الفيكونت كان اثر عناء طويل ذهب بجهدي وغضبي . فما استقر بي المقام حتى تقدمت سوالهُ بهذا الكلام

« انني لا اتعرض الى بيان اسمي وشهرتي اذ جئت لديك رسولاً في » مهمة جليلة مزعجة يستدعي الحرص على شرفك النظر فيها »

فسالني قائلاً — « هل يطول بيانها

فاجبتهُ — « نعم

فاستاء الامير من ذلك وتقدم اليَّ معترضًا بقصر الوقت قائلاً — « انهُ » لا يمكنهُ اطالة الوقوف معي حذر فوات الاجل المضروب للاجتماع بخطيبتهِ » الفتاة دارلانج وطلب اليَّ استئناف الحديث معهُ في شان ما جئت بهِ اليهِ » الى وقتٍ آخر »

وهنا قال تاباري في نفسهِ — ها اننا قد توصلنا الى معرفة مثل حديث في هذه الرواية

فاكمل نوال خطابهُ قائلاً — لما آنست فيهِ تاجيل المكاشفة الى وقتٍ

آخر اجبته للحال

ان الغرض من زيارتي يدعوني الى العجلة في الامر فلا يسعني ارجاؤه لوقت آخر ثم اخرجت من جيبي رسائل الكونت فعرضت لديهِ واحدة منها فلما تحقق فيها خط ابيهِ او كنيلو زالت عنهُ الوحشة فآنسني وقال امهلني الى برهة ريثما انبئ من يتوقع قدومي بسبب التاخير عنهُ ثم اعود اليك فقام الى طاولته وكتب على رقعة ما هو بمعنى اشارتي فدفعها الى الغلام ووجههُ بها الى الدوقة دارلانج وعقيب ان تفرَّغ من عملهِ عاد اليَّ فدعاني الى الجلوس معهُ في الخزانة

فسالهُ تاباري قائلاً — افدني عما كان منهُ عند رؤيتهِ الرسائل

— لم يبالِ بشيء اصلاً بل دعاني للجلوس حذاءه وقال — هاتِ ما عندك

— وكنت قد هيات اثناء قيامي في المخدع منفردًا اقسام الخطاب فجعلت التوطئة موصولة باطراف النتيجة المرغوبة دون ايهام ولا ابهام فقلت

« انني جئتك في مهمة تعنيك فكلفت ان اكشف لك الغرائب واريك » العجائب ورجائي بك ان لا تحير جوابًا قبل ان تحيط علمًا بما في هذه الرسائل » التي ابسطها لديك مقلعًا عن الحدة والغضب ما لا يجديك نفعًا

فحدجني عندئذٍ بعين وقفت عليَّ ابصارها حيرة وانذهالاً وقال

— اتلُ عليَّ فاسمعك

فقلت — اعلم انك لست بابن الكونت دي كومارين حقًا والبرهان على يدي في ما وعت هذه الرسائل من الادلة الواضحة والبراهين الراجحة وانا رسول ابنهِ الحقيقي اليك

فتبدل وجههُ بالغضب وقد اليَّ بعين تقدح نارًا وقال

— اين الرسائل

فدفعتها اليهِ

فاعترضهُ تاباري قائلاً — هل سلمتهُ الرسائل الصحيحة

— لِمَ لا ادفعها اليهِ

— اما خشيت فقدانها

— ومن يستطيع ان يسلبنيها وانا رقيب عليها فلم انشر لديهِ منها الاَّ ما تضمن المراد . وكان جالساً على طاولة صغيرة صددي يتصفح عباراتها وانا ناظر اليهِ نظر المنتقد التمس من وجههِ اشارة تفيد عما يحتك في صدره من معاني الرسائل . فما طال بهِ الزمان حتى اخذ منديلهُ فجعلهُ على شفتيهِ ليستر اثر الكيد الظاهر عليها وكان كلما امعن في المطالعة زادت كمدة وجههِ وتحلب العارق البارد من جبينهِ وابيضت عيناه من الحزن الى ان خلت قد علتها غشاوة بيضاء فلبثت على هذه الحال برهة لم ينبس اثناءها ببنت شفة فاوى قلبي لحزنهِ ورثيت لشدتهِ حتى كدت انتزع الرسائل من يده رحمة بهِ فاكشف لهُ نفسي قائلاً لهُ .

« دع يا اخي ذكر ما مضى ولنتعاقد على الحب والرضى »

فاعظم تاباري كلام نوال واعجب بحنانهِ وسلامة نيتهِ وقال لهُ — لله درك من فتى حليم

فاستانف نوال حديثهُ قائلاً — ولم يمسكني عن فعل ما قلت الاَّ الخوف من انكاره حقيقتي بعد تعطيل الرسائل

— اصبت في ما رأيت

— ولما فرغ من قراءتهِ الرسائل قام قبالتي وقال — اذا صحت عزوة هذه الرسائل الى والدي كنت كما قلت غريباً عن آل كومارين ولكن ربما كانت هذه الادلة زوراً واختلاقاً فهل لديك برهان سواها

فاجبتهُ — « نعم ان شاهدي جرمان فسلهُ ينبئك وما ينبئك مثل خبير »

فقال — « ان جرمان قد توفاه الله منذ زمن مديد »

فقلت لهُ « عليك اذن بمكاشفة المربية الايمة لروج النازلة في لاجونشار

فلم يتمالك تاباري جهده ان قال — بالله خبرني عجلاً بما كان جوابهُ

— انه اطرق برهة ثم قال « عرفتها وقد ذهبت اليها ثلاثًا مع والدي وامامي نقدها مبلغًا جزيلاً »

فسالته عندئذٍ الرجوع اليها في حل المشكلة وتأييد صحة الدعوى

فامسك عن جوابي برهة ثم قال — عرّفني بابن الكونت دي كومارين الحقيقي

فاجبته — انا هو

فنكس راسهُ وقال همسًا — كنت في ريب من ذلك . ثم اخذني بيدي وقال

— يا اخي وشقيقي خلِّ الملام واعتصم بالسلام

ثم سالته — على مَ عولت وما ارتايت

قال — اسالك ان تمهلني الى ان ياتي ابي بعد ثمانية ايام فاكاشفهُ في الامر وافيًا بمالك عليّ من الحقوق . فخذ رسائلك واسمح لي ان اقيم وحدي لان الهمّ قد طفح على قلبي وتولاه الغم بفقداني سعادتي ومصدر هنائي في دقيقة واحدة وزد على ذلك انني أُحرم حظ الاقتران بخطيبتي التي هي غاية حياتي . لكن الله يعوضني منها بوالدة تسليني في نكبتي

— هل نطق بذلك حقًا

— انني انقل اليك ما قالهُ بالحرف الواحد

— يا لهُ من ذليل . . .

— ما تقول

— قلت انه فتى كريم الاخلاق حسن المزايا اود من صميم فوادي ان اتعرّف بهِ

— انني لم اطلعهُ على كتاب القطيعة الذي فيهِ تبلي سيرة مدام جردي اجتناب الحزن الشديد

— وما تنتظر الآن

— انني انتظر الان قدوم الكونت فاعمل بما براه وغداً اقصد المحكمة في طلب فحص اوراق كلودين . حتى اذا تحققت لديها تاكدت خلاصي والاّ . . . ولكن قد اعلمتك بحيرتي منذ اتصل بي خبر مقتل تلك الأيمة . فمن لي براشد حكيم يرشدني في هذا الامر سواء السبيل

وكان قد تحفز تاباري للقيام فقال — ان الراي الذي تطلبهُ اليّ يستدعي امعان الفكرة طويلاً والحق يقال انك في حال يرثى لها من القلق والحيرة

— وزد على الاضطراب الذي حاق بي اشتداد الازمة المالية عليّ فانني في حاجة الى الدراهم

— عجباه وعهدي بك مقتصداً

— لقد استدنت مالاً دعتني الاحوال اليهِ اذ انني لا استطيع ان انفق من المال المودع عليهِ

— اتريد ان تصطنع اليّ جميلا

— قل فاني لديك

— ان عندي مبلغ خمسة عشر الف فرنك بتُّ من جرائها في همّ شديد فاخاف ان اصاب بها لضعفي وكبر سني

— ربما اعترض عليّ . . .

— هي لي وغداً اقدمها لك

ثم فطن تاباري للموعد الذي ضربهُ لدابيرون فقال — انني آتيك بالمال الليلة فاخلص من همّ الحرص عليهِ

فخرج للحال وما طال تغيبه حتى عاد الى نوال وبيده قراطيس مالية بقيمة الخمسة عشر الف فرنك فقال لهُ — خذها واذا اعوزك غيرها فاعتمد عليّ

— فانظرني ارقم لك وصولاً بها

— خلّ عنك ذلك الى الغد

— ولِمَ التاخير والتاجيل ربما فاجاني القدر الليلة

— كنت في جملة ورثتك فاسمح لي الان ان اودعك فاخلو في منزلي عاملاً الفكرة في تدبير الراي الذي طلبتهُ اليَّ بل ارى نفسي في حاجة الليلة للتنزه خارجاً لانني اشعر باضطراب شديد اثر القصص التي رويتها لي . اما انت فاعتصم بالصبر واتكل على الله وهو لك خير نصير

وانصرف تاباري يشيعهُ نوال الى ان تاكد بعده من المنزل . فالقى القراطيس المالية في جيبهِ واقفل باب منزلهِ وخرج الى الطريق

الفصل الخامس

العتاب

كان اسفل المنزل الذي تاوي اليهِ مدام جردي غرفة فسيحة يشرع بابها الى الطريق فجعل نوال قفلاً لذاك الباب واتخذه مخرجاً خفياً لا يدري بهِ احد من سكان المنزل

ولما كان قد وقف بعد وداعه تاباري عند الرصيف اخذ يفكر في الوجهة التي يقصدها الى ان اتجه لهُ اخيراً الراي ان ياخذ بسيره الى موقف سان لازار وفيما هو سائر على الطريق صادف عربة تجري فاستوقف السائق وقال لهُ

— خذ بي الى محلة مونمارتر عند زاوية شارع لابروفانس وجدّ في سيرك

فركب نوال العربة الى ان بلغ المحل المقصود فترجل وادى السائق ما

عليهِ واخذ في طريقهِ الى ان وقف بباب قصر في تلك المحلة فطرقهُ ودخل فاستقبلهُ البواب بكل احتفاء وإكرام واستمرّ سائرًا الى ان ولج القصر فاخرج مفتاحًا من جيبهِ وفتح باب الايوان وعلى رغم احترازه في فتح الباب كانت جارية الغرفة قد سمعت قلقلة المفتاح فخرجت اليهِ وقالت مدهوشة

— مهلاً يا سيدي . . .

فسالها المحامي قائلاً — هل سيدتك في الدار

— نعم يا مولاي وهي غضبى عليك وقد كان من عزمها صباحًا ان توافيك فصددتها عن عصيان امرك

— احسنتِ

— اذا شئت يا مولاي موافاتها فهي في المخدع وقد امرتني ان آتيها بالشاي فاذا لاق لدى سيدي تقدمت اليهِ بهِ ايضًا

— لا باس فهاتِ المصباح يا شارلوت

ثم تقدم المحامي يتخطى غرفة الطعام الى المخدع وكان مستكمل معدات الابهة والراحة فيهِ النمارق العجميــة والتحف المطرفة والحشايا الوثيرة الى غير ذلك من الرياش البديع الصنعة تتلوأ جدرانهُ برموز تاريخية تاخذ بالابصار لاحكام تمثيلها

فعندما وقف بالباب وشق الستار فابصر خليلتهُ جالسة على متكإٍ في اخر المخدع تدخن بالتبغ . وكانت تلك الفتاة تربو برقتها ولطافة شمائلها على حسنها فلما رمقتهُ رفعت اليه راسها وقالت

— الحمد لله الذي هداك اخيرًا سبيل منزلي وقد وهى جلدي في انتظارك منذ امس

— لقد تعذر علي موافاتك في الوقت المسمى

— اما علمت أن قد آن اوان الوفا بما لزمك من المال فعرضتني بتاخيرك للملامة ارباب الدين ولا سيما لوخز لسان كلرجوث الذي ما لبث

منذ نقدني المال ينادي بهِ في الاسواق . فاطرق نوال خجلاً ثم قال — فما ضره لو انتظر يومًا واحدًا

— ان تأجيل الوفاء يضرّ بي ويخفض من قدري وانت تعلم ان اعتباري واجلالي انما قائمان على الدينار فاذا اوحشني جفاني الناس واكثروا من ملامتي واذلالي

— آه يا حبيبتي جوليات . . .

— نعم نعم انني حبيبتك ساعة تقف بي وحدّ حبك لي عند باب المخدع حتى اذا هجرته هجرت حبي وانكرت معرفتي كأنني لم اخطر ببالك ولم يكن بيننا عهد وداد وولاء

— بالله لا تجوري في الحكم عليّ وقد ابدت حبي لكِ مرّات عديدة واتيتك بادلة صريحة لا يشوبها ريب على ثبات عهدي معك وها انني ابسط لديكِ الان برهان آخر وما اخالكِ تنكرين صحته

فاخرج نوال من جيبهِ حقة فاخرة وقال — دونكِ السوار الذي طمعتِ باحرازه يوم جزتِ بمصنع الجوهري في بوكرابت

فبسطت جوليات يدها دون ان تكلف نفسها عناء القيام من موضعها فاخذت الحقة وفتحتها ناظرة الى ما فيها وصاحت متعجبًا

— آه ماذا ارى

— اما هو الذي ارناكِ باحكام صنعهِ

— نعم ولكنني اراه دون سوار الجوهري حسنًا

ثم اقفلت الحقة والقتها على الطاولة بالقرب منها شان من لا يعبأ بقيمة ما لديه

فاعترضها المحامي قائلاً — مالي ارى الجد يعاندني اليوم ويخونني التوفيق في مسعاي

— بماذا تعرّض

— اراكِ غير راضية عما قدمت بين يديكِ

— كيف لا وقد اكملت بهِ اليوم الدستين

— ان كنتِ قد رضيتِ عنهُ فلمَ لا تصرّحين برضاكِ

— اما قنعت مني باحرازه عندي فكأنك تطالبني بثمنهِ من الشكر نقداً وتسالني ان اهتف بهِ في الدار منادية بين القوم بفضلك وسماحك

فتململ نوال وتضجر من كلامها فحكى لها عن جزعه باشارة كان لها في قلبها احسن موقع . فاستانفت الحديث قائلة

— أتريد ان ادعو اليّ شارلوت وسائر الخدم فاعرض السوار لديهم قائلة . انظروا ما جاد بهِ عليّ خليلي وما نحني بهِ كرماً وفضلاً . فيا سعد من كان لهُ حبيب كحبيبي

فهزّ المحامي منكبيهِ متكدراً من صيانياتها وقال

— ما لكِ وللتمادي في السخرية فان كان قد ساءكِ مني امرٌ من الامور فبوحي بهِ دون تعريض ولا تلبس

— صدقت فاسمع اذن ما ساءني منك واعلم انهُ لو جئتني امس بمبلغ الثمانية الف فرنك لكنت في سرور اشد ما كان مني الآن في احراز السوار

— قلت لكِ بعجزي فلم تصدقي

— كان من السهل ارسال القيمة مع الرسل واراهم منبثين في اطراف الطرق

— ما اعاقني عن ارسال المال الرسول وما اخرني عن القيام بوعدي الاّ خلو يدي ما تطلبين وقد كنت سعيت امس جهدي في جمعهِ فلم اتوفق اليهِ الاّ بطريقة عجيبة فان الصدفة جادت بهِ عليّ عنوًا منذ ساعة فما ترددت برهة عن تقديمهِ

فاجابته جوليات تتظاهر بالشفقة المقرونة بالهزء قائلة — أيتجرأ من كان يملك ان يصرّح بعجزه عن جمع عشرة آلاف فرنك

— نعم ولا الخجل

— ما اطوّل باعك في تمثيل حال رجلٍ بائس معوز

— ما اتخذت في حديثي معكِ حيلة ولا امثل الاّ حقيقة ما انا عليهِ

— اخشى ان تاتيني غدًا ببينة الفقر المدقع ثم تتطرف منهُ الى الندم على ما انفقت في سبيلي ولا عجب اذا رجعت عليَّ بما وهبت لانني اراك قد دنت حديثًا بالشح والبخل فجعلتها صنمين تعنو لهما ركبتيك في الغدو والآصال

— يا لكِ من خليلة عنيفة فان قلبكِ قد حاكى الصخر بقسوتهِ

— كلاَّ فانني اشكو لشكواك وارثي لبلواك . فياليتك تتقدم بطلب الاحسان الى الجمعيات او تكلفني فاجمع لك المبرات من اكف المحسنين

فضاق هنا المحامي ذرعًا عن التزام السكينة وخانهُ الجلد فقال

— ما قلتهُ يا جوليات كان حقيقة لا يسعني كتمانها فتاكدي ان الايام قد ذهبت بمالي ولم تبقِ لي في سبيل العيش الاّ الحيلة

فازدهت جوليات بكلامهِ وقالت — ما كنت لاصدق مقالك في بيان سوء حالك

فاغتاظ المحامي وقال في نفسهِ — اراها تسرُّ بفقري وتعمل على هجري فلو كانت تودني حقيقة لما نظرت اليَّ عند شرح قصتي وبليتي نظر المزدهي الشامت

ان جوليات كان قد حدثها قلبها بواجب الانعطاف والشفقة على نوال فقضى عليها ان تميل اليهِ حين الشدة والفاقة اشد ما كان ميلها اليهِ حين اليسر لكن الفاظها ومعانيها خانت حركة قلبهـا فانقلبت بها الى الجفاء والعناد . فقالت لهُ

— يا لك من غبي جاهل تدعي الاسراف في زمان ارى الكل يحسبون نفقاتهم حساب الشحيح فلا يسمحون بالفلس قبل ان ياخذوا لقاءه النفس رهنًا . ولكن ما اخالك الاّ كاذبًا في ما تدعيهِ من الفقر والعوز لان من تخلّق باخلاقك

فتجافى عن اللين والانس صان مالهُ عن اعين الطامحين اليهِ

— وليس عن عيونك

— اقصر الكلام في هذا المعنى والاَّ سلقتك بلساني . فقد اختبرتك وابتليت سرك وجهرك فعرفت حقيقة حالك وهواك فلا تحاول اقناعي بالبرهان عما ليس فيك . فما قلبك الاَّ عارية يتقلب في صدرك تقلب الاهواء او متاع يدور بهِ الدلاَّل على يدهِ في سوق الهوى علهُ يصادف طالبًا بابخس الاثمان وان انكرت صحة مقالي قدمت البينة بين يديك . فما الذي كان يصدك عني اليس انني طلبت اليك علاوة عن الفرض فحاولت ان تسلبني حبك فتميل بهِ الى غيري

— ما كنت آمل يا جوليات ان القى منكِ لقاء تلك المعاملة ما لقيت أنَّى لكِ ان ترميني بالشح وقد جعلت دارك طرفة الطرف برياشها الثمين واوقفت بين يديكِ الجواري والخدم وجلبت لكِ احسن الجياد والغر العربيات تجري بامركِ خلا ما طوَّقت بهِ جيدك من اللآلىء وما سوَّرت بهِ معصمك من الجواهر التي لا تقل قيمتها عن اربعمائة الف فرنك

— اتصح مقالك لدى البيان

— وهل تنكرين ذلك والشاهد العيان

— هلاَّ اغفلت في حسابك شيئًا

— كلاَّ

— لئن كنت اطلعك على حسابي لغدوت مديوني

وعند هذا الكلام دخلت جارية الغرفة بالشاي فقطعت بها عن اكمالهِ فامسكت جوليات عن استئناف الملام على مسمع من الجارية حرصًا على شرف خليلها . على انها لم تكن تكتم شارلوت شيئًا من اسرارها وكانت تودها كثيرًا فتعاملها معاملة النظير لقدم عهدها في خدمتها

كانت جوليات شافور باريسية النشأة ولدت عام ١٨٢٩ في ضواحي

مونمارتر من والدة نكرة لا تعرف . فنشأت على هواها الى ان بلغت الثانية عشرة من عمرها

ولما كانت الطبيعة قد احرمتها حسنات الجمال رأى اهلها ان يدفعوها للخدمة في المصانع فانكر احد معارف والدتها ذلك فكفلها واحب ان يثقف اودها و يهذب اخلاقها فدعا من اجل ذلك المعلمين فتعلمت شيئًا من الكتابة لكنها اتقنت الموسيقى و برعت في الرقص

فما طال بها الزمان الى ان حدثها قلبهـا بالنزعة الى الغرام فهجرت المقام متخذة ما تعلمتهُ حيلة للانتظام في سلك اربابهِ فما لبثت تجدّ ونكدّ وتغوّر في سيرتها وتجد الى ان دفعتها الايام الى احد الملاهي وهناك ساق الجهل اليهـا نوال فهام بها وهامت بهِ في الايام الاول حتى اذا مرّ على عهد ائتلافها بضعة اشهر قلبت لهُ ظهر المجن فاكثرت من تجافيهِ وعنابهِ لاغراقهِ في الحشمة والتزامهِ لديها سنن الآداب الجاري عليها بين اقرانهِ . وكانت تنمو فيها الاطماع نموّ بدنها فتسرف امواله وتبددها دون رحمة حتى غدا في عينيها اخيرًا شرّ نقمة

اما نوال فكان يودها مودة شديدة حتى انهُ انفق اثناء اربع سنوات مالهُ ومال مدام جردي في اغراضها ورضاها . وهي تنظر اليهِ نظر الآمر المستبد فيدين لديها صاغرًا متحملاً في حبها كل مشقة . لكنهُ كان اذا فصل عنها يعود الى رشده فيناجي نفسهُ بالعدول عن الخطة الصعبة التي جاز فيها قائلا ما الذي يقيدني بحب هذه الغانية وقد تاكدت بغيها عليّ وتجافيها عن حبي . ما الذي يمسك بي عن التصريح بخيانتهـا واخلافها بالعهد . عجبًا للساني كيف انهُ يتلعثم اذا كلف عتابها وسيمَ ملامها . ما بال قلبي اذا توعدتهُ بهجران جوليات يخفق غمًا وحزنًا . آه انني اوثر احتمال ما اعاني من وخز الريب وشباة الظنون على التصريح بمعائب جوليات والبعد منها

ولما كانت الجارية تعمل في اعداد طاولة الشاي وارصاد اللازم لشربهِ اخذ نوال يجهد نفسهُ في تسكين اضطرابهِ مسرورًا بقربهِ من جوليات

مستانساً بانظارها التي فعلت في قلبهِ ولا فعل المغناطيس بالحديد

وعقيب ان خرجت شارلوت من الغرفة نهض المحامي الى خليلتهِ فجلس بقربها على المتكأ يريد ان يلاطفهـا ويسالها العذر في ما بدر منهُ عفوًا قائلا لها

— لمَ تلجين الليلة يا جوليات في عذلي فان كنت قد اسأت اليكِ في ما مضى فحسبي ما لقيت منكِ كفارة عن ذنبي وسبيلاً للرضى

فدفعتهُ جوليات بعنف وقالت لهُ — اليك عني اليك اما علمت بانزعاجي وقد شرحتهُ لك مرارًا

— أتسمحين لي باستدعاء الطبيب

— كلاَّ فان دائي لا يحتاج الى طبيب وانا اعلم منهُ بهِ . لقد انهكني الضجر وليس من يداويني

— مالكِ تصوّبين اليَّ الملام في ضجرك فيما جلبتهُ اليكِ وما السبب

— لا احتاج الى عناء جزيل في بيان الاسباب التي توجب ضجري وكدري فحسبي بسيرتك معي سبباً يغني عن اسباب . اتخالني اسرُّ بمقامي لديك خليلة لا راحة لها ولا سلوى

— أنىَّ تطلبين اليَّ الابتهاج والفرح بقربك وقد اسكن فيَّ استقبالك الجاف كل حركة وذهب بروعي . ولا يخفى ان المحب شديد الحذر

— كان من الواجب ان تصطنع لك خليلة على هواك ومثالك فتعتقلها في سرب ولا تؤذن لها بالظهور الاَّ اذا رأيت الاجتماع بها مرة في النهار

— ما كان اغناني الليلة عن موافاتك

— لكنت اغنيت عنك بتبغي وكتابي . أما ترى العيش على هذا النهج لذيذاً

— نعم وهذا دأب السيدات الاديبات

— وهل انا في جملتهنَّ لاسير سيرتهنَّ في الزهد والانقطاع فانا لا اقنع

برآك سلوى لي في عناء الوحدة وضجرها

— أأنتِ تقيمين في عزلة

— كيف لا وهل لك عهد بانيس لي سواك

— ما اراكِ في عزلة عن الناس

— كيف لا وهل تنكر ذلك . فمتى كان لي الحظ لآنس باحد خلانك عندي أم متى دعوتني للتنزه معك أم رضيت في صحبتي على العربة

— ألا تكفين عن الجدال في مجال العتاب والتعنيف

— لا اعلم بالسبب الذي يحملك على هجر صحبتي خارج المنزل . أتخجل في مفارنتي ومرافقتي ألا ترى غيرك من الشبان الذين يفوقونك قدرًا ومقامًا كيف انهم يفاخرون ويباهون بصحبة خليلاتهم فيجعلوهنّ عن يمينهم في مجالس الانس والمجتمعات والملاهي . فما اخالك من طينة خاصة وجبلة انقى واسمى

— قلت لكِ ولم ازل اقول كفي العتاب واعلمي ان لي في كتمان حبنا أربا . فمما تشكين ألم أدعكِ تسيرين على مرادك كيفما شئتِ ودار بكِ الهوى تنقلبين . ومتى قمت رقيبًا على اعمالكِ او نعيت عليكِ شيئًا كان لك فيهِ بعض الرضى . وإن كنتِ تلومينني لاحتجاب اصحابي عنكِ وانفرادي في خلوتك فما ذلك الا لاخفي عليهم ما اسرفتهُ في حبك فاخاف اذا انتابوا دارك فراوا فيها اثاثك الفاخر ان يكثروا التنديد والملام بل ربما تساءلوا عن المدد الذي صدر عنهُ المال واخذوا بالبحث عنهُ منقبين تنقيبًا يعود عليَّ بالوبال . لانهُ اذا جاز لي ان اختار خليلة فلا يسوغ لي ان اهدر مال غيري في ملذاتي الخاصة ويا ويلي اذا علم الاصدقاء بشاني معك فعرفوا ان كل ما لديكِ من الاثاث الفاخر وما عليكِ من الحلي تحفةٌ مني تقوّلوا عني الاقاويل المنكرة ولاموني على تلفي في هواكِ ولا خفاكِ انني لست من المثرين ولا كنز لي الا اسمي ومهنتي فاذا اضرَّ بها قول الناس عشت حياتي كلها فقيرًا ذليلاً فضلاً عن ذلك ان مدام جردي التي قامت لديَّ مقام الام اوجبت عليَّ

حقوق الالفة او احكام الزمان ان اقوم بحاجاتها ما اقامت معي

فعند هذا الكلام رأت جوليات ان تعدل عن خطة الجفاء في معاملة خليلها فكاشفت نفسها في وجوب اتخاذ الملاينة معهُ خيفة القطيعة فقالت لهُ بلهجة المحب ولهفة المشفق

— حبيبي انني لم آتِ بحديثي معك عن بغضاء او جفاء انما كان ذلك مني عن انزعاج فلا تلمني

فعاودت المحامي السكينة للحال وفاء اليهِ حلمهُ فقال لها

— لقد تناهيتِ في تعنيفي وافرطتِ في انكار رزانتي وسكينتي في معاشرتك الى حد العجب على انني لم ادع حيلة لتسليتك الاَّ واتخذتها ولا طريقة الاَّ وطرقتهـا اغتنام رضاكِ وكفاء هواكِ ومناكِ وما اخالكِ اغفلتِ انس الليالي التي احييتها اوان المرفع حبًا بكِ او ذهلتِ عن المال الذي بذلتهُ في الملاهي رغبة في تنزيه خاطرك

فاعترضتهُ جوليات وقد تقطب وجهها كدرًا من كلامهِ وقالت — اتعد ما اجريت من دواعي المسرة

— وما الذي ينفي صحتها

— اتراني اسرّ بانتياب الملاهي وحدي واحياء ليالي الطرب بالبعد منك او بالتجافي عنك كأنك تنكر اشهار تقربك مني لدى اصحابك وخلانك

— انني آبى التمادي في الشطط فلا تسهبي في هذا الباب ولنتخذ في حديثنا طريقة اخرى

ثم قام نوال يتخطى في عرض الغرفة برهة الى ان آذنت الساعة بالواحدة فتقدم الى خليلتهِ وقال لها — ان الزمان يدعوني الان للانصراف عنك فاسمحي لي بهِ

— أتنطلق الان عني وقد كنت آملة ان اراك الليل كلهُ

— لا يسعني التاخر عن الساعة فان والدتي طريحة الفراش فلا بد لي

من الذهاب اليها عجلاً ثم انتزع من جيبهِ القراطيس المالية التي كان استلها من تاباري فالقاها على الطاولة وقال

— دونك مالاً يزيد عن مطلوبك فيغنيكِ عني الى ثمانية ايام

— ما تعني بذلك هل عزمت السفر بعيداً

— كلاّ ولكن بدا لي شغل خطير يستغرق المدة التي سميتها فعسى ان انجح بهِ فنصيب منهُ خيرًا جزيلاً بل يكون اساس سعادتنا الوطيد في المستقبل وهناك يتهيا لي ان ازيدكِ بيانًا على صدق ودادي وخلوصي

— بالله اخبرني عنهُ

— يتعذر عليَّ بيان امرٍ لم يزل سرًّا مكنونًا

— أتكتمني يا شقيق الروح سرّك ألا تثق بحرصي عليهِ

— يعز عليَّ التصريح بهِ قبل التمام لكن ارجوكِ كل الرجاء ان تعدلي عن القدوم اليَّ شانكِ من قبل واقصري المراسلة واعلمي ان في عصيانك امري كل خسري . واذا دهمكِ امرٌ اعوزكِ رأيي فيهِ فوجهي اليَّ كلرجوت وقد ضربت لهُ موعدًا بعد غدٍ ليوافيني اليهِ بحاجة لي عنده

فاجمت جوليات وهي تشير الى نوال اشارة من يتوعد الاخر بشر مكررة عليهِ القول

— ألا تبوح لي بسرك

— امهليني فاعلمك بهِ قريبًا

فاشتد كيد جوليات وعظم عليها انكار خليلها بعد ما انفقت لديهِ من اساليب التمليق والمداهنة جهدها فقالت لهُ

— ألا تنتهي من الاسرار في سيرتك

— ذالك آخر سرٍّ بيننا كتم

— لقد عرفت الغاية التي من اجلها تكتمني ما في صدرك اذ تبين لي من حديثك وانقطاعك عني حينًا بعد حين انك تبغي لي بديلاً

— اكدت لكِ ولم ازل اثبت . . .

— مالي والاثبات فقد تحقق لديَّ امرك فسر وكن مني على حذر واعلم انني ممن لا يغفلون حقوقهم بل ياخذون بها حتى آخر ساعة من حياتهم

— ما كتمتك يا جوليات سري ازراء بفضيلتك ولكن اخشى انتقاضهُ عليَّ فرأيت ان لا اذيعهُ قبل ان اتأكد نجاحي فيهِ

— افعل ما بدا لك فوداعًا الآن لانني اريد الفراش فقد اعياني السهاد

فما كاد ينفصل نوال عنها حتى دنت منها جارية الغرفة فجلست الى جانبها فقالت لها جوليات

— بالحقيقة ياشارلوت ان مقارنة هذا الرجل تبهظني ولولا انني كنت اخاف من غدره لقضيت عليهِ بالقطيعة وفصلتهُ من داري

فحاولت شارلوت الدفاع عن نوال فاصمت جوليات آذانها عن سماع كلامها فقالت لها

— ما سبب تقاعده عني مدة ثمانية ايام ترى هل عنَّ لهُ الزواج . يعزُّ عليهِ وعمري الحق ان يهجرني قبل ان اصده عني ولا بد ان استقري الامر قبل حصولهِ

وكان نوال في تلك الاثناء قد طوى شارع لابروفانس فجادة سان لازار ودخل الى منزلهِ من حيث خرج وما كاد يستقر في غرفتهِ حتى طرق الباب ونادتهُ الجارية قائلة

— مولاي بعمرك اسمح لي بمشافهتك

ففتح المحامي الباب وسالها جزعًا – ماذا جرى وما الامر اخبريني عجلاً

فاجابتهُ الجارية والدمع ملءَ جفنيها – انني طرقت الباب من قبل ثلاثًا وما من مجيب فتعال بالله يا سيدي وانظر ما حلَّ بسيدتي فقد اشتدت عليها العلة الى حدّ الموت

فهبَّ نوال من غرفتهِ يعدو الى مضجع مدام جردي فارتاع اذ ابصر في

هيئتها تبديلاً عظيماً تململ تحت دثارها تململ النضناض وقد سكنت حركة عينيها فباتت كانهُ قد ذرّ فيها ذرور فاسترسل شعرها على وجهها لمزيد هول ذالك المشهد . وكانت حيناً بعد حين تهذي قائلة

— ما اشد عذابي

فقالت عندئذٍ الجارية لنوال — أتحققت يا سيدي بعينك ما نقلتهُ اليك

— ما كان عهدي بانزعاجها ينقلب بوقتٍ قريب علة سريعة السريان فسيري اذن للحال الى الطبيب هرفي واخبريهِ عن حاجتي اليهِ

ثم جلس على الكرسي ازاء العليل

ان هرفي كان من اصدقاء نوال واقرانهِ في المدرسة لاسيما في محلة اللاتنين فلهذا الشاب قصة تحاكي قصص غيره من امثالهِ الذين جرّدهم الدهر من الاخوان والنصراء فسلبهم اموالهم في مقدمة العمر فاعتاضوا عن ذلك بهنة يحتالون بها سدًّا من عوز

فطلب هرفي صناعة الطب فبرع فيها وفاق اقرانه فرأى اعتمادًا على قوة ضلعهِ في هذا الفن ان يعدل عن النزول في الضواحي فيتخذ باريس لهُ مقرًّا عسى ان يدرك فيها في مستقبل الايام شأوًا يكافيء ذكاءه ومهارته . وتوصلاً لهذه الغاية اخذ يستدين المبالغ الجسيمة ليزين داره فيحرز فيها اثاثاً ثميناً يغشي على ابصار معارفه وذويه . وقام مدة ينتظر بذاهب الصبر ايذان الساعة بتحقيق امانيه فمرّت بهِ الايام بصروفها المتلونة . وما امرّ انتظار ما كان يتوقعهُ الطبيب على حالٍ لا يعرف ضيمها الاّ من يعانيها . فان التمدن العارية لمن موجبات التاخير بل الموذن بالتلف لا سيما اذا كان الانسان على ضعفهِ يسرف ماله او يستدين ما لا قبل لهُ بوفائهِ فتنقلب عليهِ الايام برباه حتى تستنزف بقية عمره ذليلاً مهاناً

فهرفي كان لاول ايامهِ في صنعة الطب قد عني في تطبيب الفقراء وغيرهم ممن يقدرون قدر الطبيب حين المرض فقط حتى اذا نقهوا وتماثلوا من

علتهم كفروا بالطبيب وبعلمهِ وانكروا عليهِ بدل عنائهِ وطبهِ

فما لبث صديق نوال يستنفد الوسع في اتقان صناعتهِ ويبذل الجهد في خدمة الناس على اختلاف شؤونهم الى ان احرز ثقة الكثيرين فتمكن ان يجمع منهم ما يفي بقدر القائض فاضطر ان يقضي حياتهُ في خدمة غيره اسيرًا ولكنهُ على رغم ما مازج طبعهُ من الخداع والدهاء بطريق العوز وحكم اليأس كان يتفانى في خدمة اخوانهِ ويستميت في خلوصهم وموالاتهم

فلما بلغ باب مضجع العليل ابتدأ نوال بهذا السوال

— ما الامر يا اخي

فصافحهُ نوال خفية واقتصر من جوابهِ على الاشارة الى السرير

فاخذ الطبيب المصباح وتقدم بهِ نحو العليل ففحصهُ جيدًا ثم عاد الى صديقهِ وقال لهُ

— نبئني بما جرى مفصلاً فلا مندوحة لي عن العلم بهِ

فاجفل المحامي من هذا الكلام واجاب متعجبًا — بمَ اعلمك

— بالسبب الذي اوجب التهاب دماغها وهذا كثيرًا ما يحدث عن شدة التأثر والغم او عن خطب يفاجىء الانسان على غفلة

فاستوقف نوال صديقهُ باشارة خفية وتنحى معهُ جانبًا فقال لهُ — صدقت يا اخي فان العلة كانت على اثر غم شديد قد بلغ من نفس العليل مبلغًا عظيمًا ولا اكتم مودتك واخاءك بيانه . ان مدام جردي ليست بوالدتي وقد سلبتني مالي وشهرتي حبًا بولدها الحقيقي فاتفق انني ادركت الحيلة منذ ثلاثة اسابيع فعرفت بذلك فساءها الامر جدًا وخافت شر الغوائل

وكان المحامي يتوقع العجب من صديقهِ عند كشف اسراره لهُ لكن الطبيب وعى القصة كما يعي عرضًا شرح حال كل مريض ليكون على هدى في طبهِ ثم سال نوال قائلاً

— هل شكت انزعاجًا اثناء تلك المدة

— انها كانت تشعر تارة بألم في اذنها وحيناً في راسها ليس غير فقل لي يا هرفي هل توذن علتها بخطر قريب

— نعم وقلما يشفى المصاب بمثل هذه العلة

— رباه ما هذه الشدة

— انك سالتني الحقيقة فصرحت بها للحال لانني عرفت العليل ونسبته اليك فتاكد ان الشفاء يكون غرابة وعسى ان يا تيها الله احملاً من عنده فما علينا الأّ بذل الجهد في شفائها والله الواقي

الفصل الخامس

خيبة امل دابيرون المستنطق

عقيب ان ودع تاباري نوال سار الى بيته فما لبث قليلاً ان انصرف منهُ عند الحادية عشرة مسروراً بما وعاه دون عناء وجهد من القصص والرسائل التي قرّبت عليهِ ادراك مناه من مسعاه بل هدتهُ كما يزعم الى اثر الجاني الناد فيهرع يتهادى في سيره الى المستنطق في تلك الليلة كالشارب الثمل . و بدل ان يركب العربة على رغم الرغبة التي كانت تنتزع بهِ للوصول اليهِ سريعاً خطر لهُ ان يسير رجلاً فيفكر في المسئلة سارياً . فجاز طريق (لاشوسه دانتين) مخططياً الساحات الى ان دخل محلة (ريشليو) وهو من خواطره في شغل شاغل يناجي نفسهُ و يكاشفها مدمدماً شان الساري منفرداً لا يبالي بمن يخطر

حيالهُ ومن حولهِ على تلك الطرق . فتارة يشير اشارة المتعجب من الحديث الذي جلى لهُ عن حقيقة الامر الذي سعى فيهِ وتارة اخرى يتقدم قائلاً في نفسهِ — لقد كذب التوفيق جفرول فبرهن لنا ان الصدف من اعظم الثقافين وادهاهم . فمن تراه كان يقوى على كشف الحقائق التي اتصلت بي عرضاً بعد اذ كنت وقفت عند بعض رموز منها ولكن ترى هل كنت ابلغ بجدي وكدي الى معرفة التبديل بين الطفلين لولا ان التوفيق هداني اليهِ وادعًا . كلاّ فان هذه الحيل تقادم عهدها حتى ان الزمان ضرب عليها وكفى الثقاف موءنة العناء في البحث عنهـــا . وقد يتفق كثيرًا ان الثقاف يضل هداه في الحيد عن التنقيب في كشف الحيل الغريبة التي بعد ظنهُ من حقيقة وقوعها على انها كانت ربما نقطة العمل

فالحمد لله الذي دفعني هذه الليلة الى مجالسة نوال فاصبت عنده خيرًا نتقاسمهُ معًا فلي معرفة الجاني ولهُ استرجاع ما فقده من الحقوق المدنية . وهو اهل للاحراز المال بعد اذ تقلب في ادوار الشقاء وابتلى الايام . اما الامر الذي غمني جدًا فهو اختبار حال مدام جردي وابتلاء سرها بعد اذ كنت اعتقدت بها الصلاح والتقوى الى ان حدثتني نفسي مرارًا بالتزوج منها . فيا لله ما كان اعظم شقائي في آخر ايامي لو تمَّ ذلك فكانت مدام جردي قرينتي على سوء سريرتها وغوايتها

ثم تخلص من حديثهِ عن مدام جردي ونوال الى الكلام عن جفرول زعيم الثقافين فقال

يا لضياع سعيهِ وراء الرجل المشنف الآذان فماذا يحل بهِ اذا افدتهُ نجاح اعمالي لا ريب انهُ يتحامل عليَّ حتى الموت . ولكن حسبي بدايرون المستنطق نصيرًا يذود عني ويبعد مني كل من يدانيني بشر او يرميني بسوء . من لي بوصف دهشته عندما اطلعهُ على جلية الحادث واكشف لهُ عن حقيقة دعوى ينال فيها فضلاً ساميًا . فما زال بسري مناجيًا نفسهُ الى ان وقف على ظاهر مجاز

(السان بار) وقال - اخشى ان يطالبني بالتفصيل عما علمتهُ جملة فيتعذر عليَّ بيانه

ثم استانف المسير قائلاً - كان من الواجب ان اعي كل دقائق المسئلة فاحيط بتفاصيلها كلها ولكن ما الحيلة كنت اخاف اذا امعنت في السوال فوقفت لدى نوال موقف المستنطق ان أُمسك عن جوابي حذرًا مني فيظن بي احد اعوان الثقاف فيجافيني ويحرمني من الفائدة كلها . فما لبث تاباري يعنف نفسهُ تارة ويسليها تارة اخرى الى ان انتهى الى منزل المستنطق فوقف محاولاً تبديد الاوهام التي خامرت فكره

وكان دايرون قد دخل مضجعهُ في تلك الساعة بريد الرقاد بعد ان اوعز الى خدمهِ ان ينذروهُ عند قدوم طارق يطلب مكاشفتهُ

فطرق تاباري الباب ودخل معلنا اسمهُ فادخلهُ الغلام "للحال" مضجع مولاه . فلما رآه المستنطق نهض من فراشهِ وقال لهُ

— لاريب انك قد وقفت الليلة على اثر مفيد دعاك الى مشافهتي قبل الصباح فما عندك من الدلائل

— عندي ما يقضي عليك بالعجب العجاب

— قل بالحال ما تسره

— انني ادركت اثر الجاني

فاستفزَّ الفرح المستنطق فقال - هل تسنى لك ذلك عجلاً

— نعم يامولاي وقد عرفت بالجاني على تلك الآية في محلة لاجونشار

— اذا صح قولك كنت لديَّ ادهى الثقافين واحذقهم بل نصيري وعوني في حل كل معضلة تعرض لديَّ مستانفًا

— لقد بالغت في الثناء عليَّ على ان كل الفضل في ذلك للتوفيق والصدفة

— يعجبني تادبك ياتاباري ولكن لك كل الفضل لانهُ كما لايخفاك ان

التوفيق كان اسير القوي ولذلك ترى الضعيف يحمل على القوي غيرة منهُ وكيدًا . فاجلس للحال وقص علي القصة بوجوهها

فجلس ناباري وشرع يقص على المستنطق جليًا كل ما اخذه عن نوال ويروي عليهِ مفاد الرسائل التي تليت على مسمعهِ بالحرف الواحد . ثم قال لهُ

— دونك ياسيدي احدى تلك الرسائل التي تمكنت من انتزاعها بغية معارضة خطها بغيرهِ

— صدقت ياناباري فانك قد اهتديت الى الجاني واري الحقيقة واضحة في عينيك فلا ريب ان الله اراد ان يوخذ الابن بجريرة الاب

— لاتلمني يامولاي اذا اغفلت الاسماء قبل ان اعلم برايك في الامر

— بح بهِ ولا تخشَ لائمًا والكل لدى الشريعة شرع

— ان الرجل الذي اكتم اسمهُ فاخجل ان اجاهر بفعلتهِ لمن عليَّة القوم وهو الكونت ربنو دي كومارين وان قاتل الآنسة لروج هو مسبعه الفيكونت البرت دي كومارين

وكان ناباري يصرح بما عنده شيئًا فشيئًا علمًا منهُ بما يترتب على اشهار اسم المجرمين من الاثر في نفس المستنطق

فاخذت دابيرون الدهشة والعجب فاختلجت اعضاوه واضطرب اضطراب الارشية وهذى قائلاً

— أ يكون الجاني البرت دي كومارين

— نعم هو الجاني وما كنت لاصدق الخبر لولا البراهين الخطية التي جاءت تؤيده باجلى بيان . ثم لاح لهُ ان المستنطق قد اكمد وجههُ وارتاع شيئًا فدنا منهُ وسالهُ قائلاً

— هل يشكو سيدي ألمًا

فاجابهُ دابيرون عرضًا دون ان يفقه جيدًا معنى سوالهِ — كلاَّ انما الحيرة والعجب قد حاكا في نفسي شديدًا فاوقعا فيها من الاثر ما رأيت لوائحهُ على

وجهي

— ذلك امرٌ لا تنكر غرابتهُ ولا غرو اذا حدث عنهُ من الاضطراب ما حدث

— فعليهِ ارجوك ان تتنحى عني قليلاً لافكر في الامر مختليًا بنفسي ولا تنفصل عني فان لي حاجة كبرى لديك فادخل الان الى المخدع حيث اوافيك قريبًا

فلما خلا دايرون بالمقام جلس على الكرسي مقطب الوجه منقبض الصدر يتنفس الصعداء عن حزن شديد أَلمَّ بهِ من جراء ما تبلغهُ فجأَة عن اسرة تركت في فؤاده جرحًا لم يندمل . وكأَن بتاباري قد هاج في مهجتهِ بذكر ذلك الاسم اثر حادثة اضنكتهُ صبيًا وكدرت صفو حياتهِ . فتمثل في دقيقة واحدة للحال مشهدًا شخص فيهِ البرت دي كومارين كأَن قد مرَّ بهِ منذ عامين

كان بطرس ماري دايرون ابن كرام تقلدوا المناصب الرفيعة في باب الحكومة الفرنسوية ثم انقرضوا كلهم دون ان يخلفوا لهُ اثرًا من جلائهم او شارة من كرامتهم يتحلى بهِ اسمهُ . لكنهُ ورث عن ابيهِ قصرًا ياويهِ وعقارًا في جيرتهِ لا تتعدى قيمتهُ ثمانمائة الف فرنك واخذ عن امهِ حسبًا اتخذه سببًا يصل بينهُ و بين اسرة بواتفين العريقة النسب في فرنسا . فعندما رقي منصب القضاة فيها تقرب من آلهِ فتردد اليهم في مجتمعاتهم فاكرموه وانزلوه عندهم منزلة من الفضل والفضيلة . لان دايرون كان على جهلهِ آداب الجمعيات الخاصة عريقًا بالفضيلة اديبًا نزيهًا وفيًا صادقًا في مودتهِ حريصًا على اسرار اخوانهِ سليم الطوية حسن السليقة وبالجملة ان اصحابهُ وخلانه كانوا يرغبون في محالفتهِ ويضنون بالفتهِ

ولما رسخ قدم دايرون في المكانة التي بلغ اليها اكثر الترداد الى الناس فقام بينهم ليلاً نهارًا فحدثهم وسار على قدمهم طمعًا بالوقوف على احوالهم وشؤونهم الخاصة لانهُ كان يرى من واجبات القاضي او المستنطق ان ينبش

في القوم فيألفهم على اختلاف مواضعهم ويقارنهم ليزداد ضلعاً من معرفتهم واختبار سيرتهم . فكان يرسل انظاره متنفذاً حركاتهم وسكناتهم افراداً ومجتمعاً الى ان تسنى لهُ اخيراً معرفة الناس الذين تولى شوءونهم وقام حكماً بينهم .

ففي خلال عامي ١٨٦٠ و ١٨٦١ امتنع دابيرون عن اصحابهِ وانقطع عنهم دون سبب جلي فتعجب كلهم من هذا الانحجاب فطفقوا ينقبون عن الاسباب ويسعون وراءه فلم يدركوه وبعد الاستقراء والبحث الطويل عرف خلانهُ بمكانهِ عند المركيزة دارلانج وانقطاعه اليها دون غيرها من الاهل والاحباب . ولا غروَ اذا عجب اخوانه من مجالسة تلك المركيزة الكهلة وانفراده بمودتها على بعدها من نقطة مركز روح العصر الحالي وخلوها من المعارف والمزايا التي تدعو الناس الى التقرب منها . وكان الدهر لم يبقِ لها من حطام الدنيا الا على القصر الذي كانت تقطنهُ وبعض الريع الذي اصابتهُ من مورد التعويض وكان لها دون آلها كلهم اجمع حفيدة يتيمة

وهكذا كان دخولهُ دار الكهلة . ان احد اصحابهِ الحَّ عليهِ يوماً ان يصحبهُ الى المركيزة قائلاً لهُ

— انني اريد ان اطلعك على اثر من آثار الاعصر الخوالي فيروق لديك ويحسن في عينيك .

فاذعن اليهِ دابيرون وانقاد لهُ طوعاً فانتاب دار المركيزة فلاطفتهُ في زيارتهِ الاولى الى حد ان اطمعتهُ في التردداد اليها فما لبث المستنطق ان آلف زيارتها كل ليلة الى ان ابطلت المركيزة ما استقبلتهُ بهِ من اللين والرقة فحسبتهُ في جملة مساكنيها

وكان دابيرون عارفاً بتلك الحفيدة دون كل من ينتاب دار المركيزة لانها لم تكن تتراءى لاحدٍ منهم لانكار جدتها عليها مجالستها بحضرة جلاسها ليتم لها الاختلاء بهم والخوض معهم في الحديث دون رقيب

وكان اسم تلك الفتاة كلارا دارلانج في السابعة عشرة من عمرها حسنة الطلعة لطيفة المحاضرة لينة العريكة كانت قد اخذت بعض العلم عن احدى المدبرات الالمانيات واسمها تميت . فهذه الصبية جل ما صرفت عنايتها اليهِ تنزيه الفتاة عن الشوائب التي اثرت فيها بمقارنتها جدتها فنشأت تهـا على تحرّي الحقيقة وجردت عقلها للعلم وقلبها للفضيلة

فعاق دابيرون بحب الفتاة وتولى فؤاده هواها فاستمالهُ الى زيارة المركيزة دارلانج كل ليلة استئناسًا بصباحة وجه كلارا وصار اذا دعته ... الى تحوّل انظاره عنها او آذانهِ عن سماع حديثها لسماع حديث آخر تضجر وتململ بل ربما كان يتيهُ في الجواب على خطاب الغير لاشتغال بالهِ وذهولهِ عما لا يأنس فيهِ حديث كلارا او حديثًا عنها

وكانت الكهلة كثيرًا ما تعنفهُ على ذلك وهو لا يوبه بملامها وتعنيفهـا لا سيما عندما كانت تجالسهُ على طاولة اللعب فتكلفهُ كل ليلة خسارة شيءٍ من المال بداعي اضطراب افكاره وتحوّل خواطره الى من لم تبلّ صدأ فؤاده بكلمة منذ رنت اليهِ فارنتهُ بحسنها

وكان دابيرون قانعًا من حبيبته بلحظة كل ليلة كان يجتمع بها فيصغي الى حديثها مع جدّتها مجيلاً انظاره في جملة ذلك الجمال حتى توصل اخيرًا بعد طول تردده الى دار دارلانج الى ان يلتمس من الحاظها الغزّالة لمحة السرور او الانزعاج فيقاسمها الحالين دون ان يتجرأ على سؤالهـا او استكشاف حالها .

وكان كل مرة تحدثهُ نفسهُ بطلبها الى جدّتهـا يحرج صدره خيفة الصد والنفور لان المركيزة كانت تتيه بسمو حسبها فتباهي بهِ وتطمع من اجلهِ باصحاب المقامات المنيفة . فلبث دابيرون في حيرة شديدة لا يدري كيف يصرفها عنهُ الى ان اتجه لهُ الراي في طلبها قبل الآخرين.

ففي ذات يوم قصد المستنطق قصر دارلانج بعد الظهيرة وقد وطد نفسهُ على اقتحام الخطر وركوب الحذر شان الجندي المتهيئ للحرب فقال في نفسهِ -

لا بد ان اصرح لها او لجدتها بما عندي من الوجد عليها فاما ان افوز بسؤلي واما ان اموت قهرًا وكمدًا . فاتفق ان المركيزة كانت قد خرجت من القصر صباح ذلك اليوم فعادت اليهِ في الساعة التي دخل دابيرون المنزل وكانت من الغيظ والحنق عند حد الشدة . والسبب في ذلك انها كانت قد كلفت احد جيرانها المصورين بعض العمل في دارها دون ان تنقده لقاء عنائهِ وتوالت على ذلك الايام وكان المصوّر يتقدم اليها في اثنائها بطالب قيمة مالهُ عليها فتصرفهُ عنها بالوعد والتعليل الى ان دفعتهُ اخيرًا بتعليلها الى الحاكم فرفع امره اليهِ فبعث القاضي بطالبها فلبت الامر دون ان تعلم بشانهِ احدًا ومثلت بحضرة القاضي امل ان يكفيها لجاجة المصوّر مدلة بحسبها ونسبها فخاب املها ورجاؤها فيهِ لانهُ بدل ان يعنف المصور على طلب حقهِ انقلب عليها بالملام وقسرها على تادية الحق الذائب لهُ عليها . فاكبرت المركيزة الامر وعادت الى منزلها على الحال التي نوّهنا عنها فصادفها عليها دابيرون عند دخولهِ فشق عليهِ ذلك لا سيما عندما تاكد غياب كلارا من القصر في صحبة قيّمتها . اما المركيزة فاستقبلتهُ على رغم حدتها واشتداد غضبها بكل احتفاء وهرعت اليهِ كما يهرع الضعيف الى جانب القوي عند نزول الشدة فسالها المستنطق بيان اضطرابها وألحّ عليها ان تاتيه بهِ عجلاً عساه ان يصرف عنها اسبابهُ ودواعيهِ فقالت لهُ

— ان حنقي انما ناشىء عن تحامل القاضي عليّ في دعوى رجل صانع كنت دعوتهُ اليّ لعملٍ يترمق ببدلهِ فاوى لشكواه وارسلني كما يرسل الجاني اللئيم

وفيما كانت تشير بيديها من الغيظ اصابت بيمنها زجاجة ثمينة كانت في كف الجارية الواقفة الى جانبها فالقتها على الارض فتحطمت . فازداد كدرها واصطلت نار حدتها الى حد التعامي عن الوجود فحاول دابيرون تسكين روعها فقاطعتهُ الكلام قائلة

— ان اقبالك يا دابيرون في هذه الساعة كان من كرامات التوفيق

فالرجاء بغيرتك وحميتك ان تسعى بنفوذك لدى ارباب الحل والعقد في مؤاخذة المعتدي والأخذ بشرفي منهُ وما زالت توقع بالحاكم والصانع المصور الى ان ادركها العياء فاستلقت على الكرسي جهداً فاضطر المستنطق ان يضرب عن الوقيعة حبًا بكلارا لانهُ كان يستبيح كل شيء في حبها وهواها واخذ يلاطف جدتها باذلاً اقصى ما عنده من اساليب الرقة والانس راغبًا في ازالة الباعث الذي اعترض دون التصريح بطلب كلارا عندما عقد النية عليهِ واقبل بكليتهِ اليهِ . فتطرّق في حديثهِ الى ذكر الثورة وفظائعها وتاثيرها في الاحكام والحكام وما جلبت على البلاد من المصار الى ان وافقها اخيرًا الى لوم الحاكم وتقريع الصانع واراها في عرض بيانهِ واجب الوفاء بالحق على انهُ خير لها من التعرض الى المرافعة مرة اخرى مع من هو دونها قدرًا ومقامًا .

فلما طرقت اذن المركيزة كلمة الوفاء انتصبت في المجال كما ينتصب الجندي في القتال وقالت

— دع ذكر الوفاء في هذا الباب فهل مثلي من يدين صاغرًا للمصوّر وحكم قاضيه كلاً ثم كلاً انني لا افعل ما يزيدها طمعًا في شرفي ومكانتي فضلاً عن ذلك ليس لديّ من المال ما يقوم بالطلب

— أتتظاهرين بالعجز عن اداء مبلغ لا يتجاوز السبعة والثمانين فرنكًا

— أتزري بهذه القيمة شان المثرين فاذا كنت قد احرزت عن آبائك مالاً توفر لديهم اثناء الثورة فانا لا املك شيئًا بل قد استنزفت الثورة كل مال دارلانج . وقصارى القول انني لا البي الطلب فبمَ ينالونني

— أرى يا سيدتي ان لا تقاومي القوة بالقوة فان الشريعة تقضي عليكِ في القيام بنفقة تربو على الدين خلا ما ينالكِ من الحطة والخفض في القاء القبض عليك

— يتبين لي من خلال هذا الاستبداد ان نار الثورة لم تخمد حتى الآن بل ما زال الشعب يلج في اضرامها لاتلاف اصحاب الجلاء فسقيًا لك يادايرون

اذ كنت في جملة العامة آمنًا من شرها وما يلوح لي ان لا مناص من الرضوخ لاحكامها عجلاً ولكن أنىّ لي ان اجمع المال وقد بهظتني النفقات في سبيل حفيدتي

واذ كان المستنطق عارفًا بسر المركيزة وجهرها تعجب كل العجب من ارسالها كلمة النفقات فاضطر ان يكررها قائلاً — ما هي تلك النفقات . وما تكون

— ان وجود كلارا عندي يلجئني الى تكبد نفقات كنت عنها في غنى لولا انني لبثت وحدي فما كان احوجني الى هذه الطرف وذاك العقار أما كان في حد امكاني بيعهُ وايداع قيمتهِ احد الصيارف فاعيش بريعهِ حياتي كلها لكن صوت ولدي يدوي صداه في آذاني فيحنُّ لهُ قلبي اذ اوصت اليَّ ان اجعل ابنتها تحت حمايتي وفي رعايتي ما دمت في الحياة

فافحم كلامها دابيرون واعجبهُ اخلاصها وتهالكها على حب حفيدتها

ثم استانفت الخطاب فقالت — تاكد يا دابيرون ان همي الوحيد السعي في سبيل نجاح هذه الابنة وتوطيد مكانتها في مستقبل حياتها

فعند هذا الكلام خفق قلب المستنطق فرحًا اذ وافقت بحديثها امانيهِ فمهدت لهُ طريق الخوض معها في معنى ما نواه في زيارتها فاجابها

— عجبًا اراكِ في شاغل من امر توطيد مكانة كلارا على ان اخلاق الفتاة ومحاسنها تكفل لها ذلك

— لا تعجب من قولي في صعوبة الوصول الى الغاية التي اتعمدها حرصًا على مصلحة حفيدتي فان الزمان الذي صرنا اليهِ قد وفر في سبيل الفتيات العقبات فقضى على التي جردها من المال ان تذبل نضارة عمرها في زوايا الخمول فجعل الزواج تجارة يزيد ربحها بزيادة راسمالها . فعطل سوق الآداب واجحف بحقوق الحسب والنسب . فاين الرجل الذي يقنع بآداب كلارا فيكتفي بحسنها عن مالها

— صدقتِ ولكن ربما كان بعض شبان العصر يهوون الجمال المقرون بالاداب فيرغبون بحفيدتك عن غيرها من المثريات

— لم تبلغ يا دابيرون حد الخبرة التي بلغت اليها فقلبت الايام وعرفت ابناءها فاعلم انهُ اذا تسنى لي الآن ان ازوج كلارا من احد الشبان الذين عنيت اليهم فرضي عنها لا يمضي على عقد زواجها مدة حتى ينقلب عليَّ ذلك الصهر بطلب حسابها وما انفقت عليها كأنهُ من مالها فيطلبني الى المرافعة اذا اجبتهُ بالانكار ويدعي عليَّ بما يعنيني ويزيد في قلقي واضطرابي مدى عمري . فلو شاءت كلارا ان تعمل برأيي لما اخترت لها مقاماً الاَّ الدير فاثرت نسكها وزهدها في راحة وهناء على متاعب الدنيا ومصاعبها . ولكن اراها تجافى وتابى الاذعان لاشارتي في هذا الشان

فعندئذٍ اتخذ دابيرون حديثها وسيلة يتوسل بها الى تحقيق امنيته وتوطئة لشرح ما في نيته فاستجمع قواه وقال في فاتحة كتاب هواه

— اذا سمحتِ لي قدمت لحفيدتك الكريمة الفتى المطلوب لسعادتها وهنائها

— ولمَ الابهام في المقال

— ان الفتى الذي اشير عنهُ يرغب بالتقرب من كلارا على الحال التي هي عليها الآن صارفاً النظر عن المهر والمطالبة بشيء من العقار بل يحب اليك ان تتولجي المال في ضمانة نفقتك حتى اذا قصر عن القيام بها تكفل صهرك في سد عوزك عفواً

— فما الذي اقعدك عن تقديم الرجل حتى الآن وانت صديقهُ من قديم الزمان

— كنت اخشى صداً

— اشهر لنا هذا الصهر العزيز نبئني للحين بمقره

فانقبض صدر المستنطق اذ انتهى الى الحد الفاصل بين الحالين فتنازعه

الخوف من ألم الصدود والرغبة في نزول برج السعود وما لبث برهة يفكر في الامر الى ان قال بصوت ضعيف

— انا هو يا سيدتي

فضحكت الكهلة حتى استلقت وقالت وهي تهز منكبيها – ما اجراك يا دابيرون في مجال المزاح وما اقدرك على نظم اساليبهِ . ثم عاودتها الرزانة فعدلت عن نهجها في الخطاب وقالت لهُ

— هل تصدقني المقال

— لا اجازف بهِ ولا ادعي

— أأَنت من المثرين

— ان والدتي قد خصتني بريع لا يقل عن عشرين الف ليرا ثم انني ورثت عن احد انسبائي نحوًا من مئة الف ريال خلا ما يعود لي في الارث عن والدي الذي ينفق كل ما لديهِ حبًا براحتي ورخاء عيشي

— لو اقتحمت طلب كلارا الى ابيها لصدك للحال بل ربما كان اخرجك من منزلهِ صاغرًا ولا خناك ان السبب في ذلك الحسب وهو الذي يقضي عليَّ ايضًا ان امسك عليك الجواب فلا اتعرَّض ابدًا لمكاشفة حفيدتي في بل اعدك وعدًا صادقًا ان لا انصدى لك بالحرمان اذا تمكنت من اقناعها

فطار فؤاد دابيرون من الفرح شعاعًا فتقدم الى المركيزة يريد استلام كفها بيان شكره على ما تفضلت بهِ عليهِ . فاعترضتهُ قائلة

— لم تفز بعد بالمرام فشافه كلارا وبعد ذلك سرَّ وازدهِ وما اخالها ترضى عن شهرة دابيرون بدل دارلانج كما رضيت والدتك بهِ عن جلالها المشهور ومع ذلك فالراي في ذلك لها فعسى ان يكون لك تمام النجاح

فرسخ هذا الجواب في نفس المستنطق حتى اطربهُ ذكره في غرفته على تقادم العهد وانصرام الايام وكأَن بصوت المركيزة يردد عليهِ كلمة الامل بالنجاح في ما يتمناه

فانصرف عقيب ان تلقى الجواب رحب الصدر ناعم البال ظافرًا وكان لشدة فرحه ينادي بين اقرانهِ واخوانهِ وذويهِ قائلاً — ان المركيزة رضيت عني قرينًا لحفيدتها

ومنذ ذاك الحين اخذ دايرون يكثر الترداد الى قصر دارلانج فيسعى جهده في استمالة الفتاة بما يتوفر عليهِ من الخدم مختارًا لها اطائب القصص التي تطربها وتروق لديها وما زال يتلطف اليها ويتكلف في سبيل رضاها كل خطة الى ان آنست بهِ بعد وحشتها وارتهُ الرقة واللين في حديثها معهُ بعد ذلك الجفاء

ففي غد ليلة كانت قد دعيت فيها كلارا مع جدتها الى المرقص دخل المستنطق القصر فلفي فاتنته في هم شديد فما تمالك ان سالها السبب . فاجابتهُ بعد ان تنفست الصعداء — ان سبب همي لمن الاسرار التي كتمتها الجميع حتى جدتي

وفي اثناء كلامها رأى دايرون عبرة تنحدر على وجنتيها فاشجتهُ

وبعد ان فكرت في نفسها برهة استانفت الكلام فقالت — ربما تدعوني الايام الى ان ابوح لك بهذا السر اضطرارًا

فاجابها دايرون بكل لهفة ووله — وانا قد ضاق صدري بسرّ ارغب في نشره لديكِ لتطويهِ في قلبكِ

ولما اذنت الساعة بالانصراف خرج دايرون من القصر عائدًا الى منزلهِ ولسانهُ يكرر الغد الغد كلمة اكثر تكرارها مدة طويلة

ففي ذات ليلة جلس دايرون وكلارا في زاوية الحديقة يتروحان بانفاس النسيم وازاءهما المركيزة تخطر فيها بعد العشاء لا يستطيعان بث ما في نفوسهما من تباريح الجوى وقصص الهوى . الى ان اعيا المستنطق الصبر فاستلم كف الفتاة الناعمة وضغط عليها وقال

— وجهي الحاظكِ اليَّ فاتلو عليكِ قصتي وهي . انني كنت قد تقدمت

الى جدتك بطلبك قبل ان ارفع عينيّ الى نور محياكِ فافقهي اذن مرادي واحكمي اما بقربي منكِ واما بابعادي . كلارا ان في هاتين الكلمتين رمزًا خفيًا لا يخفى عليكِ معناه . فاعلمي ان براحتكِ الموت والحياة . كلارا ان الحب قد ملككِ قيادي . فارحميني وحققي مرادي

وفيما كان دابيرون يتكلم كانت كلارا ادنى ما يكون اليها الذهول لم تصدق حركات قلبها وعواطفها التي كانت تحدثها من قبل عن حقيقة ما شهدتهُ في ذلك الحين حتى اسمعها دابيرون باذنها كلمة الحب الذهبية فطوت يدها بلطف وقالت بصوت خنقتهُ انفاسها

— أأنت القائل بحبي

فاضطرب المستنطق من هذا السوال واوهم انها تزدهيهِ وقبل ان تتكشف لهُ معانيهِ ورموزه رأى اسلاك الدمع تتناثر على صفحة خد كلارا فتصرمت انفاسهُ وتفطر قلبهُ . فقالت وقد سترت خديها بيديها — ويلاه ما اشقاني وما اعظم بلائي

فصاح دابيرون وقد شق عليهِ حديثها — أتشكين مني الشقاء يا كلارا لله ما اقساكِ كلارا اوضحي السبب قبل ان يقضى عليَّ كمدًا وقهرًا

ثم ارتمى عند اقدامها وبسط كفهُ يلتمس كفها فتنحت لطفًا عنهُ وقالت

— دعني اشفي وجدي بالبكاء فان مصابي أليم آه انني اشعر من نفسي بضنك شديد . اخشى يا دابيرون جفاك وبعدك مني وكفرانك بايمان حبي بل ربما تزري بقدري اذا اسمعتك ما عندي وايم الله انني لم اعلم بالحب قبل الآن ولم يخطر على قلبي في سالف الزمان . دابيرون انني اعتقد بخلاصك لي ولكن اخلاص الوالد نحو ولده فتقربت منك ولم ادرِ بما كنت تسرّ . . . .

فاشتد الخطب على المستنطق وعظم في عينيهِ الخطأ الذي اتاه متطوّحًا في حبهِ معها قبل ان يتمكن من رضاها فخاف ان ينالهُ من صدودها سوء فنهض حائرًا صاغرًا

فأوت كلارا الحالة وادركت اثر الجرح الذي اصاب فواده بتسديد نبالها فقالت له

— بلى انك كنت لي بمثابة ابٍ استوجبت حبي وفرضت عليَّ الطاعة لك والرضوخ لاشارتك نعم انني كنت انظر فيك ابًا لي ونصيرًا ارسلك الله للاخذ بيدي بعد فقد والدي وكل اسرتي

فتنهد دابيرون عن فوادٍ أصباه حديث الفتاة واشجاه

فاستطردت كلارا بيانها الى ان قالت — آه لو كنت افدتني خاطرك قبل الان فكشفت لي نفسك لكنت ارشدتني سبيل مناك . دابيرون ان اعتمادي عليك كان اعتماد ولدٍ على ابيهِ بك تسليت عن اهلي وعشيرتي وفي قلبك الفيت مستودعًا امينًا استودعهُ اسراري . لمَ لم تشهر لي سرك قبل ان اشهد تلك الليلة التي جلبت لفوادي الحسرات فقيدتهُ بحب غيرك

من لنا بوصف حال دابيرون هابطًا من شاهق الامل الى وهدة اليأس منكسًا اعلام الظفر مطأطيء الرأس يجاول صدام العجز لدى كلارا ببقية البأس . واذ كان لا يصبر على الاحجام خاسرًا تهيأ له على رغم اضطرابهِ ان يستر الهزيمة لدى كلارا فقال لها

— يعز عليَّ ان اسمع باذني الحكم بانفصالي عنكِ ولكن حسبي ما احرزتهُ من اثار لطفك وما علقت بهِ نفسي من الاماني في مقارنتك وما رويت بهِ قلبي من احاديث الخلوص في مجالستك ذخيرة لا تنفد مدى العمر وهي عدتي بالعسر كما كانت في اليسر

وهنا امسك دابيرون عن الكلام ناظرًا الى الفتاة النظرة الاخيرة فاذا هي تبكي بكاء الاحباب في موقف الوداع ثم استطرد الحديث الى ان قال

— قلتِ يا كلارا بحب شاب لم تعلم بهِ جدتك ولا ريب انكِ لم تختاري الاَّ من كان من اكفائك فما السبب في انجابهِ عن داركِ حتى الآن وقد تعاهدتما على الحب قبلاً

— ربما تصدت لنا بعض الموانع فاعترضت دون ترداد الزيارة اما انا فلا احب الأمرة في حياتي وحبي لمن يكون معيني فيها والاَّ رضيت بالعزلة دون كل الناس

— أتحول دون من تحبين موانع تمنعهُ من الاجتماع بكِ في دارك

— لم اقصد بالموانع ما يحول منها دون المجيء اليَّ ولكن اريد بها التباين في احوالنا فان الشاب ذو ثروة طائلة وانا فقيرة لا املك من حطام الدنيا شيئًا وقد أبى والده ان يوفق بين الحالين

— أيدري انكِ تحبينهُ ولا يفدي واهلهُ كلهم اجمع في سبيل رضاكِ اثمن شيء لديهم آه لو كان لي هذا الحظ او شملتني بتلك السعادة لما حال دون اتفاقي على الحب حائل . فهل في الحب من ضحية يسومها الانسان نفسهُ خلا ما اعلم من السرور والجهاد والصبر والرجاء

— كلاَّ ذلك ما اعانيه وابني حبي عليهِ

فتاسف المستنطق كل الاسف لفقدانهِ حب كلارا وانقطاع املهِ من الاعتلاق بها بعد اذ كان قد تبين لهُ من كلامها الرضى عن الحب في الزواج دون باعث او سبب سواه . وكان يلذ لهُ معاناة الجفاء والصدود في حب كلارا فسالها قائلاً

— اين تعرفت بالرجل وكيف تمَّ لكِ وجه الخطاب معهُ

— انني لا اكتمك شيئًا مما جرى بيننا . هو انني لقيتهُ عند ابنة عمهِ السيدة دي كوالو صديقة جدَّتي فتعرفت بهِ وتمكن بيننا رابط الحب وهناك لا ازال القاه فاجتمع بهِ . . .

— لقد فطنت الآن الى ما كنت اراه على جبينك من ابائع الكدر يوم كنتِ تعودين من زيارة تلك الحليفة وذلك الصديق

— ان كدري كان ناشئًا عن عجزه في ازالة الموانع التي تحول دون اقتراننا

— هل ما بين النسيين بون عظيم حتى اراه في عناء من التوفيق بينكما

— ان اسم من اهوى هو البرت دي كومارين

وفي تلك الاثناء كانت قد انتهت المركيزة من خطراتها فدنت من المستنطق وقالت له

— هلمَّ بنا الى القصر فان اللعب يدعونا

فلم يسع المستنطق الاَّ اجابة الاشارة دون اعتراض وتحفز للقيام فامسكت كلارا بيده قائلة

— ما بالك لم تكشف لي اسرارك

— اما علمتِ بها حتى الآن

— نعم وقد تقوضت مباني راحتي وهنائي بجهلي وغباوتي . ففاتني ان ارى ما رأتهُ جدَّتي فرضيت عنهُ . وقد تاكد لي اخيرًا انها بك في حديثها عنك سرًّا اليَّ

— هي التي علقت آمالي بكِ فحملتني على ان ارفع طلبي اليكِ بعد ان كشفت لها مذهبي في الزواج وانكاري المال كحق واجب فيهِ لتمام العقد

— قلت لك يا اخي ان ما فعلت كان علة لزوال راحتي ولم يبقَ لديَّ من حيلة ادفع بها عن نفسي . آه يا لشدة غضب جدَّتي اذا درت بصدودي وتمنعي عنك

— لا يكدركِ يا حبيبتي حرماني وتاكدي انني انصرف عن داركما كما دخلت اليها دون ان اعلم جدتك بما كان منكِ ومني

— جزاك الله عني خيرًا

— نعم انني اهجر الدار غريبًا نازحًا وفي فوادي غصة من ألم النوى غير انني آمل ان لا يغفل حنانك اسمي اذا حجب عن ناظريكِ رسمي

— لا تقل بالنسيان يا دابيرون فحاشاي ان اذهل عمن لم آلف منهُ الاَّ جميلاً

— فحسبي بهذا الامل اعظم سلوى تسليني في نكبتي وتخفف كربتي

فاستلمت عندئذٍ كلارا كف المستنطق وقالت لهُ — بالله انسَ ما كان الان بيننا فعد الى ما عودتني عليهِ من الحلم والحب واذكر انني اودك ما عشت مودة الاخوان.

وكان الظلام قد اشتد في تلك الساعة حتى حجب الوجوه عن الانظار فلم يلح لكلارا دمع دايرون متناثرًا على خديهِ من غصة البعاد حتى استانف الخطاب بعد برهة فقال

— ما كنت آمل يا حبيبتي ان توهمي بي النسيان وانتِ تعلمين درجة حبي لكِ في الحالين فمعاذ الله ان اسلوكِ او اتجافى عنكِ قربًا ونوى

ثم نهضا معًا فتقدما حتى انتهيا الى درج القصر فاستوقف دايرون كلارا عنده بقولهِ

— اسمحي لي ان اودعك قبل افتراقنـــا فان الزمان يقضي بالبعد منكِ لكن اسالكِ ان لا تنسي حبيبًا اتخذ الغمّ خليله بعدك وكتب على نفسهِ الهلاك في رضاكِ ايان حلّ . ودعيني يا كلارا اخيرًا واذكريني

فبكت الفتاة لوداعه وصبت واذ كان قد طال تقاعد المستنطق عن موافاة المركيزة اخذ كلارا بيدها وصعد الدرج الى مخدع جدتها وقد كان عيل صبرها بانتظار دايرون للشروع باللعب . فلما اقبل اليها رفعت رأسها اليهِ وقالت لهُ

— مالي اراك تحوّل انظارك عني

فوجم دايرون برهة لشدة ما كان يتناوب على صدره من الاشجان ثم اقتصر من الجواب على التماس العذر في انصرافهِ لما يدعوه من المهام الخطيرة وانطلق يتهادى في مشيهِ من ثورة القهر لا سورة الخمر

فاغتاظت المركيزة لانصرافهِ عنها تلك الليلة على غير عادتهِ فنظرت الى حفيدتها الجالسة بعيدًا وسالتها قائلة

— ما شان دايرون الليلة وما بالهُ هجرنا هجرًا لم يتقدمهُ سبب

— لا علم لي بحاله

— انهُ يكدرني انصرافهُ على هذه الحال دون ان يبدي عذرًا واضحًا وقد رأيتهُ يطمع في انسنا حتى صار يعد نفسهُ كفوءنا . فلا بد ان اواخذه بهذه القحة فاريهِ الواجب في مقام الكرام

فحاولت كلارا ان تدافع عن دايرون فقالت — انني سمعتهُ اثناء وقوفي بهِ يشكو الانزعاج فلعلهُ قد اشتد عليهِ فلم يسعهُ بعد الجهد الاّ نصرافه

— ما اخالهُ خرج من الدار عن انزعاج او علة بل ليطلب محلاً يهوى صرف الليلة فيهِ

الفصل السابع

الراي في مرافعة الفيكونت

عقيب ان انفصل دايرون عن منزل دارلانج لم يأوِ من شدة همهِ وحرّ وجده مأوى بل سار طول ليلهِ سير التائه لا يهتدي سبيلاً علّ النسيم يداوي بنشر انفاسهِ صدرًا عليلاً . وكان يناجي نفسهُ ويعنفها على الخطة التي تطوّح فيها لدى كلارا قائلاً

— لمَ اقتحمت خطر التقرب من ذلك الجمال المقرون باللطف والنزاهة وعلوّ المقام فرأيت ان اوفق بين البشوش والعبوس او بين اخلاق الصبي والشيخ . لا ريب انها اصابت في حكمها عليّ اذ قالت ان محبتها لي كانت محبة

ولد لابيهِ لا غرام ولا هيام لان سيرتي في منزلها و بين اهلها توّيد ذلك . فلقد اخطأت في طلبها الى جدتها وتصريحي لها بحبي وجواي

ثم ان الفتاة التي يداخلها الهيام و يهز عطفيها الغرام لا تني تحدث نفسها عن محاسن حبيبها فتمثلهُ لدى انظارها بابدع صورة واحكم تمثال فلو قدر لي ان احوز رضاها ترى فباية صورة اظهر لديها و باية الالوان اليس انها تخيلني جالسًا بين المجرمين اسمع منهم واحكم بينهم باعثًا الخوف والرعب في قلوبهم فاية سلوى لها في هذه الصورة وما هي الآمال والاماني التي ترجو تحقيقها بي

وكان يتقدم المستنطق في مسيره تقدم ذي جنة تارة يقف والناس من حولهِ يتسآلون عن شانهِ وتارة اخرى يخطر بينها خطران الشارب من الذهول والحيرة الى ان بلغ جيرة (كرانيل) وهو لم يزل على مثل ما فصلنا فدنا منهُ عسُ المدينة يسالهُ بيان حالهِ فاخرج من جيبه رقعة الزيارة فدفعها اليهِ واستمر سائرًا كأن لم يكن ثم لديهِ معارض

ان دواعي الحب لم تنتهِ بدابيرون الى حد الذهول والهذيان بل بدلت صفاتهِ التي امتاز بها بين اقرانهِ فغشت على محيا العدل الذي دان لهُ في كل اعمالهِ وضربت على حلمهِ وسكينتهِ ورصانتهِ ومحبتهِ ووقاره فاوقفتهُ عند الجور والاعتساف فمال الى الانتقام ميلهُ الى كلارا فتمنى لو اتلف ذلك الفيكونت الذي علقت بحبهِ كلارا فحال دون تعلقهِ بها موانع تمنعهُ من التزوج منها

فاتفق انهُ صباح الليلة التي رأيناه فيها على هذه الحال كانت قد مثلت لديهِ احدى بنات الهوى بدعوى انها سطت على احدى رفيقاتها فقتلتها عن غيرة منها على خليلها الجندي المترّع في الفساد . ففطن المستنطق لدعوى هذه الشقية في مسراه بعد نكبتهِ الغرامية فشكا لحالها ورثى لامرها قائلاً : لا يعرف الحب الاّ من يكابده . ثم خطر لهُ ما يوافق معنى الآخر . دع عنك تعنيفي وذق طعم الهوى . فلو ذاق اخواني طعم الهوى لعرفوا ما يعاني صاحبهُ من الشدائد وما يتكبد في سبيلهِ من الضحايا ولرحموا مثل تلك الفتاة التي حملتها

الغيرة الغرامية على قتل من تبغي حرمانها من انس خليلها

فاخذت دايرون الشفقة على تلك البنت بعد اذ عرف صنوف بلايا الحب ودواعيهِ ووعد نفسهُ برحمتها وتخفيف عذابها قائلاً . كيف الوم تلك الغبية على جنايتها في سبيل حبها قبل ان الوم نفسي التي سولت لي وانا رصين حكيم ان افتك بمن ينازعني في الهوى . كلاً انها لا تلام ولا بد لي ان افتك بخصمي ومنازعي دون رحمة

ولما كانت الساعة السابعة من نصف الليل وصل المستنطق الى طريق غاب بولونيا في جيرة البحيرة فتخطى منهُ الى بورتاليو حيث ركب عربة وسار قاصداً منزلهُ فدخلهُ دون ان يشعر بنصب او لغوب فتردى ثيابهُ التي كان يترداها لزيارة المركيزة وخرج ماراً ببائع الاسلحة في طريقهِ فابتاع منهُ غدارة سداسية فحشاها والقاها بكل احتراز في جيبهِ واستانف المسير بطلب الاشخاص الذين يوهم انهم عارفون بالمحال التي ينتابها الفيكونت وجميع اصحابهِ الذين مرَّ بهم فحدثهم عن غرضهِ لم يلتمسوا من حديثهِ او هيئتهِ اشارة تفيدهم حيده او شططه . فما زال يتنقل من الواحد الى الآخر الى ان اتاه صديق عصر ذلك النهار فاعلن لهُ الندوة التي ينتابها الفيكونت دي كومارين واقترح عليهِ صحبتهُ اليها . فقبل دايرون صحبته شاكراً وفيما هو على الطريق كان يهجس في اختيار الطريقة التي بها يقضي على خصمهِ دفعة واحدة وفي ما يكون من غوائل فعلتهِ قائلاً — لا انكر ما يذيعهُ الناس وما يتقوّلونهُ من السوء عني اذا اقتحمت هذا الشرّ فلا ابالي بهِ بعد فقدان حب كلارا بل

أرى الموت احلى ما يكون لدى الفتى اذا فاتهُ إلفٌ وصدَّ حبيبُ
وهل لاخي سقمٍ شفاءٌ لسقمهِ اذا جار في وصف الدواء طبيبُ

فالانتقام غرضي وعسى ان تقصده السهام

فلما انتهيا الى باب الندوة فوقفا في باحتها اشار رفيق دايرون الى الفيكونت قائلاً هوذا الشاب وكان اسمر اللون حسن الجملة جالسًا بتصفح

جريدة . فتقدم اليهِ المستنطق دون ان يبرز الغدارة وما كاد يقف على مسافة خطوتين منهُ حتى وهت عزيمته ووهن قلبه فنكص على عقبيهِ حالاً تاركاً الفيكونت من اقدامهِ واحجامهِ في حيرة شديدة واذ كان قد جاز الى الطريق ادركهُ العي فتخاذلت ركبتاه وهوى الى الارض شان من فاجاه الدوار فاسرع المارون اليهِ مع عسس المدينة فحاولوا نهضتهُ ورأوا بعد التنقيب في جيب ردائهِ رقعة الزيارة فعرفوا منها اسمهُ وشهرتهُ فاحتملوه الى منزلهِ . ولما افاق من غفلتهِ وانتبه من غيهِ رأى والده الى سريره فسالهُ ابوه حزيناً من مرآه — ما دهاك ياولدي وما جرى لك

ثم قص الاب على ابنهِ جملة الحوادث التي مرّت بهِ اثناء تيههِ وما رآه الاطباء اتفاقاً عند اشتداد علته

فما طال حديث الاب حتى سالهُ دابيرون الامساك عنهُ لما نالهُ من الجهد في الكلام على ضعفهِ وهزالهِ فاطبق جفنيهِ وعاد الى ماضيهِ يستغرق فيهِ الافكار والخواطر التي تمثل لهُ المشهد الاخير الذي مرّ بهِ مع كلارا واطرد امعان الفكرة الى ان ادرك غوائل الجريمة التي كان ازمع ارتكابها وما زال يعاوده الشفاء شيئاً فشيئاً الى ان تعافى فروى لابيهِ قصة غرامهِ واحاديثهِ فاوى الاب لبلواه واشار اليهِ ان يقصد دساكره تنزيهاً للخاطر فياخذ معهُ من اسباب اللهو والراحة ما يهواه وعاهده والده على ان يزوجه من كريمة عريقة النسب فيهبهُ كل مالهِ ويوفر لديهِ جل ما يتمناه عليهِ

فتغيب المستنطق نحو شهرين في الضواحي ثم عاود بعدها اعمالهُ ولكن بجسم لا روح لهُ لانهُ كان يشعر دائماً باضطراب شديد في صدره وقلبهِ وفكره

وبعد عودتهِ خطر لهُ ان يزور المركيزة فما كاد يمثل امامها حتى ارتاعت من منظره لضعفهِ وسقمهِ فظنتهُ شبحاً هائلاً يتراءى لها فامرت الوصيفة للحال ان تصده عنها فحزنت كلارا لمرآه على هذه الحال حزناً ادى بهما الى الانزعاج ولزمت الفراش نحو بضعة ايام من هول تلك المقابلة وما لبثت ان عنفت

نفسها على ما كان منها سبباً لاعتلال دابيرون وتحوّل هيئتهِ فهجست قائلة

— ترى أيجبني البرت محبة دابيرون أيبلغ بهِ حد الجوى الى ما بلغ اليهِ هذا العميد . فلا بد لي من ان امد لهُ اسباب السلوى فاعزيه على بليتهِ واخفف بعض ما نالهُ في نكبتهِ. لكن دابيرون توارى في الحجاب وانكر على نفسهِ الوقوف في ذلك الباب فنزع الى طريقة يدفع بها عنهُ الاشجان وازالة ما يعنّيه بعد ذلك الحرمان فحاول التذرع بالتنزه والتجوُّل وصولاً الى غايتهِ فخانهُ الجد في هذا السبيل فعدل عنهُ الى العمل في مهام تستغرق الافكار وتمنع عنهُ هياج الوهم وتياره فاصاب في عملهِ بعض الراحة عن ملل او كلل لا عن عافية تامة

فمن اجل الاسباب التي اوردناها والدواعي التي سردناها رأينا دابيرون في دهشة وذهول عندما طرق اذنهُ ذكر كومارين في حديثهِ مع تاباري وقد اشار اليهِ ان يخلي لهُ المقام ليناجي نفسهُ بما يجريهِ في هذه الدعوى التي اوقفتهُ عرضاً شاهداً على ما مر في ايامهِ بكلمة واحدة

واوّل خاطر بادر لذهنهِ كان ان يقضي على خصمهِ بحكم البغضاء التي تولت صدره لا سيما في سبيل يتهيأ لهُ مناصبته وقتالهُ دون خطر ولا حذر. اذ بدا لهُ ذلك الشاب بصفة منكرة يئن تحت عبء جريمة القتل خلافاً لما كان قد تصدى لهُ من قبل فصار يلذ لهُ قهره واتلافه بحد ظبي الشريعة وقبل ان يعتمد على هذا الراي ثارت في نفسهِ عاطفة الحنان وسطع لدى عينيهِ مصباح الهدى فاهتدى لرشده وقال

— أنىّ لي ان اجمع بين الحقد والعدل وانا انسان متجمل بمزايا الانسانية كلاَّ انهُ لا يسوغ لي ان اعمل بنص هواي ونيتي في مرافعة خصمي وعدوي بل يجب ان ارجع في مناصبتهِ الى الحق والعدل لانهُ ليس للقاضي العادل ان يجور على الخصم عملاً بما في نيتهِ بل بما في شريعتهِ وسنتهِ وما انكره على نفسي لا ارضى عنهُ لقريبي فهل كنت ارضى ان يحكم عليَّ القاضي بهواه لو اطعت هواي وغيي فسطوت على البرت أما كان من الواجب ان استقبل الحكومة

منصبي حذر ان ابغي على عدوي تاركًا لآخر الانتقام منهُ حبًا بشرف الانسانية لا لا ان اعتزالي يجحف بكرامتي و يوءذن بضعفي وعجزي عن تجريد نفسي من اهوائها في مقام لا يقتضي ان اعمل فيهِ الاَّ بما تشير اليهِ الشريعة ليس غير نعم نعم انني ارافعهُ فاقضي عليهِ اذا كان جانيًا واصرفهُ اذا تبرأ من اثمهِ فضلاً عن داعي الشريعة الذي يدعوني الى التزام العدل في هذه الدعوى ان شرف كلارا يدعوني ايضًا ان اذود عنهُ ما استطعت للذود سبيلاً فابعد من طهارتها كل وصمة . وقد ارى ايضًا تاباري ونوال يتوقعان مني الفوز بالجاني لما لهما في سقوطهِ من الفوائد الجمة . . .

فعنيب ان وطد دابيرون نفسهُ على القيام حكماً في دعوى خصمهِ البرت رأى ان قد طال بنجواه الزمان فقام يوافيهِ وكانت الساعة نحو الثالثة من نصف الليل

وكان تاباري في تلك الاثناء يتصفح حينًا جريدة وجدها على الطاولة وحينًا آخر يوجه الفكر الى المسئلة التي استغرقت افكاره فيتدبر وجوهها كلها وطريقة اثباتها لدى تحويلها الى مجلس القضاة وبينا هو على هذه الحال دخل عليهِ المستنطق قائلاً

— اسالك العذر يا اخي اذ غادرتك في خلوتك طويلاً

فقام اليهِ تاباري مسلمًا واجاب — لا باس يا مولاي فان الخواطر التي دارت في خلدي ارتني الزمان قصيرًا فآنستني في وحدتي .

ثم تقدم دابيرون وجلس مجلسهُ في الغرفة وقال — ان اعتزالي عنك كان للبحث في هذه القضية الخطيرة

— وانا يا سيدي قد اطلت الفكرة فيها حتى انتهيت الى حد الطريقة الواجب اتخاذها في القاء القبض على الجاني البرت دي كوماربن

— لقد بلغت الحد قبل الاوان

— كلاَّ يا سيدي واملي ان توجه اليهِ الطالب غدًا صباحًا فتامر في جلبهِ

الى دار الحكومة

— أراك يا ناباري تجري في سبيلك جري الساري على هدى لا يخشى معارضاً

— ألم تتضح لديك حقيقة جنايتهِ والاسباب التي حملتهُ عليها . فهل من سواه يتعرض للفتك بالايمة لروج وسلب اوراقها ورسائلها لولا ان لهُ في ذالك أرباً عظيماً . فما كان اشقى نوال لو فاتنا الاهتداء الى الجاني والوقوف على اثره

— مهلاً يا صاح ان في المسئلة نظراً . . .

— هل من مانع يحول دوسا في فصلها

— لا خفاك يا اخي ان الحكم في مثل هذه القضايا لمن الامور التي تستوجب التبصر والتحقيق فلا يسوغ لنا ان نبادر للحكم فيها قبل ان نستكمل معداتها لان البراهين والبينات التي تقدمت بين ايدينا هي دون الاسباب اللازمة لابراز الحكم . فاخاف ان نتهور في حكمنا فيؤآخذنا الجمهور بهِ وينادي بخطائنا علنًا فضلاً عما نكون قد جلبناه لنفسنا من القلق الذي لا يزول مدى العمر

فاستاء ناباري من تمهل المستنطق في تنفيذ طلبهِ وقد كان يود لو بعث بطلب البرث حال تقريره فقال في نفسهِ — اخشى ان يكون قد فعل في نفس دايرون جلاء الفيكونت فاخره عن تنفيذ الاحكام

فاعترضهُ دايرون قائلاً — أرى ان نوجه اليهِ رقعة الحضور للتحقيق عما اتهم بهِ

— يخيب بذلك الامل ويحبط العمل

— لماذا

— لانك يا مولاي تكون قد نبهت الخاطر في تلك الرقعة فيحاذر الجاني المثول لديك فيسعى في التنصل من ورطتهِ بالهزيمة

فقال المستنطق برأسهِ ما افاد اصابة راي الثقاف المتطوع

فاستانف تاباري الخطاب قائلاً – اعلم يا مولاي ان الخصم عزيز المقام شديد المنعة مجرّب مدرّب لا يعجز عن الاخذ بالاسباب التي نقيهِ شر ما يتوعده بهِ العدل ولا بد ان يكون قد نظر مذ الآن في دفع التهم ورد الظنون التي تصوّب اليهِ . فلو اقتصرت على رقعة الحضور لاسعدتهُ بها على النجاة مما وقع فيهِ فانهُ يمثل لديك وعلى يده البينات الساطعة والبراهين الناصعة التي تنفي عنهُ التهمة فيثبت انهُ كان ليلة حدوث الجناية في قصر الامير فلان فطال انسه بمجلسهِ حتى الصباح الى غير ذلك من التفاصيل التي نقضي عليك بعد سماعها ان تقوم اليهِ بحق التعويض عما لحق بهِ من الغضاضة فتلتزم بحضرته العذر الى ان تشيعهُ بالاكرام اللائق حتى الباب

اما انا فلا أرى سبيلاً لاخذه باقراره الاّ مباداهتهُ والاقبال اليهِ فجأة دون انذار او نبأ آه ليتني كنت مستنطقاً فيشهد مني سيدي العجائب

— قل بما كنت تجريه

— كنت يا مولاي اقصد الغاية توًّا دون ان احيد او اتحوّل عن نهجها فاطرح عليهِ الاسئلة الصريحة دون تمويه فابيّن لهُ صحة اعتقادي بوقوع الجناية منهُ فابدأه بالخطاب قبل ان يبدر منهُ كلمة واحدة فاعطل البينة التي يزعم تقديمها مؤيداً بها صحة وجوده تلك الليلة في الساعة التي حدثت فيها الجناية عند اصحابهِ معترضاً عليهِ بامكان توقيف الساعات حسب المراد وابطال شهادة اولئك الاصدقاء بقولي لهُ – عند الساعة الثامنة كنت سارياً في الحجاب الى ان ركبت عند الثامنة ونصف القطار في محلة سان لازار فبلغت موقف (رويل) عند التاسعة ومنهُ نزعت الى لاجونشار فطرقت عند التاسعة وربع شباك منزل الأيمة لروج فدخلت الدار وطلبت اليها ان ترصد الطعام وتقدم الشراب فما أذنت الساعة بالتاسعة ونصف حتى فتكت بتلك الأيمة فقلبت كل ما وجدت في منزلها من الاثاث فاحرقت الرسائل والصكوك وقمت تجمع في منديل ما لقيت من الثمين عندها لتوهم انك لص ثم انصرفت

بعد ان اقفلت الباب جيداً ولما بلغت (السان) القيت فيهِ المنديل وسرت تقصد موقف القطار رجلاً وعند الحادية عشرة سكن باللك وزال بلباللك

فعلت ذلك ولم تدرِ ان لك من زمانك خصمين حاذقين لا يلويان عن قصدهما قبل ان يدركاه وهما الثقاف (تر بكولير) والصدفة . ثم انك ارتكبت في ما ركبت من الشطط ما لا يغتفر وهو انك احتذيت تلك الليلة بنعلٍ رقيق وسترت كفيك بكفوف لونها اغم وارتبكت بقبعتك وظللتك . فبح بالحق ولا تمارِ فاسمح لك ان تدخن في السجن بالتبغ الخاص الذي الفتَ التدخين بهِ

ذلك ما اقصهُ عليهِ وليس غير وما اخالهُ يتمالك عن الاقرار بذنبهِ للحال منطرحاً لديَّ يرجو السماح والصفح عن زلتهِ

فاعترضهُ دابيرون وقال - واذا ابى الاقرار فاصرَّ على الانكار

— لكل مجال مقال

فاطرق دابيرون عندئذٍ برهة ثم اخذ القلم وقال

— اني اليك بما رايت في القبض على البرت دي كومارين لكنني لا ارى بدًّا من الاستقراء والبحث فاسال الاب والمحامي نوال جردي عما يعلمون من امر الحادث قبل ان انصدى لسوال المتهم . وفي الرسائل التي ذكرتها لي عظيم فائدة فمن المقتضي ان احرزها عندي

فاكمد وجه تاباري عند ذكر المحامي وخفق قلبهُ فقال — لقد صرت يا مولاي الى ما كنت اخشاه

— وما الداعي الى الخوف

— اذا علم يا مولاي نوال باشهار رسائلهِ وجه لا شك ظنهُ اليَّ فاوقع بي الوشاية ورماني بالغيبة فحذَّر كل اصدقائي مني فاضطر اخيرًا ان ازايل منزلي واهجر البلد

وكان خوف تاباري شديدًا الى ان اذرفت عيناه الدمع فاوى المستنطق

اليهِ وقال

— لا تخف بأساً فانني اطالبهُ بالرسائل عن اسباب تنفي عنك التهمة فابين لهُ الطريق الذي ادى بي اليها وهو انني اطلعت على اوراق كانت لدى الايمة تشير الى الرسائل التي احرزها عنده

فسري عن تاباري شيئاً وقال — انني لا استطيع بيان شكري عن جميلك فاعتمد يا مولاي على صدقي في كل مهمة تعهد بقضائها اليَّ واسرُّ ان اشهد الاستقراء بنفسي

— كان في نيتي ان ادعوك يوم اجرائهِ

وما زالا في خطاب وجواب الى ان جرّد الفجر حسامه فطارد الليل وظلامه فقال عندئذٍ المستنطق — يترتب عليَّ قبل اخذ الاهبة للخوض في هذه الدعوى ان اكاشف مدعي عمومي المملكة فانصرف من عنده الى دار الحكومة فادخلها قبل الساعة الثامنة فاود ان اجتمع بك فيها

فقال تاباري برأسهِ شاكراً فضل المستنطق وما كاد يتم التحية حتى اقبل غلام دابيرون وقال مخاطباً مولاه

— جاءك يا سيدي شرطي بوجيفال بهذه الرسالة وهو ما زال بانتظار الجواب في الدار

فاخذ المستنطق الرسالة وقال للخادم — احسن استقبال الشرطي واكرامهُ ثم فض الرسالة وقرأ ما ياتي عن الزعيم جفرول

« مولاي

» ان حسن الجد قد هداني الى اثر الرجل المشنف الآذان فوقفت على

» حالهِ في حانة دخلها صباح الاحد بعد مزايلتهِ منزل الأَيمة لروج . فطلب

» الى صاحب الحانة خمراً ونقده الثمن ثم فطن الى عيد مركبةٍ فاستزاده خمراً

» من اجل الاحتفال في ذلك العيد فعمدت الى التقويم لاتحقق اسم المركب

» فاذا هو يدعى (سان مارين) وعلمت ايضاً انهُ كان مشحوناً حنطة فبادرت

» للحال الى مراسلتكم بهذا الشان ليصير التحقيق عن امره في باريس وروين
» وما اخالكم تضلون السبيل »

فعقيب ان فرغ المستنطق من قراءة الكتاب ضحك تاباري وقال

— ما كان ابطأ جفرول في سعيهِ ايشهر الآن سيفهُ للقتال وقد كتب لنا النصر فيهِ وانحسم الجدال . فآمل يا مولاي ان تكتب اليهِ في العدول عن ابحاثهِ

— كلاَّ دعهُ يجد في بحثهِ لعلهُ يعثر على ما فاتنا من الاسباب التي لاتخلو من فائدة يحسن الوقوف عليها

الفصل الثامن

عود الكونت

انهُ في اليوم الذي ذاع خبر جناية لاجونشار وفي الساعة التي دخل تاباري منزل الارملة لروج باحثًا عن آثار المعتدي كان الفيكونت البرت دي كومارين قد ركب العربة قاصدًا موقف السكة الشمالية للقاء والده . ان مكاشفة نوال (المحامي) الفيكونت في منزلهِ كانت قد فعلت في نفسهِ حتى انهكت جسمهُ واحرمتهُ الراحة فهجر المنام وانكر الطعام فدرى بهِ (لوبان) الغلام فتعجب من تحوُّل حالهِ واشتداد هزالهِ فسالهُ ان يعدل عن الذهاب الى لقاء ابيهِ حرصًا على راحتهِ فابى الفيكونت الاَّ الامتثال لاوامر الكونت لانهُ كان

قد اعلن لهُ وصولهُ في رسالة برقية انفذها اليهِ منذ يومين

فما انتهى الى ردهة الموقف حتى بلغهُ القطار فترجل الركاب وفي جملتهم الكونت والى جانبهِ غلام يحمل متاع السفر

كان الكونت دي كومارين صحيح البنية قوي العضلات معتدل القامة يوهم رائيه بحسن هيئتهِ الوداعة والبشاشة على انهُ كان اشد الناس حرصًا على التيه والخيلاء وكان يشبههُ في ذلك المركيزة دارلانج التي مرَّ بنا وصفها غير ان الكونت كان يكتم في صدرهِ الازراء بمن كان دونهُ في المقام او قصر عن اكتساب الجلاء خلافًا للمركيزة التي كانت تزدهي الناس جهرًا لا يصدها من نفسها عن احتقارهم والوضع من شأنهم زاجر ادبي

فلما ابصر الفيكونت البرت والده مقبلاً مشى امامهُ حتى استلم يده فتعانقا معانقة لم تتجاوز حد الرسوم المالوفة عند اصحاب الجلاء فتبادلا استعلام الحال بعد التحية فلاح للكونت هزال البرت ونحول بدنهِ فسالهُ قائلاً

— مالي اراك ناحلاً ضئيلاً هل اصابتك علة اثناء تغيبي

فاجابهُ الفيكونت بايجاز — كلاَّ يا سيدي

فلم يصدق الكونت الجواب واظهر التعجب والحيرة فصرف النظر وقتئذٍ عن الخوض في هذه المسئلة الى الحديث مع غلامهِ مشيرًا اليهِ في انفاذ بعض الاوامر التي كان قد القاها لديهِ قبلاً ثم قال لالبرت — هيا بنا نقصد المنزل على عجل لانني شديد الحاجة الى الراحة والطعام

وكان الكونت حزينًا في عودتهِ الى باريس بالخيبة مما كان يرجوه في رحلتهِ الى النمسا ومما زاد كدره انهُ نزل في طريقهِ دار احد اصدقائهِ فادى بهِ الجدال معهُ الى الخصام ففصل عنهُ دون سلام . فما كاد يستوي في العربة مع البرت حتى عاود الحديث في بيان الخصام الذي حصل فقال لابنهِ .

— ان جدالي مع الدوق دي سيرموز أدى بنا الى النفور فهجرتهُ عن قلى

— فلما اتفقتما بالرأي فتباعدتما مرارًا ثم سكنتما الى الصلح والسلام

— لا لا انني قاطعتهُ بتاتاً فانكرت اعتباره منذ علمت بما نزع اليهِ اخيرًا فانهُ يسعى في بيع قصره ودساكره ليمتري بثمنها اسهمًا بغية ان يزيد في ربى مالهِ

— وهل في ذلك ما يوجب القطيعة

— نعم ولا ادعى من ذلك السبب اليها

— لا خفاك يا سيدي ان عيال الدوق تقتضي زيادة النفقة فلا يرى بدًّا اذن من توفير موارد المال للقيام باودها

— كان من الواجب ان ينظر في الاقتصاد فينقطع في منزله قانعًا بما تنتج لهُ املاكهُ ويعني في تثقيف بكره وتهذيبهِ وقد صرّحت برأيي للدوق فاطلعتهُ على الحقيقة جليًا دون رياء وافهمتهُ ان صاحب الجلاء يقتضي ان يكون حريصًا على الارزاق التي تصل اليهِ من ابائهِ وفي بيعها ازراء بحقوق الشرف بل يعتبر خيانة في اعين ذويهِ

— لقد بالغت يا ابي في مؤاخذة الدوق

— لا تكبر قولي بخيانة الدوق وعندي ما يؤيده فاعلم ان النفوذ انما قائم بالمال وذخيرة المال الارض وقد اتاك رجال الثورة البرهان في ما ابدوه عام ٩٣ سعيًا في خفض شان النبلاء فاول ما عمدوا اليه محو آثارهم ففات النبلاء قصد المتحاملين عليهم فنبه احد الوزراء خاطر الشعب الى الادّخار فما تنبهوا ورأوا الغنى في ادّخار الاموال في صناديقهم حتى تغلب عليهم الاكّار باحتكار الارض فكان مالهُ وطيد الاساس صحيح المورد ثابته . وما كان اجدر بالنبلاء ان يتشبهوا في ذلك الاكّار فيسعوا في استرجاع ما فقدوه باحياء الزراعة لا التجارة . فبدل ان يسرف مالهُ في المحافظة على ترفهِ وترهلهِ دون مورد يرجى منهُ العوض كان من اللائق بهِ ان ينقطع في قصره فيقتصر على رعاية رزقهِ متوفرًا على العمل فيهِ مقتصدًا جهده في نفقتهِ يبتاع من الارض ما يتهيأ لهُ ابتياعه شيئًا فشيئًا الى ان يعاود مقامهُ ويعتلي من المجد سنامهُ

ولا يند عنك يا البرت ما في احراز الارض من الغنى وحسبي بما انا عليهِ

شاهداً يوكد لك صحة ما اتيتك بهِ فان الارض التي ورثتها عن ابي في بلانلافيل لم تكن تتعدى قيمتها المئات فاصلحتها واستنفدت الوسع في غرسها الى ان غدت منباتًا تتجاوز قيمتها الالوف . فما اضلَّ سعي النبلاء اذا استمروا على الخطة التي ينهجون وكلما اسمعهم يئنون ويشكون قلة المورد اهزُّ منكبي استخفافًا مصرحًا لهم بما يتوعدهم بهِ الدهر من الفاقة لجهلهم تدبير شوونهم ولا يبعد ان ترى الاكّار متغلبًا بجهده على مجد اولئك النبلاء المتقاعدين فيزجهم وراءه ساخرًا منهم مزريًا بجلائهم

ولما انتهى من كلامهِ الى هذا الحد كانت العربة قد دخلت فناء القصر فوقفت عند الدرج فترجل الكونت اولاً ثم تلاه الفيكونت يتخطيان الى باب الدار وهناك هرع الحشم والخدم على اختلاف درجاتهم الى استقبال مولاهم بكل احتفاء واكرام فجاز بينهم مسرورًا الى غرفتهِ حيث بدل ثيابهُ وفي تالك الاثناء وفد عليهِ القيّم يدعوه الى المائدة فانصرف الكونت للحال اليها فدخلها مع الفيكونت الذي لقيهُ عند الباب فجلسا على الطعام حتى اذا انتهيا اخذ الكونت باطراف الحديث فبنى كلامهُ على موضوع كتاب كان قد تلقاه عند عودتهِ فقال

— ما كدت اطأ فناء القصر حتى وفد عليَّ الرسول بكتاب من بروافرلي يبين لي فيهِ مساوىء ذويهِ وتقلبهم في السياسة تارة ينحازون الى هذا وآونة يشايعون ذاك شأن من لا يجد من نفسهِ عضدًا يستند اليهِ او يركن في امره عليهِ فينزع حائرًا الى من يستردفهُ واذا عزَّ عليهِ لقاء من يشد ازره ركن الى اهل الدير واعتصم بحبلهم ولكن اين مصلحتهُ من مصلحتهم وقد شهدنا مرأى العين تخلفهم عنا حين الشدة وامتناعهم في انانيتهم امتناعهم في الصوامع . تتلفنا الايام فتغنيهم ولا تكفنا نا سريع الزوال بل يتمتعون بهِ طويلاً اذ لا سنَّة تقضي عليهم بما تقضي علينا فلا وريث ينازعهم ولا شريك يقاسمهم وباعتزالهم صابرين احرزوا من المال ما يغشي التلال

— لئن ساءك يا ابي نهجهم فحد عنهم واهجر سبيلهم

— أتراني افتح ألا تعلم بما يتخذونهُ من الذرائع لاسترجاعي اذا آنسوا مني انكار انحرافهم والتجافي عنهم كلاّ انهُ لا يسعني ان البث مصرّا على عزمي حذر القلق والاضطراب في داري فاعاود الاستمساك بعراهم حيلة لمصلحتهم فان يرغب نبلاء باريس في اصلاح ما اختلّ من شؤونهم وصرف البلاء عنهم فعليهم باحياء سنة البكورية

— ذلك امرٌ بعيد المنال

— اتكون في جملة المعترضين على صحتهِ

ان البرت ادرك سر هذا الخطاب فامسك عن الجواب فاستانف الكونت كلامهُ قائلاً

— ما ضرّ اصحاب الجلاء من ذكور واناث لو اجمعوا على تخلية اموالهم لبكرهم مدة خمسة اجيال فيرتضي كل منهم عنها بشيء من الريع يصيبهُ مسانهة كفاء نفقته اليس في ذلك سبب لوقاية مال الاسرة وزيادته

— اين نحن اليوم من عهد الاخلاص والمصافاة

— صدقت وانا على يقين من انصرامهِ وشاهدي فيك . كم من مرة دعوتك الى هجر حب حفيدة المركيزة دارلانج ولم تعبأ بدعوتي ولم تصدق اخلاصي حتى قضيت عليّ بعد ثلاث سنوات ان انقاد اليك طائعًا

فحاول الفيكونت الاعتراض فصده والده قائلاً — ما لنا الآن والعود الى الخوض في مسئلة حكمت لك فيها اضطرارا فاقصر الجدال ولكن اعلم يا البرت انك ستكون علة لتقويض اركان بيتنا فلا يمضي على اولادك وحفدتك نصف جيل الاّ ويندثر مالك فيصير كلهم الى الفاقة والعوز

— اراك يا ابي تصرف الامور تصريفًا يعود بها الى السر

— اذا كنت لا تتدبر الامر قبل وقوعهِ فما انت بحكيم ومن اطال الفكرة في تدبير العمل أَمِنَ الفشل فان السعادة التي نتمناها هي عين الشقاء لان

النبيل جلّ ما يصرف الهمة اليهِ صيانة شهرته وما من شيءٍ يصونها غير ما ذكرت فان الفتاة التي تعشقتها لا تملك شروى نقير على انني كنت قد انتخبت لك من تنال منها مالاً جزيلاً فانكرت الراي وصدفت عنها

— لا استطيع حبها

— أنيّ تجافي من كانت تاتيك بمبلغ اربعة ملايين في مجولها فوق ما تعطيه ملوك الزمان لمخدراتهنّ مهرًا فضلاً عن الاماني والآمال . . . .

ان الكلام في هذا الموضوع غزير المورد غير ان الفيكونت قضى عليهِ بالايجاز في امساكهِ عن المجاولة فيهِ فاستاء الكونت جدًا من سكوتهِ في معرض البيان واعد ذلك منهُ عنادًا فرماه بالفاظ دفعت الابن للجواب فثارت في الاب حدة الخطاب فقال

— مالي اراك ضعيف الراي في المناظرة غائب الذهن دون ابن القيّم ذكاء كأنك خلقت اميًا لا ابن جلاء

لا ينكر ان الغي يدرك الانسان احيانًا في المناظرة او المحاضرة فلا يحضره الجواب في المعنى المرغوب فيعتصم بالصبر مامورًا . ففي اثناء تلك المكاشفة كان الفيكونت يتقلى من همهِ وكدره على مثل الجمر الى ان نفد صبره فقال

— لئن كنت قد حاكيت العامة بذكائي فلا عجب وقد وضح السبب

فلما سمع الكونت هذا الجواب الصريح بدل تلك الحدة بالسكينة فسالهُ متئدًا

— ما المراد بهذا الكلام

ان البرت كان قد فطن لبعد مرمى الفاظهِ فاخذ على نفسهِ ارسالها ولكن لات حين اصلاح فاستانف كلامهُ قائلاً

— سيدي ان لي حديثًا اريد ان اطلعك عليهِ وموضوعه شرفي بل شرفك وشرف آلك . وقد كان قصدي اغفالهُ الى الغد حذر ازعاجك ليلة عودتك ولكن اذا شئت كشفتهُ لك للحال . وتيقن يا مولاي انني

لا اعود باللائمة عليك في ما نالني لما وفرت لديَّ من الغبطة والسعادة . . .

ان الكونت تظاهر بجهل ما يريد الفيكونت في كلامهِ او عرف بهِ تماماً فطلب اليهِ التصريح قائلاً — دعِ التمهيد واقصد المراد

· فوجم البرت برهة يلتمس الوجه الذي يتجههُ في جوابهِ ثم قال

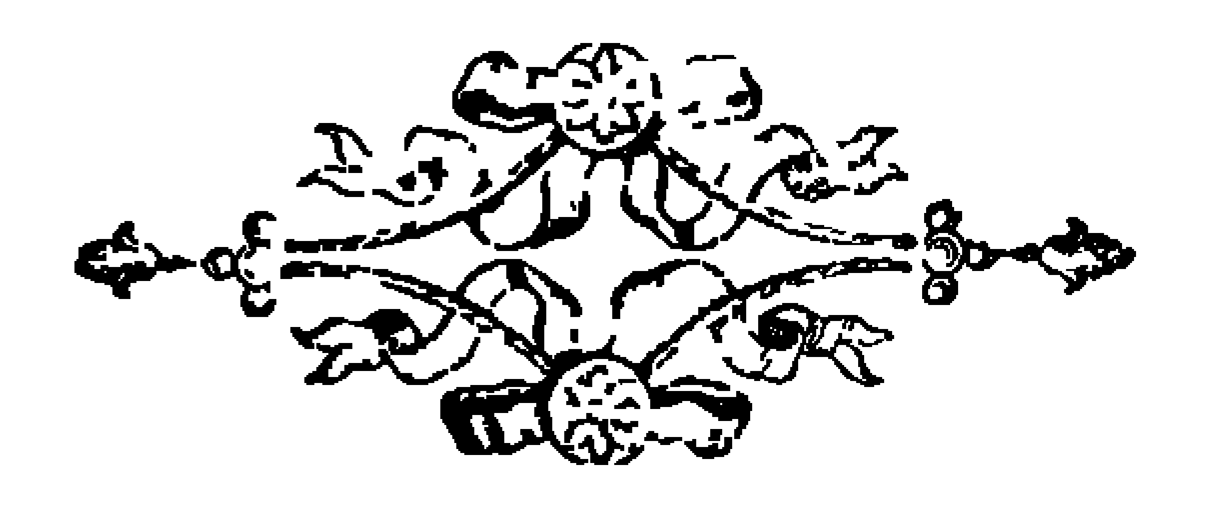
— مولاي انني تصفحت اثناء تغيبك الرسائل التي كنت انفذتها الى مدام جردي

فما كاد الكونت يس . .كر الرسائل حتى نزا نز و من لسعتهُ افعى فصاح بصوت عنيف — اقصر المقال فلا تزدني منهُ حرفاً

ثم عاود الوقار فاستانف الخطاب قائلاً — صدق من قال بحديث القلب فقد قرأت على وجهك ساعة اللقاء شيئاً مما تريد الآن بيانه فعرفت انك دريت بتلك القصة

وامسك كلاهما عن الحديث برهة الى ان سمع الكونت حركة في جيرة الغرفة فدنا من الفيكونت وقال لهُ — اصبت يا البرت في القول بواجب الاحتراز حرصاً على شهرتنا فمن المقتضي ان ناخذ بنهج قاصد بقينا شرّ الغوائل فاتبعني الى مخدعي

ثم اطنّ الجرس يدعو الغلام فاشار اليهِ ان يكتم وجودها كل زائر



الفصل التاسع

دخول الثقاف دار الكونت

ان اعتلان سر الكونت ثار في نفسهِ ثائرة الغضب قبل العجب لانهُ كان يخشى جلاء الحقيقة منذ اربعة وعشرين عاماً فيتوقع اذاعة السر الذي تجاوز الاثنين لا سيما في بطون الاوراق

ولسائلٍ يسأل . كيف ان الكونت المدرب في السياسة الخبير في احوالها حليف الحذر والوقاية اضرب اثناء تلك المدة الطويلة عن تعطيل رسائلهِ الغرامية التي تؤْخذ عليهِ حجة عند خصمهِ

فالجواب على ذلك يناط بمن غشى العشق على بصره فاعماه واصمَّ آذانهُ فاصماه . ومن المعلوم ان اخا الهوى اذا تملكت الشهوة من قلبهِ أعمت البصيرة فراح الهائم يهيم لاهياً بحاضره عن مستقبله . فمن من الرجال اذا نزل فواده الهوى فمال بهِ الى حب امرأة فكلف بهـا الى حد التلف يفطن الى الحذر او ملافاة الخطر

قل لمن يستميتُ في حب هندٍ ناشراً قالهُ لديهـا وقيلَه

سوف تلقى بما أبحت وبالاً كم لشمشون في الهوى من دليله

فالكونت دي كومارين كان لا يتجرأُ على طلب تلك الرسائل اثناء اعتلافهِ بفالري بل كان كلما خطر لهُ طلبها زجرتهُ نفسهُ خيفة ان يغضب خليلتهُ ووطدتهُ على الاعتقاد بحسن امانتها قائلاً ان السبب الذي يدفعني الى استرجاع

تلك الاوراق يدفع ايضًا فالري للمحافظة عليها وكتمها لانها هي العامل في شرّ الغواية فضلاً عن ذلك ان والدها كان لهُ في ما جرى جزيل فائدة

وعقيب ان مرّ بحبها نحو ثمان سنوات اعترضت دونها الخيانة فنزع الكونت الى القطيعة وسعى في استرجاع ما فرط منهُ خطأً . ولكن لات حين مناص . فان الذرائع التي دبرها كانت مختلة لا تفيده نيل الارب . لا سيما انهُ كان قد آلى على نفسهِ الانحجاب عنها الى حين يتمكن من استئصال جراثيم ذلك الحب الراسخ في قلبهِ . فتوالت عليهِ الاشهر والاعوام وهو في حيرة لا يهتدي منها الى صوابهِ . حتى رأى اخيرًا ان لا سبيل الى الوصول اليها دون ان يعرّض نفسهُ الى خصام عنيف ولا غروَ فانهُ لو تقدم الى خليلتهِ بعد طول المدة بطلب الرسائل لحاذرت منهُ فامسكتها عنهُ حجة عليهِ . بل ربما كانت قد عطلتها علمًا منها بما انطوت عليهِ من الاخطار التي تتهدد مصلحتها ومصلحة ولدها

ولما رأى الكونت اخيرًا من نفسهِ العجز عن ادراك سوءلهِ هجر السعي وركن الى الدهر في نجاتهِ من شر سره . فقضى الكونت نحوًا من عشرين سنة بالقلق والانزعاج لم يمرّ بهِ يوم الاّ وكان يحاذر فيهِ الوقوع في حبائلهِ . الى ان انت الساعة بالهول الذي كان يخشاه فاخذ يضرب الراي في نفسهِ علهُ يجد حيلة يدفع بها عنهُ الشر فلم يتهيأ لهُ سبيلها

وكان البرت ملتزمًا في وقوفهِ لدى ابيهِ كل احترام الى ان جلس الكونت مجلسهُ وقد حاول التمويه على ابصار مسبعهِ بالتجلد والسكينة لكن عينيهِ ابتا الاّ اذاعة سره ولما استوى على كرسيهِ افتتح الخطاب بهذا الكلام قائلاً

— هات يا البرت ما عندك مفصلاً ولا يكدرك وقوفي لديك موقف الذليل فما اقمت عندي الاّ لتدري بما انا عليهِ فتر ثي لحالي . ايه بلا غي ولا تمويه فمن انبأك بتلك الرسائل

ففي اثناء مناجاة الاب نفسهُ كان البرت قد اختلى بها ايضًا فهجس في

الوجه الذي يجهلهُ في كشف عليهِ لابيهِ ورتب اوضاع كلامهِ على طريقة تبلغ بهِ على انجازها المراد فقال

— صباح الاحد الماضي جاء رجل الى القصر يطلب مكاشفتي في امر خطير عهد بهِ اليهِ فاذنت لهُ بالدخول وجلّ ما تعمد في مهمتهِ وما تكلفهُ في خطتهِ انكار نسبي اليك وبيان اقامتي عندك بدل ابنك الشرعي تحت ستار الحب

— ألم ترسلهُ ينقلب من حيث أتى عجلاً

— مولاي كان من نيتي ابعاده لولا انهُ اراني رسائل شتى فالتمس مني تصفحها قبل الجواب

— كان من الواجب ان تزجها في النار فتخلص من شرها

— أنّى لي ذلك وقد حال دون احراقها حرمة كاتبها فلما تحققت خطك اخذت الرسائل فتصفحتها بكل امعان

— فما كان منك بعدئذٍ

— سالت الرجل ان يمهلني ثمانية الى يوم الفاك فاشافهك في الامر ولذلك تقدمت بين يديك استجلي الحقيقة

— ان ما قراتهُ كان الحقيقة بلا تمويه

وكان البرت يتوقع هذا الجواب من ابيهِ لكن الانسان اذا انذر بنكبة تتهدده لا يلبث ان يتحقق امرها مرارًا فوجم برهة ثم قال

— ان الرسائل التي قراتها لم توكد لي ما توهمت بهِ وما اودعتها من الخواطر والاراء والرغائب لا يفيد الحقيقة

اما الكونت فلم يكن ليغفل شيئًا مما رقمهُ على صفحات تلك الاوراق التي كانت تتمثل لديهِ بكل وضوح وقد تذكر ما كان يكتبهُ اليها في كل رسالة شاكرًا من حسن خضوعها لاشارتهِ مسرورًا بنجاح حيلتهِ . فرد كلام الفيكونت قائلاً

— انك لم تتصفح جمام تلك الرسائل ولذلك ارى انهُ قد فاتك منها امور خطيرة

— لم اذهل عن واحدة منها وقد اطلعت حتى على آخر كتاب انفذتهُ الى مدام جردي تعلن لها فيهِ وصول كلودين لروج الربيبة بما كنت قد كلفتها اليهِ تحقيقًا لامانيك في تبديل الطفلين

فقال الكونت في نفسهِ — ربما لم يبق من الرسائل غير ما ذكر فلمَ الحّ اذن في تحقيق اوهامهِ وارشدهُ طريقًا يهتدي بهِ الى ملاذي . كان من الواجب ان اصرف النظر عن الجدال معهُ في هذا الشان ويلاه ترى ما حلَّ بهذه الشقية ربما انصرم حبل اجلها فقطع باملها

فعند ذكر موتها خفق فواد الكونت حزنًا عليها فتذكر انسهُ بمجالستها ايام الصبا وعرف جميلها عنده بما ورت لديهِ من دواعي البسطة والسرور فاغفل ما جنتهُ لديهِ وانكر ما ساءت بهِ اليهِ . وكان قلبهُ طافحًا بذكر محاسنها كاناء وعى ندًّا فيشملهُ الشذا الى ان يتلف . فردد في نفسهِ الاسف ولاح على جبينهِ اثر الحسرة واللهف

فتعجب الفيكونت مما رآه من الابدال في هيئة والده وحار لانهُ لم يبد لديهِ ابوه منذ اقام عنده على الحال التي رآه عليها في تلك الآونة . لكن الكونت لم يمتع فواده بلذة الحنان طويلاً فعاد الى ما تعود وقال

— لم تنبئني يا البرت بصاحب ذلك الرسول

— ان الرجل كان قد ادعى قبلاً انهُ رسول ولما مثل امامي خاطبني بالاصالة عن نفسهِ ولعلهُ ابنك الذي اغتصبت حقوقهُ واسمهُ نوال جردي

— لقد صدق الرجل فان اسمهُ نوال ألم يأتِ في حديثهِ على ذكر امهِ او بالحري امك

— انهُ المع اليها الماعًا خفيًا بقولهِ انهُ جاءني على غير علم منها وان ما اتصل بهِ من الاسرار كان بطريقة غير مطروقة

فاكتفى الكونت بما وعاه من العلم بسابق حالهِ ونتيجتهِ فاد نى البرت منهُ وقال لهُ

— قد ترتب علينا الآن يا ولدي ان نقرن الجهد بالعزيمة لندفع عنا غارة البلاء فاكشف لي نفسك وصرح لي بما ارتأيت في هذا الشان تصريح الابن لابيهِ هلاّ دبرت حيلة للنجاة ..

— لا ارى في سبيل النجاة الاّ وجهًا واحدًا يجب عليّ ان آخذ بهِ دون امهال

— وما عساه ان يكون

— مولاي من الواجب الحق ان انفصل عن هذا القصر فاعتزل المقام الذي رقيتهُ غير آسف وان ارد لابنك الحقيقي ما سلبهُ دون حق الحب والمال والشهرة

فغضب الاب عند سماع حديث الفيكونت الصوابي فنهض من موضعهِ وقال

— انني لا اصدق اجراء ما نويت فلا اقبل بانفصالك عني واعتزالك المقام الذي رقيتهُ ما طال عمري لان ما اجريتهُ كان مني عن رضى ولي بهِ كل مسرة

— لكن يا مولاي . . .

— لا تقاطعني الكلام واعلم انني قد ادركت اعتراضك قبل ان يجلى فلا شك انك تريد ان تنعي عليّ اغتصابي حقوق ولدي وحرمانهِ من النعمة التي انمتع بها فذلك خطأ عرفتهُ منذ عشرين عامًا فبكيتهُ ولم ازل ابكيه حتى الآن . فاقصر الجدال ولا تتعرض للترحال

وفي تلك الاثناء لاح للكونت على جبين البرت شارة تفيد الاعتراض على كلامهِ فبادر للحال الى تلافيها وقال

— أتخالني لا اشكو من بعد ولدي ومناجزتهِ الدهر بشدتهِ ام تراني

لاهياً عن طريق التعويض لما بدر مني . آه يتأتى لي احياناً ان ادفع نصف ما ملكت يدي دون مصالحة ابن من لم اقدر حق قدرها الاّ بعد وفاتها ولم يصدني عن تنفيذ اربي سوى حرصي على شرفك بل على شرفي في اظهار الحقيقة لانني قد صرت ضحية شهرة كومارين التي ورثتها عن آبائي فاخلفها لك ولاولادك خالية من كل وصمة بعيدة من كل شين . فاياك الاذعان لما تامرك بهِ نفسك وان كان صواباً واعلم ان في اذاعة سرنا يشتفي العدو المحدق بنا . وكأيّن من السراة الذين دنسوا جلاءهم بشهرة فعلاتهم فماتوا كما عاشوا حلفاء الذل والخسة فمعاذ الله ان اركب في حياتي هذا المركب الخشن

وهنا امسك كومارين عن الكلام والبرت لديهِ صامت لا يتجرا ان يتصدى للاعتراض احترام هيبة الكونت الذي تعود منذ صغره ان يطرق ازاءه . الى ان استانف الشيخ الحديث فقال

— باطلاً تحاول اصلاح الماضي دون ان تتعرض للخطر فهل يسعني ان انكرك ام افصلك عن داري سرّاً دون علم الناس كلهم . كلاً . فان الاسم الذي تحليت بهِ يقضي عليّ ان احرص عليك الى آخر ايامي . ولا خفاك يا البرت ان من كان في مقامنا لا يسعهُ ملافاة مساوئهُ عنوّاً بل لزمهُ كتمانها حتى القبر . فعليك ان تاتي منذ الان بما يؤيد شهرتك ومكانتك بين اقرانك وذويك وتهيأً لمصادمة البلاء وصرف العناء

ولما فرغ الكونت من حديثهِ سال البرت الجواب قائلاً لهُ — ما رأيت ايها الفيكونت

— اراك بعيداً من صد الاخطار التي اخشى اشتدادها ومع ذلك لا يمكنني ان انتقش من صدري شاك الضمير

فسخر الكونت من حديثهِ معترضاً بقولهِ — لقد ابطات يا البرت في ادراك الخطر وفات ضميرك الفرصة اللائقة بانذارك . فما بالك تنكر الآن القيام عندي وقد كنت من قبل راضياً بمالي وشهرتي . فلا يسوءك ما تتكلفهُ في

الامتزاج معي ومن المعلوم ان مساوىء الاب تلحق بالابن فعليهِ انت ندّي ومن الواجب ان نقتسم هول الحال التي اوصلتك اليها وما تعانيه اليوم دون ما قاسيتهُ منذ اعوام

— ان حديثك لا يوجه اليَّ بل لمن اغتصبت حقوقهُ أتخالهُ يضرب عما لديهِ من البينات عليك ام تحسبهُ غرًا فتعصب على عينيهِ بما تاتيهِ من الكلام على اختلاف مبانيهِ ومعانيه

— انني لا اخشاه

— كيف لا وقد اوغرت صدره بسيرتك معهُ حقدًا عليك فلا يرى بدًّا من الاخذ بحقهِ منك . ولو ازرى بمالك وجلالك

— لا بيّنة لديهِ

— حسبهُ بما سطرت حجة دامغة

— ما كتبتهُ لم يتجاوز حد الراي كما رأيت

— مع ذلك انك اذعنت لما طويت عليهِ على رغم عنادي ولا يبعد ان يتخذ شهودًا التايبد مدعاه

— ومن هم الشهود أ تكون في جملتهم

— لمَ لا تذكر نفسك . واراك في هذه الدعوى اصدق الشاهدين . فلو اوتي ان يدعوك الى المرافعة فمثلت بحضرة الحاكم فاوجب عليك اليمين فبمَ تجيب

فاربد جبين الكونت عند هذا السوال وتعارضت في نفسهِ الخواطر فآثر صيانة جلالهِ فقال

— اسعى جهدي في صيانة شرف اباتي

فهزّ البرت راسهُ مرتابًا وقال — هب انك تحنث في اليمين ضنًا بشرفك فيستنجد مدام جردي عليك

— ان مصلحتها تقضي عليها بالتزام خطتنا وما اراها تخلف بعهدها واذا

دعت الحال الى اخذ الاهبة للدفاع قصدتها بنفسي وحدثتها بالخطر الذي يتهددها وينظرنا معًا فتحالفنا ولا تخالفنا

— واذا حالفتك مدام جردي ناوئتك كلودين

— بالمال اجلبها

— أتامن شر من تغريهِ بالمال على كتم سرك . ألا تعلم ان من باعك ضميره ربما كان عليهِ دَينًا . فكما تفحمهُ بدينار انطقهُ غيرك بدينارين

— اذا ابت الكتمان توعدتها بالتلف

— أذهلتَ يا ابي عن حب كلودين لمدام جردي ونقربها منها بحق الرضاع وربما هي التي اودعتها رسائلك فجعلتها سلاحًا في يدها لحين الكفاح

— آه ليتها كانت فدا الامين جرمان

— اما رأيت يا ابي كل الخطر في حياة شهودك

— كلاَّ ولا بد ان آتي بحيلة ادفع بها عن نفسي . . .

ان الكونت كان قد تعامى بعناده عن نور الحقيقة الساطع لديهِ فاصرَّ يدافع دفاع الهائم في بيداء لا نفاذ لها تدفعـهُ الخيلاء وعزة الجلاء الى هجر رشده وهداه ونابيد زعمهِ على هواه يابى الاقرار بذنبهِ والتصريح بجريمتهِ كامير لم يرَ من زمانهِ نكدًا بل عاش عمره رغدًا . وما مثلهُ الاَّ مثل من يتوهم من نفسهِ القوة قبل اختبارها فيحدثها بنقل اعظم الاثقال وانتساف الجبال

وكان من مساوىء الكونت انهُ كان يتاكد وقوع ما يتوهمهُ والفوز بما يدعيه كأن لهُ ان يفعل ما يريد ايان كان ومتى شاء .

وبينا كان يناجي نفسهُ بسره استانف البرت الخطاب فقال — تبيَّن لي يا سيدي من حديثك حرصك على كتمان امرك وان باذاعتهِ كل شر . وما ارى مثل المعارضة موردًا للاراجيف والتقوُّلات فاذا طلبت الى المرافعة ذاع خبر الدعوى في اطراف اوروبا فضرب بها طبل الصحف فذيلتها وعلقت عليها ما تهوى فيطير اسمنا في البلاد ويصبح مضغة في افواه الناس وهنالك

— يستدل من كلامك رضاك عن امتهاني واذلالي

— ارى من الواجب يا مولاي ان ابيّن لك مواقع الحذر قبل دنو الخطر فارجع لنوال جردي ابنك الحقيقي ما سلبتهُ واصلح سرًّا ما رسخ في سجلات الحكومة واعزُ الخطأ والخلل في ذالك الى الظئر كلودين لروج ومتى اتفق الطرفان انتفى الخصام وانحسم الجدال . فعندئذٍ يكون لي مطلق الحرية ان انصرف من باريس فاتجوّل في البلاد الى ان يتناسى الناس المسئلة ويضرب الزمان على آثارها

كان الكونت في شاغلٍ من هواجسهِ عن حديث البرت الى ان اتجه لهُ في المسئلة وجه فقال

— بدل ان نصرف النظر الى الخصام والنزاع فلنعدل الى تسوية الخلاف حبيًا فابتاع منهُ الرسائل بما يطلبهُ من المال والجاه ثمنًا يكفيهِ مدى عمره

— راعهِ يا مولاي فهو ولدك

— كنت اود لو اغتالتهُ المنايا فاخلص من شره وما اخالهُ يابى المال الذي اجود لهُ بهِ واذا صدَّ عني واصرَّ على عناده ابلغتهُ صراحة ان من كان ضعيفًا مثلهُ لا يتحكك بمن كان اقوى منهُ فيفقد الخير الذي اعده بهِ

فما اتمَّ الكونت بيانه حتى صدقهُ عقلهُ وصوّبهُ رايه فعوّل على حل القضية بالوجه الذي بينّا الاّ ان البرت لم يرجع اليهِ في ما رآه فقال لهُ معترضًا عليهِ

— لا يكدرك يا سيدي اذا تصديت لعكس آمالك فاريتك العقبات دون الوصول الى ماربك بالطريق الذي مهدت فان نوال لا يهاب وعيدك ولا يخشى تهديدك وقد بدا لي في عينيهِ ما يحكي عن عناده وصلابتهِ وهو كما نعلم ابنك متخلق باخلاقك منطور على طباعك وهو كالحديد ينصم ولا يلين . ولم ازل حتى الآن امثلهُ بالهيئة التي ظهر بها امامي واسمع في اذني صدى صوته

يخاطبني باسترجاع حقوقهِ . والحق يقال انهُ حريٌّ بذلك ولا حق لك بانكارها عليهِ دون ان تجلب لنفسك الملامة وتسومها الذل والعار بين الناس . فيسوقك من محكمة الى محكمة ومن قضاء الى قضاء حتى ينال بجهده امنيته او منيته

فاضطرب الكونت واكبر من البرت الاعتراض على ارائهِ بعد ان عهد فيهِ الطاعة العمياء لاوامره فقال لهُ

— ما المراد من حديثك

— انني لا اريد ان اسومك الذل في آخر ايامك فانزع مني هذا الاسم الذي لا حق لي بهِ لاسمى باسمي الحقيقي واتخلى عن هذا المقام لابنك الشرعي . دعني اتم ما اوجبتهُ عليَّ واجبات الانسانية من نفسي احرِ بي من ان اقسر عليها حكمًا

— أتتخلف عني حين الشدة . أتهجرني لذاتي آن النكبة . أنَّى لك ان تقرَّ بحقوق لم اصوّبها ولن اصدقها

فنكس رأسهُ البرت وهو لم يزل ثابت العزيمة لم يتحوّل عن رايهِ فقال — قلت يا سيدي بما رأيت فلن اعدل عنهُ وتيقن انني آبى ان انزع ابنك الشرعي حقهُ عليك

— تبًا لك من ابن كنود

وكان غيظهُ شديدًا حتى بخلت عليهِ اللغة بالفاظ يترجم بها عنهُ فعدل المحال الى السخرية قائلاً

— أن ما اظهرتهُ لديَّ يشف عن نزاهتك ونبلك لا سيما في ما رأيت وهو ان تنفض غبار اقدامك على عتبة باب القصر قبل ان تندفع بين الناس ولكن لا اعلم بما دبرت لحسن القيام بينهم . ترى هل جمعت المال اللازم لنفقتك ام اصبت ربحًا جزيلاً في المقامرة خلا ما كنت تبقيهِ لديك من المال الذي كنت ادره عليك شهريًا . ام ثقل عليك حمل اسمي وشهرتي فبادرت الى

نزعها عنك ام ازعجك ركوب العربة فآثرت خوض الوحول رجلاً مع اقرانك

— أما كفاني تحامل الدهر عليَّ حتى اعتصبت بهِ عونًا عليَّ

— أما انت الداعي الى الحيف والاعتساف لكن قل لي من اين تستدر المال اذا هجرتني

ألا يكون لي امل بفضلك وجودك وما اخالك تنكر عليَّ الاحسان بمال يكفيني القيام بحاجتي مدى عمري

— واذا انكرت عليك المال فما حيلتك في جلبهِ

— أنىَّ تنكر عليَّ حقًا اقتضيه من فضلك واطمع فيهِ من جودك اعتمادًا على عدلك وانت اعلم من ان ازيدك علمًا بما نالني منك في الحال التي صرت اليهــا

— ما احسن بيانك واذكى جنانك لأَنت خليق بشهرة الابطال ومجد اعظم الرجال . لكن ما الذي يبعثك الى هذا التجرد

— ليس الاَّ الحق

فهزَّ الكونت منكبيهِ ناظرًا الى البرى‌ء نظرة المزدهي بهِ وقال — لا تموه عليَّ باحاديثك المختلفة فلا بد من سبب خفي يحملك على القول بالتخلف عني

— لم يكن في نفسي من سرّ سوى ما كشفتهُ لك

أتهجرني وتعطل العقد الذي عقدتهُ مع كلارا دارلانج فخاصمتني فيهِ مصرًا على انجازه

— كلاَّ يا سيدي فانني اوضحت لكلارا الحال التي انتهيت اليها فرضيت عنها دون الاقتران بي

— أترى جدَّتها ترضى عن البرت جردي لحفيدتها بعلاً

— لا ريب ان جدَّتها لا تسمح بالمسيح بعلاً لحفيدتها العريقة النسب ولكننا ننتظر انصرام اجلها صابرين على الجوى

فاشتد غضب الكونت من اصرار البرت والتزامهِ التؤدة في كلامهِ فقال لهُ

— أهكذا شان من كان ابنًا لي . لا لا فان الدم الذي يجري في عروقك ليس من دمي ولا علم لي باصلهِ . فلا شك انك ظلمتني

فاجابهُ البرت وقد تاثر من كلامهِ — مولاي اعدل عن الايقاع بعرض والدتي . فلا اسمح لاحد ان يحط من قدرها بحضرتي

فلما سمع الكونت تهديد البرت تلهب فؤاده غيظًا فانتصب امامهُ انتصاب من يريد قتالهُ وقال

— انطلق من امامي والزم غرفتك فلا تخرج منها دون اذني . وغدًا انبئك بما يكون من خاطري

فانصرف البرت دون ان يلقي عليهِ السلام وقبل ان يبلغ باب مخدعهِ هرع اليهِ الكونت متحولاً عن غيظهِ فقال لهُ — عد يا البرت الحيّ عد واسمع ما اقولهُ لك

فمال اليهِ الشاب متاثرًا من تبديل صوتهِ وهيئتهِ . فخاطبهُ الكونت بهذا الكلام

— انك لا تخرج من داري قبل ان اطلعك على ما في صدري . لأنت جدير بشهرتي ومستحق التخلف على مالي . ولئن كنت قد غضبت عليك فلا ابرح اودك واقدر فضلك حق قدره فهاتِ يا البرت يدك علامة الرضى

فبسط البرت يده ولبث كلاهما متصافحين برهة ينظر اثناءها الواحد الى الآخر دون ان ينبس بكلمة الى ان عاود الكونت موضعهُ فقال لالبرت — دعني اخلو بنفسي فادبر الحيلة في درء عاديات البلاء التي تتهددني

فلما خرج الفيكونت قال دي كومارين مناجيًا نفسهُ

— ماذا يحل بي اذا تركني هذا الشاب الذي القيت عليهِ كل اتكالي وما يجري بذاك . . .

ان تلك المناظرة كانت قد اثرت في نفس البرت فبدت لوائح الكدر على وجهه فبصر بها الخدم الذين مرّ بهم في طريقهِ فقال الحاجب

— انهُ منذ ثلاثين سنة لم تخرج الحدة بالكونت مع ابنهِ الى حد ما خرجت به هذه الليلة

فقال غلام الغرفة — لاح لي شيءٌ من ذلك اثناء جلوسهِ على الطعام على رغم احتراز الكونت من الحديث على مسمع منا

— ماذا عسى جدَّ بينهما

— ان دانيس الذي كان يشهد مجلسهما اخبرني بمثل ما سمعنا الان عنهم مرارًا لاسباب لا طائل دونها

فاعترضها ثالث قائلاً — كان من الواجب على سيدي الفيكونت ان يحسن الجواب على كلام ابيهِ فيتلطف بحديثه معهُ

فاجابهُ غلام الغرفة — لو شاء والدك ان يفصلك عن ماواه لتيسر الك ان تاتي عملاً تجني منهُ قوت يومك ولكن قل لي ماذا يرجو الفيكونت من النجاح بسعيه اذا طرده والده من القصر

— انهُ ينفق من مال والدته

— انني في حيرة من العلم بالسبب الذي حمل الكونت على تقريع ابنهِ وتعنيفهِ على انني لا ارى في سيرتهِ ما يوجب الملامة . خلافًا لما اعهده في بكر المركيز دي كورتيفول الذي يكثر الترداد الى هنا فانهُ من المسرفين المترعين في الغواية

فاعترضهُ احد المتقدمين في الخدمة — اني لاعجب من اسراف المركيز على قلة ثروتهِ

— ولذلك كان يشتد الخصام بينهُ وبين ابيه . فكم من ليلة قضاها خارج المنزل في الملاهي ومثابات الغواية فاضطر ان اذهب بنفسي لاستدعائه

— ان الخدمة في دار المركيز لمن اشقى الخدمات واصعبها

— لا كما تتوهم فيا سعد الخادم الذي يذهب الى الندوة لاستدعائهِ ليلة ربحهِ فانهُ يفعم جيبهُ دنانير . ولكن لسوء الحظ كان ربحهُ نادرًا فيعتاض منهُ بالتبغ الجيد . وفي كل الاحوال ان الفيكونت يمتاز بسيرتهِ وكرمهِ على ابن المركيز

ان الفيكونت كان ينتاب ندوة السراة فيقيم بينهم في عزلة اوجبت عندهم بعض النفور واجتناب الفتى الاّ انهم كانوا يحاذرونهُ ويحسدونهُ معًا الى ان تطرقوا في محاضرتهِ الى الازراء بافكاره والعدول عن صحبتهِ لتباين الاراء واختلاف المبدأ وتجافيهِ عن عاداتهم في احياء الليالي في المقامرة وغيرها من اسباب اللهو . ولما كان ممن يانفون الضجر اخذ بالعمل تلهيًا فمال الى السياسة وهي كانت من اجلّ الاسباب التي توجب النفور بينهُ وبين والده لانهُ كان يتظاهر بالمشرب الحر فضلاً عما كان يلقاه من المعارضة في حب كلارا . فما لبث صابرًا على مناوأة ابيهِ في هذا الشان حتى اقنعهُ اخيرًا فرضي عن حبهما

فاذ كان جالسًا في غرفتهِ وطائر فكره يحوم في دار كلارا يناجي نفسهُ بما يكون من الاثر في نفسها اذا بلغها القرار النهائي في تمام عقد ائتلافهما شعر بانزعاج شديد فدعا الغلام اليهِ وامره ان ياتيهِ بالشاي فدخل الغلام واذ رآه مكمد اللون قال لهُ

— ما لي اراك يا مولاي مزعوجًا أَتسمح لي باستدعاء الطبيب اليك

— كلاَّ لا فائدة من حضوره فانهُ يجهل اسباب انزعاجي

ولما اراد الغلام الانصراف دعاه اليهِ وقال — اياك ان تخبر احدًا بانزعاجي واذا اعوزني شيء دعوتك اليَّ

فعقيب ان انصرف الغلام قام البرت الى النافذة المطلة على الحديقة فوقف عندها يسرح النظر تلك الليلة المقمرة في حدائق القصر معجبًا باشجاره الباسقة واحكام وضعها مصغيًا الى حركات الخدم والحشم في انحائهِ يتيهُ بالنعمة التي احرزها وادعًا . فما تمالك ان تنهد اخيرًا قائلاً في نفسهِ

— هل يسعني اعتزال هذا المقام والكفر بهذه النعمة وقد وعدت كلارا ان اتمتع بها معًا . . .

وبينا هو يناجي نفسهُ بامر مستقبلهِ طرق اذنهُ ايذان الساعة بمنتصف الليل فاقفل النافذة وانتحى ناحية المستوقد ليصطلي من البرد الذي نالهُ في التعرض للهواء ازاء الشباك . وتسكينًا لثائرة الخواطر التي كانت تستغرق ذهنهُ اخذ صحيفــة وكانت تلك التي نشرت حادثة لاجونشار فتعذر عليهِ تصفحها لايلام ادرك بصره فالقى عنهُ الجريدة وعنَّ لهُ ان يكتب الى كلارا فقام الى طاولتهِ وكتب « حبيبتي كلارا . . . . . » ووقف عند هذا الاسم لاضطراب افكاره وذهولهِ فلبث على هذه الحال الى ان لعلع الفجر فاستلقى من العياء على المتكأ فنام نومة مجهود اضنتهُ الاوهام

ولما كانت الساعة التاسعة ونصف طرق باب مضجعهِ طرقًا عنيفًا فانتبه من نومهِ مذعورًا فدخل عليهِ الغلام ملهوفًا وقد تصرمت انفاسهُ من الجهد في صعود السلم عجلاً يريد مضجع مولاه ولما وقف بهِ قال لهُ بصوتٍ متهدج

— امعن يا مولاي في الفرار واختبيء فها انهم بالباب . . .

وكان رئيس الشرط قد وفد على القصر برجالهِ وفي جملتهم تاباري فتقدم الى البرت وقال لهُ

— أأنت هو كونت لويس ماري البرت دي ريتو دي كومارين

— نعم انا هو

فبسط الزعيم يده قائلاً — انني بحكم الشريعة القي القبض عليك

— أتقبضني وما الداعي ولمَ هذه المبادهة

ان مفاجأَة البوليس كانت قد قطعت بهِ عن الهواجس التي كانت تجول في ذهنهِ فلم يكن ليصدق حقيقة ما كان يجري امامهُ بل توهم ذلك حلمًا فتساءَل قائلاً

— أراءق انا ام راقد

وكان يجيل نظره من ثقاف الى آخر وهو في حالٍ من الدهشة لا يفي بوصفها القلم

فابرز الثقاف رقعة الطلب قائلاً — دونك الرقعة التي تؤذن بجلبك

فالقى البرت نظره عليها وقال حائرًا — مقتل كلودين .

ثم فنى قوله هاجسًا بصوتٍ اسمع تاباري واعوانهُ — ويلاه لقد ادركني التلف

وبينا كان الزعيم يشتغل باستنطاق البرت اخذ الثقافون القائمون تحت قيادة تاباري ينقبون في الغرفة باحثين في الصوان وكل موضع حريز فعثروا على رسائل وغيرها من الدلائل التي اشار اليها المتطوع في لائحتهِ

ففي الغرفة الاولى عثر على حربة مكسورة نقشت عليهـا شارة الجلاء من فوق هذين الحرفين المنحوتين من اسم البرت . ا . ك . ولما سئل الفيكونت بيان السبب الذي اوجب كسر الحربة وضياع قسم منها . تعذر عن الجواب

وفي مخدع آخر وجد كساء الفيكونت ممزقًا لم يزل عليهِ اثر الوحول والكلأ النابت على الجدران . وكان في جيوبهِ كف اغثم اللون ممزق تمزيقًا بالاظافر ثم وُجد في ذلك المخدع حذاءه وظلتهُ على الحال التي كان اشار اليها تاباري في تفصيلهِ

ولم يزل تاباري ينقب في الغرف حتى عثر ايضًا على حقة ملآنة من التبغ الممتاز الذي التقط اثره في منزل الايمة لروج وعقيب ان علق بيان ذلك على رقعة خاصة تقدم بها المتطوع الى زعيم الثقافين وهمس في اذنهِ قائلاً

— لقد لقيت ما كنت اتوقعهُ

— وانا قد انجزت مهمتي فعرفت ما كنت اود معرفته

— ان المفاجأة لمن اعظم الاعوان على استجلاء الحقيقة في المسائل الجنائية

— وقد كاشفت بعض الخدم فوعيت عنهم أما اتاني بالغريب من هذا الامر

— احسنت فاسمح لي ان اسرع بالخبر الى المستنطق الذي ما زال في انتظارنا يعد الثواني

وكان البرت في تلك الاثناء قد حاول ازالة الدهشة التي استولت عليهِ بمبادهة الثقافين وزعيمهم فقال لهُ

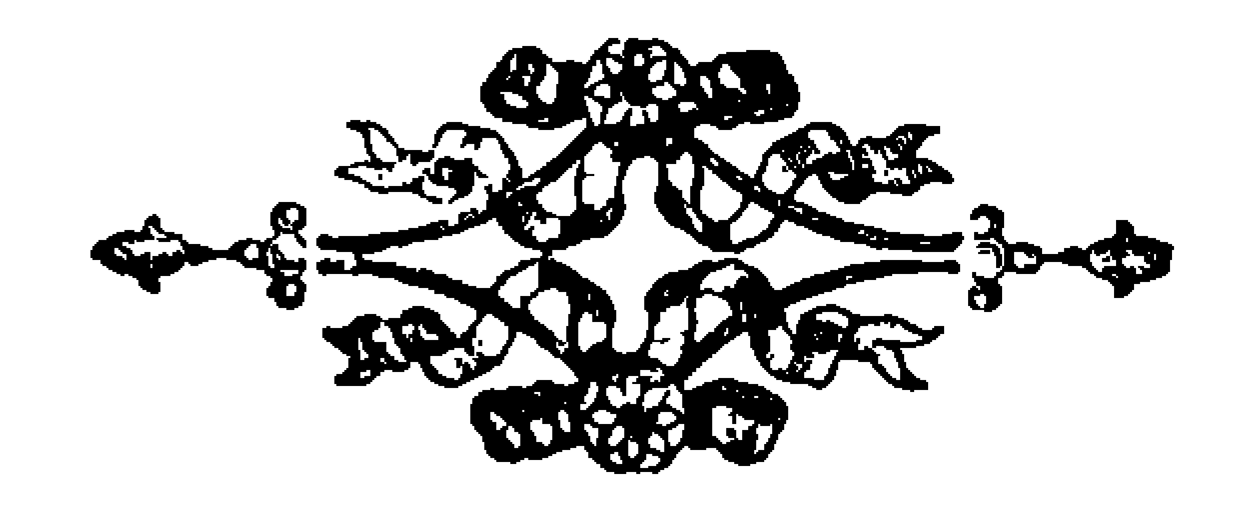
— أتسمح لي ان اخاطب الكونت بحضرتك فاظهر الخطأ الذي آخذتني بهِ

فاعترضهُ تاباري قائلاً — مالك وللدعوى بالخطأ والابهام

فاجابهُ الزعيم — لا يسوغ لي ان اسمح لك بمكاشفة احد بل من الواجب عليَّ ان القي القبض عليك فاسوقك على العربة الى دار الحكومة دون امهال

وبينا كان البرت منصرفًا بين الثقافين يتخطى معهم الدهليز رأَى الخدم في اضطراب شديد من الحال التي صار اليها وقبل ان يبلغ ظاهر القصر اتصل بهِ خبر اعتلال صحة الكونت

فركب تاباري العربة يتلوهُ الركب على عربة اخرى كانت تجري بهم جري الغزال النافر



الفصل العاشر

نوال ازاء المستنطق

ان دار الحكومة تتالف من طبقات شتى كثيرة الغرف لا ينفذها النور الاَّ من ابواب صغيرة تحاكي بوضعها ابواب نزل عتيد للاجرة . ليت لي قلم (الدانت) الشاعر الايطالي لاقوى على وصف هول الواقف في الطبقة الثالثة وما يساوره من المخاوف اذا احدقت بهِ الجند عند حد الخلاص او الهلاك فيتلقى من المستنطق تلك العبارة الحرية بان تكتب باحرف نارية على باب مخدعه وهي « ان لدينا من الادلة والبراهين ما يثبت جنايتك فادفع عنك اذا استطعت للدفاع سبيلاً »

وكان دابيرون قد انقطع في مخدعه غلس ذلك اليوم رغبة في ترويج ما لديهِ من الاعمال وتوصلاً الى دعوى كومارين التي اتفق مع تاباري على فصلها فكاشف المدعي العمومي وانفذ الى كل من المتهمين كالكونت دي كومارين ومدام جردي ونوال وغيرهم رقعة الطلب حتى بعث بطلب بعض خدم الفيكونت يريد استكشافهم قبل مرافعتهِ وبينا كان ينتظر قدومهم بذاهب الصبر دخل عليهِ الكاتب كونستان فحياه واعتذر لديهِ عن ابطائهِ ذلك اليوم فاجابهُ المستنطق

— لا باس فقد جئتني اوفق الساعة فهيء الاوراق واكشف السجلات لانجاز ما لدينا من الاعمال الخطيرة

فلم يمضِ على حديثها بضعة دقائق حتى اقبل الحاجب بصحبة نوال جردي المحامي وقد سكنت خواطره وزال عن نفسهِ كل همّ وقلق كانهُ قرب خليلته جوليات فرفع عريضتهُ الى المستنطق قائلاً لهُ

— جئت يا سيدي ملبيًا دعوتك

فاستقبلهُ دابيرون استقبال من ألِفَ المحاكم فاجلسهُ مجلس المحامي في المحكمة وعقيب ان سطر الكاتب في السجل اسم وشهرة وعمر الرجل جريًا على العادة في استكشاف الشهود نظر دابيرون الى نوال وقال لهُ

— هل عرفت ايها المحامي بالغرض من احضارك

— نعم يا سيدي وهو من اجل استكشافي في دعوى مقتل الكهلة في لاجونشار

— اصبت

ثم فطن الى عهده المبرم مع تاباري في كتم الناقل فقال مخاطبًا نوال

— لئن كنا قد بادرنا الى طلبك فما ذلك الا لاننا رأينا ذكرك في الاوراق التي وجدناها لدى الأيمة لروج

— لا بدع يا مولاي فان العهود الودادية كانت تقضي علينا بموالفة تلك الأيمة فانها كانت مرضعي وقد تواصلت بينها و بين مدام جردي العلائق

— فهاتِ ما عندك من العلم بامرها

— يقتصر علمي على ما لا يستفاد منهُ خيرًا في هذا الشان لانني هجرت الايمة صبيًا فلم اتردد اليها كثيرًا بل كنت انفذ اليها المدد حينًا بعد حين

— هلاّ زرتها زمانك كلهُ

— لم اتجاوز في قيامي لديها كل مرة كنت ازورها بضعة دقائق . وما اقوى مدام جردي على بيان حالها لشدة تقربها منها

— فما الذي اقعد مدام جردي عن المجيء حتى الآن .

— ما اخالها تستطيع اجابة الدعوة لملازمتها الفراش

— هل هي على خطر

— لا تصح شهادتها وهي على حالٍ من الذهول ادنى ما يكون اليها البله

فاستاء دابيرون من هذا البيان وقال — أأنت على ثبات من قولك

— مولاي انني هجرتها على شفا المنية من الهزال والضعف فلا نتوقع خيرًا من شهادتها

— متى لزمتها العلة

— مساء امس

— هل نزلت بها بغتة

— ان الظواهر تشير الى ان العلة بادهتها امس غير انني اعتقد بحدوثها من قبل بثلاثة اسابيع لاسباب تبينتها جليًا . عقيب ان فصلت امس عن المائدة اخذت تتصفح احدى الصحف فوقع نظرها عرضًا على خبر حادثة لاجونشار فسقطت الصحيفة من يدها لاضطرابهــا فصاحت قائلة — تبت يدا الشقي

— تعني بالشقي الشقية

— كلاّ يا سيدي لانها لم تقصد المرضع

— وما كان ثمَّ منها

— انها هوت للارض فرفعتها مع الوصيفة واحتملتها الى سريرها وارسلت فدعوت الطبيب للحال اليها ومنذ تلك الساعة لم تزل في ذهول تام

فقاطعهُ المستنطق البيان بقولهِ — دعنا الان من الكلام عن مدام جردي واخبرنا بما عندك أَلم تعهد لتلك الايمة من عدوٍ او مخاصم

— كلاّ

— أَلم يكن بين القوم من يبغي بها شرًا حرصًا على مصلحتهِ

وكان دابيرون شاخصًا بهِ ملتمسًا من هيئتهِ بيانًا فتأثر المحامي من هذا السوال فاضطربت خواطره فتردد برهة في الجواب ثم قال — كلاّ

— ناج نفسك وارجع الى محفوظك لعلك تفطن الى من يكون يروم بموت تلك المسكينة خيرًا

— لا علم لي الآ ان تلك الجناية الحقت بي ضررًا عظيمًا

— صرّح ايها المحامي مفصلاً اسباب الاجحاف والاعتساف

فنمّ اثر هياج نوال الخفي بما نالهُ من الانزعاج فاجاب — لا اغفل يامولاي ذكر الحقيقة عملاً بما تفرضهُ عليَّ الشريعة ولكن يضطر الانسان ان يمسك عنها حرصًا على الخطر الذي يتهدده وقد اراني شديد الغم في موقف يطالبني بنشر اسرار مفجعة تجلب الويل . . . .

فلما آنس دابيرون في وجه نوال اثر الحزن لما حملهُ على اذاعتهِ من امره توجع لهُ فقاطعهُ الحديث مشيرًا الى الكاتب بلطف ان يتخلى عنهما برهة . فشكر نوال المستنطق على حسن رعايته قائلاً

— انني استفيض بالثناء على حسن التفاتك واشكر جميلك عندي اذ ازلت عني ما كان يحول دون اظهار حقيقة امري لديك وقد تجسمت كلها من اخطار ومخاوف فضلاً عن المعائب . .

— قل ولا تخشَ باسًا فانني لا احفظ منها الآ ما يجيءُ بفائدة في موضوع الدعوى

— ارجوك يا مولاي ان تغض الطرف عن كل بادرة تبدر مني فعاملني بحلمك ولا تحمل كلامي على محمل الطعن والقذف بل خذ عني الحقيقة بثوبها الجلي . – كنت قد توهمت يا مولاي حتى حين بحسبي فما ضلتني الآ ثمرة الغي والفساد فزال الريب وانجلى الصبح لذي عينين وعرفت الحقيقة من المين . ولما كنت قد رايت نفسي في مقام يضيق بي عن سعة الشهرة عمدت الى العمل فانقطعت في منزلي كالغريب اصرف الزمان بالكد والجد لابلغ حد الوجهاء والاعيان وكنت احب تلك التي نظرت اليها كامي محبة لا يحيط بها الوصف ولا يشملها التعريف وما زلت على هذه الحال الى ان انتني العناية الالهية بتلك

الرسائل التي كان قد انفذها والدي الكونت دي كوماربن الى خليلتهِ مدام جردي اثناء اعتلافها فعقيب ان تصفحت تلك الرسائل ثبت لديّ فساد اعتقادي بمدام جردي وزال وهمي

ثم تطرّق ايضاً الى ذكر الحوادث التي سردناها عنهُ قبلاً في حديثهِ مع تاباري وما كان منهُ مع مدام جردي واقرارها بعهدها مع الكونت بعد الالحاح وما تبينهُ في زيارة الفيكونت دي كوماربن محاذراً الاتيان بما ياخذه عليهِ الفيكونت اذا علم بهِ واكثر من الثناء عليهِ لحسن احتفائهِ بهِ واكرامهِ وتصديقهِ نسبهِ واذعانهِ لما تقضي بهِ الشريعة وقصارى القول انهُ وصف البرت بجملة الظرف واللطف وعرّفهُ بالفضل والنبل

وكان دابيرون صاغياً الى قصتهِ دون ان يلوح على جبينهِ ما ينم بعواطفهِ وميلهِ الى ان فرغ نوال منها فسالهُ قائلاً

— لماذا انكرت عليّ اشهار اسم الذين راموا الايقاع بك طمعاً بمصلحتهم فعلى ما قرّرت اري ان لا مجال لك في مرافعة الكونت وقد قلت بجنون مدام جردي وموت المرضع فاذا انكر الكونت صحة الرسائل سقطت الدعوى وبطل عملها ولا ريب ان مرتكب الجناية قد نظر الى ذلك فاخذ الاهبة احتياطاً لعمالك

— بالله يا مولاي لا تقل بالاحتياط ولولا ان الفيكونت قد صحح دعواه لما كان قد عراه القلق وعلت وجههُ الكمدة فاختلجت اعضاؤه عندما اطلعتهُ على الادلة التي تحقق نسبي وتجرده من الحقوق التي اغتصبها والدي من اجلهِ

— هل سالك الامهال

— نعم يا سيدي وقد كنت طلبت اليهِ ان يذهب بصحبتي الى الآنسة لروج لازيل بشهادتها عن فوادهِ كل شك وريب . فاضرب عن حديثي شأن من لا يفقه معناه او من لا يعرف المرأة التي كنت ادعوه اليها على انني اعلم يقيناً انهُ كان يتردد اليها مع الكونت فينفحها بمال جزيل

— الم تعدّ تلك السماحة غرابة

— كلاّ

— هلاّ عرفت بالسبب الذي من اجلهِ انكر الفيكونت صحبتك

— بلى . انهُ كان يريد ان يكاشف والده بالامر وقد كان متغيبًا فسالني امهالهُ الى حين عودته

ان للحقيقة ادلة لا تحتاج معها الى اثبات فتنقشع بها غيوم الشك فدابيرون صدّق كلام نوال وتاكد ان الغش لم يدنس لهُ قلبًا ولا عقلاً . فاستانف المحامي حديثهُ قائلاً

— سرّني يا مولاي احالة النظر في طلبي الى والدي لانني كنت انوقع منهُ الفوز بما كان على يدي من البراهين التي لا يعتورها ريب فيكفيني موءنة المرافعة

— اما كنت ترافعهُ لو انكر عليك الطلب

— كلاّ لانني لو فعلت لدنست اسمًا سعيت واسعى في استرجاعه

فلم يتمالك دابيرون ان اظهر عجبه عند هذا الجواب فقال

— نعم التجرّد

— انني اوثر يا مولاي ان اتخلى عن شهرتي لالبرت من ان انصدى لطيها قانعًا بما قسمهُ الله لي ساعيًا في تحسين شهرتي وتعزيز مكانتي لكن جزى الله مدام جردي عني ما هي اهلٌ لهُ لانها سلبتني مالي بما انفقتهُ في سبيل هواها حتى ابهظ عاتقي الدين وحال دون نيل مرامي العوز

— لا تيأَس يا نوال فعسى ان تاتيك الشريعة اليوم خيرًا ولا اكتمك ما انتهت اليهِ ابحاث الحكومة في دعوى لروج فانها ادركت اثر الجاني فالقت القبض على الفيكونت البرت

— عجباه هل ما تقول يا سيدي حقيقة

— ستتصل بك النتيجة الواضحة اما الآن فانني اشكرك جزيل الشكر

على بيانك الصادق ولسانك الناطق بالحق فقد اسعدتني بما كشفت لي على ادراك الحقيقة في ما انحرّاه اليوم فاستانف رقم تصريحك الى يوم آخر حيث اجتمع بك في خلوة فننطلهُ معًا لكن هات الرسائل التي ذكرت لاتصفحها واحرزها لديّ حجة يرجع اليها عند الانكار

— سآتيك بها بعد ساعة

ثم انصرف نوال مثنيًا على لطف المستنطق وجميلهِ مسرورًا بما احرزه في مقابلتهِ سرورًا اذهلهُ عن مرای تاباري قادمًا على العربة الى دار الحكومة بسرعة تحاكي سرعة الرسول اذا نقل بشرى فترجل وصعد عجلاً الدرج يريد مخدع المستنطق فما لبث ان دخلهُ دون استئذان فتقدم من الكاتب وقال لهُ

— لقد فزنا بالرجل . . .

وكان يشير بيديهِ ويضحك مازحًا حتى اضحك الكاتب وغيره ممن حضر فساء دابيرون تظاهر تاباري بالفرح في غنيمتهِ فاومى اليهِ ان يلازم الوقار ويعمل بما تؤذن بهِ الحكمة والدراية في قضية نصبها العدل فيها حكمين مستقيمين

فاجابهُ تاباري قائلاً — لم يبقَ يا مولاي من مجال للريب وقد اسندت بحثي الى الادلة الصريحة فما اراه ينكر صحتها اذا سئل الجواب عما يقترح عليهِ من الاسئلة في هذا الشان وهل يستطيع انكار الآلة التي جنى بها والكفوف الممزقة بتشبث اظافر الايمة بها قبل ان تجود بروحها فاسالك يا سيدي تعجيل الحكم قبل ان يرفع الامر الى مجلس القضاة فاخشى ان يروا تخفيف العقاب جهلاً بما لدينا من البراهين القاطعة بثبات الجناية

ان دابيرون طوى كشحًا عن كلام تاباري الصادر عن حدة شديدة فاشتغل بما لديهِ عنهُ الى ان آنس فيهِ السكينة والوقار فقال لهُ

— ان البرت جنى على نفسهِ بما بدر منهُ عند تصفح رقعة الطلب اذ اقرّ قائلاً — دهمني التلف

— لا ريب يا مولاي في ما تقول وهل كنت تخاله يقر بخطائهِ لو كان على هدى فاننا ادركناه يتململ من القلق والضجر على كرسيهِ لا يعي من شدة الغم والهجس ولقد لقيت بقربهِ تلك الجريدة التي نقلت خبر مقتل الابنة . وعندي ان ذلك النبأ كان السبب الوحيد لارتباك بالهِ واضطراب حالهِ

— صدقت يا تاباري وقد اعظمت سعيك وشكرت فضلك في جلاء هذه الحادثة الغامضة والذي زادني تاكيداً في نجاح جهدك ما اخذتهُ عن نوال جردي منذ برهة

— أرأيت نوال وهل دري بشيء ما اودعتهُ سرك

— كلاَّ اما وعدتك بالكتمان وهل من الواجب اذا قمت للبحث عن امر ما ان اعرّضك للملامة فيهِ

— الك مني جزيل الثناء على معروفك لكن ما افادك نوال وما حكمك عليهِ

— انهُ بالحقيقة رجل استكمل صفات الرجال النبلاء فكشف لي بحديثهِ عن شهامة ونزاهة قلما شهدتها في صدر انسان واطلعني على اراء هي بالحقيقة فخر شيوخ الزمان فملت اليهِ واود ان اكون صديقهُ فاقبل بكل قلبي عليهِ

— ذلك حكم من عرف نوال وآلفهُ وقد جعلتهُ لديَّ بمقام ولدي فاوصيت لهُ بمالي من بعدي نعم هو وريثي ولا سواه . فان الزمان كان قد غرَّني بحب مدام جردي فجعلت لهُ حظاً من مالي اما الآن فمن عزمي تعطيلهُ وتحويلهُ لنوال الصادق الامين

— ان مدام جردي لفي غنىً عن كل هباتك

— ومن اين لها الغنى هل الكونت . . .

— ان المنية تحدق بها فلا يمضي النهار الاَّ ونشنقها

— ما اعجب حكم الله وما اسمى تدبيره فانهُ سيقضي بيوم واحد على كل من كان لهُ يد في الشرّ والغدر وقد اذكرتني الان يا مولاي بما سمعتهُ عند انصرافي

من دار دي كومارين فان احد الخدم كان ينبئ رفيقهُ ببله الكونت على اثر القاء القبض على ربيبهِ

— اخاف ان ينال نوال من هذه النكبات شرًّا عظيمًا . لانهُ كنت اعتمد على اقرار دي كومارين لتصديق دعواه اما الآن فمن يأتينا بدليل ثابت على صحة تلك الرسائل وقد تعطلت الشهود

— صدقت يا مولاي في ما قلت وقد فاتني النظر الى هذه الاسباب كلها فما الحيلة لدفع البلية عن نوال

وقبل ان يتم تاماري حديثه طرق باب المخدع ففتح للحال ودخل الكونت دي كومارين يعضده الخدم فحيّا المستنطق ووقف صارفًا خدمهُ عنهُ

الفصل الحادي عشر

استنطاق دي كومارين

كان الكونت دي كومارين من الضعف والذل على حال لا يقوى على وصفها البيان منكس الراس واجف البدن شاحب الوجه وبالجملة لاح كانهُ شبح من الاشباح فصلاً عما كان يحيك في صدره من الاوهام التي لا يثبت معها هام

وما كان اشبه دي كومارين بشجرة عظيمة قرض لحاءها فابقى الزمان على قشرها الى ان هبت عليها ريح عاصفة فاقتلعتها

بالامس كان الكونت يفاخر بعزتهِ و يباهي بمكانتهِ فيابى ان يلين مستنداً الى جلائهِ وشارتهِ ولكن ما اتاه الغد حتى ذلّ وامتهن فطاطأ راسهُ خاضعاً بعد ان قرض العار مجده وسلبهُ كل عضد ومعين . فبدا امام المستنطق بصورة اليأس والقنوط حائر الفكر واهي العزيمة . فما كاد يثبت في المجال حتى اوعز دابيرون الى الكاتب والى تاباري ان يفصلا عن المقام ففعلا دون ان يدري بهما الكونت ثم قدم المستنطق كرسياً ودعاه للجلوس فجلس قائلاً

— لا يسعني الوقوف لضعفي وهزالي

لا تعجب اذا رأيت الكونت يعتذر الى المستنطق فيسالهُ السماح بالجلوس في حضرتهِ فاعلم اننا لسنا في عصر تخضع فيهِ الاحكام للقوة والمال بل نحن في زمان وقد فازت الشريعة بالقوة فسوّت بين القوي والضعيف والغني والصعلوك . فعقيب ان جلس دي كومارين بدأه دابيرون بهذا السوال

— اراك ضعيفاً مزعوجاً ربما كنت لا تقوى على ما اقترح عليك بيانه

— انني اشد الان باساً من قبل فقد عاودتني الراحة بعد ان دهمني من الاضطراب ما ضعضع عزمي على اثر خبر القاء القبض على ولدي بجناية ذهبت برشدي واضلت صوابي . ولولا ان بنيتي صحيحة لكان قضي عليَّ تحت عبء تلك الشدة ولكن ارى الله قد فسح باجلي ليجرّعني كاس الهوان والذل حتى ثمالته . ولا غروَ فانني قد استحقيت العقاب بما كان سبب مجدي وفخري نعم نعم عاقبني يا سيدي لانني انا الذي هيأت اسباب الجناية بيدي فاطفئ بحياتي مجداً تنزه عن المعائب زهاء خمسة عشر جيلا

كان قد خطر لدابيرون ان يعنف الكونت على سيرتهِ فينقم عليهِ البغي والفساد تشفياً من غيظهِ الذي ملأ صدره عن ازدهاء المركيزة دارلانج بهِ فيبيّن للمدعي بالجلاء ان النبالة والسموّ انما يقومان بالاعمال لا بجلد الرجال وقبل ان يفتتح الخطاب بهذا المعنى شعر من نفسهِ بداع يدعوه الى الشفقة والاخذ بالاسباب التي تلطف بعض ما نال المصاب

فاستانف الكونت حديثهُ قائلاً — اكتب يا سيدي ما ارويهِ اليك حرفاً حرفاً فلا تغفل شيئاً ما اودعه بطن السجل لان العار الذي كنت اتحاشى نزولهُ بي فقد ذاع وملأ الاسماع فليس اذن ما اكتمهُ الناس فليعلم الجميع بانني كنت اول المجرمين وان الله قد بلاني بعقاب دونهُ الموت طعماً

انني ما كدت ابلغ عمر البرت حتى الحّ عليَّ اهلي بالزواج من ابنة عريقة النسب كريمة الحسب فاقامت لديَّ ولا قيام العبيد لدى الموالي تحت وطأة الذل والخسف فانكرت حبها وجفوتها لهيامي بحب خليلة كنت قد ملكتهـا فؤادي فتولت عليهِ طويلاً . وكان اسم فاتنتي فالري فحفظت عهدها قبل الزواج واثناءهُ على انها كانت قد اوحت اليَّ ان انقطع عنها الى من هي احق بقلبي وحبي منها فابيت وما زلت على ثبات عهدي مع زوجتي وخليلتي الى ان قرنت بين الحلال والحرام فعنَّ لي ان اضحي حقوق ولدي لثمرة بغيي وفسادي فواضعت فالري الراي فصدفت عنهُ كشحاً وانكرت انفصالها عن ابنها عملاً بسنَّة الوالدين . فساقني جهلي الى ان تهددتها بالقطيعة والجفاء عند عودتي من سفري فاذعنت خيفة البعاد والهجر الى هواي فمالت اليَّ بافكارها فعهدت الى خادمي وكلودين لروج بانفاذ غايتي فبدلا الطفلين وجعلا ابن خليلتي لديَّ وابني لديها فكان اذن ابنها الفيكونت البرت دي كومارين رهن يديكم منذ ساعة

فسر دابيرون بما وعاه من صحيح الرواية وصدق الراوي فاخذه حجة ينتصر بها للمحامي نوال جزاء احساساتهِ وامانتهِ . ثم اجاب الكونت قائلاً

— يتبين لي من روايتك ان نوال جردي هو ابنك الحقيقي ولهُ وحده الحق بالانتساب اليك

— نعم يا سيدي آه لو كنت تدري بعظم الفرح الذي ملأ فؤادي عندما فزت بمرامي فاقمت في داري ابن خليلتي داري التي هجرت حبها فصددت عنهـا راضياً بقرب البرت مني وامتلاكهِ قلبي ومالي من اجلهِ انكرت ابني وحقوقه

فمنعت منهُ حناني وانعطافي الابوي حتى ان فالري كانت تواخذني بصدّي عنهُ وابتعادي منهُ . فاقام البرت عندي مقام الدي فمالت اليو حليلتي ظنًا منهـا انهُ ابنها فحاولت ان الفي بينها النفور فاحجم عنها واحملها على مقتهِ فما كان منها الّا ان زادت بهِ ولوعًا ورمتني بسوء النية زاعمة ان سعيي في ابعاد البرت من حبها كان مني عن حقدٍ عليها فقضت نحبها على اثر هذه الغصة دون ان تبوح بها طالبة اليّ ان اصفح عما كان منها سببًا لاغضابي وعذابي

ان دايرون على رغم الاعمال التي كانت تقضي عليهِ بسرعة انجازها اباح للكونت ان يسهب في قصتهِ غير معترض عليهِ لانهُ كان يخشى ان ينال من مقاطعتهِ الكلام خيبة المرام فاصغى اليو بكل انتباه الى ان تطرّق الكونت بحديثهِ الى سرد ما جرى لهُ مع فالري في قديم الزمان فقال

— انني لم ابكِ فقد حليلتي واوصافها فعراني من جراء ذلك غمّ واسف تنازعا قلبي حياتي كلها فلمت نفسي واكثرت عتبهـا على الجفاء وقلة الوفاء الى ان اخذ الله بناصر تلك المسكينة من قلبي الذي حاكى بقسوتهِ الجلمود فبلاني بعذاب لم اطق عليهِ صبرًا . فعاقبني بالطريقة التي جنيت بها وهي انهُ اتاني ذات يوم احد الاصدقاء يكاشفني بسرّ خداع فالري وخيانتها فابيت الارتياح الى روايتهِ وحسبتها وشاية شان العذال اذا آنسوا حبًا في قلب صديقين متآلفين متحالفين كما كنت مع تلك الخليلة . ولا ألام يا سيدي على انكار تصديقهِ اعتمادًا على ما قيدتها بهِ من الصنيع وما اصطنعت عندها من الجميل فانقذتها من مخالب البغي ومهالكه فادنيتها مني ووفرت لديها اسباب النعمة والغبطة وخلاصة القول انني جعلتها في مقام حليلتي بل آثرتها عليهـا . وما طال بنا زمان الالفة حتى رأيت ما اوجب عليّ الاحتراز والمراقبة فبثثت الرقباء في طريقها وجعلت العيون في منزلها الى ان حقّ لديّ صدق الراوي وحقيقة روايته . فان تلك الخادعة الخلاّبة كانت متعاهدة منذ عشر سنوات على حب جندي فكان هذا العميد يختلف اليها عند نصف الليل فيأوي

احيانًا منزلها وآونة ينصرف من عندها خفية تحت جنح الدجى . وكان اذا دعتهُ الخدمة الى هجر باريس احتال للعود اليها بزيارة اهلهِ وعيالهِ ولم يكن لهُ من عيالٍ واهلٍ الاَّ فالري . ففي ذات ليلة انبأني الرقباء بحلولهِ دارها فاسرعت اليها ودخلت عليها جريًا على عادتي فاحسنت استقبالي دون ان ينم بها شيء من آثار الاضطراب والانزعاج وصافحتني بكل لهفة الى ان عصبت على عيني فكادت تزيل من نفسي اعتقادي بصحة نقل الرقباء لولا ان وقوفي عند البيانو قد هداني الى دليل صريح على خيانتها اذ ابصرت على ظاهره كفوفًا من جلد الظبي خاصة بالجند . فامسكت عن الملام والجدال في هذا الشان حذر الاتيان على حدّتي بما تسوء عاقبته فنكصت على عقبي واجمًا من حيث اتيت ومنذ ذاك الحين تجافيت عن مقابلتها ومراسلتها فكتبت اليَّ مرارًا تسالني سبب القطيعة والجفاء فكنت اطوي رسائلها على غرّها فدفعتها القحة الى ان قدمت داري فوقفت ببابي تسال الحاجب الاذن بالدخول عليَّ فصدّت عنهُ كما يصدُّ اللئيم

من يسمع الكونت الحسيب النسيب يروي قصتهُ البذية بل يبوح باسرار حياتهِ الغرامية ولا يرتاب بهِ لما سمعهُ عنهُ من التفاني في حب المجد والالفة والحرص على الجلاء

لا ريب انهُ قد وقف من سيرتهِ عند الحد الذي يذهل بهِ الانسان عن الصواب فيذيع ما طوتهُ سريرته ليكشف عن نفسهِ الغمة ويلقي عن عاتقهِ وقرًا ابهظهُ طويلاً

وما مثلهُ على تلك الحال الاَّ مثل بائس ناء بهِ حمله فالقاه عن منكبيهِ دون ان يفكر في الموضع الذي وقع فيهِ علهُ يرى من يأوي لبليتهِ او يرثي لشدتهِ

وعقيب ان اطرق برهة عاود الكلام فقال — لقد عانيت يا مولاي من الزمان صروفًا وقاسيت من البلاء صنوفًا يهي دون ثقلها رضوى . لا سيا عندما بليت بهجر فالري وصدها تلك التي جرّدتُ نفسها من نفسي وجعلت

انسها من انسي آه انني عندما قضيت عليها بالبعد والفراق نالني من الغصة حظ لا يوصف فشعرت من نفسي بألم كاد يقضي عليّ لان الحب الذي تعاقدنا عليهِ كان شديدًا ففارقته بعد تذ حقد قطع قلبي واصهر لبي . فاردت من القلب نسيانها فتأبى وسالت الفكر اغفال ذكرها فما لبى . ويا ليت عذابي انتهى بي الى هذا الحد فقطع بي عن احتمال ومعاناة شاك الريب وشباة الشك التي برّحت لي في حقيقة نسب البرت فقلت في نفسي – من يؤكد لي صحة نسب هذا الولد اليّ . ويلاه واي شرّ ارتكبت في تضحية ولدي الحقيقي لمصلحة المسبع الغريب . اما كفاني يا مولاي اضطرابًا وعذابًا بعكس آمالي وقلب رجائي . فمنذ وقع في نفسي شوك الشوك تبدلت المحبة بالبغضاء والمودة بالشحناء فحدثتني نفسي مرارًا بسالك الحدة والغيظ في الفتك بالبرت فزجرني عن ارتكاب الجناية حب المجد والرفعة فاعتصمت بالصبر على احتمال القهر وبالرشد على ركوب الخطر . فتهيأ لي احيانًا ان اشرح قصتي للحاكم فنهاني عن التعرض لديها طالب الملاء وحب الجلاء وما زلت اخشى الفضيحة والعار سائرًا على مثل النار الى ان غشيتها فذقت من مرائرها ما دونهُ الصبر ولقيت من شرها مكانًا دونهُ القبر .

فما اتمّ الكونت هذه العبارة حتى تسابقت على خده العبرات وتتالت في صدره اللهفات والحسرات فستر وجههُ بكفيهِ خجلاً . وقام ينتظر الامر وجلاً

وفي تلك الاثناء فتح الكاتب الباب واطلّ منهُ ليلتمس من زعيمهِ الاذن في معاودة العمل فدعاه دابيرون الى مكانهِ ثم نظر الى كومارين وقال لهُ بصوتٍ ألانتهُ الشفقة ولطفهُ الحنان

— لقد اخطات ايها الكونت امام الله والناس خطأً ساءت غوائله فمن الواجب اذن ان تبادر الى ملافاتهِ دون مهل

— تلك رغبتي وجل مرادي

— لا خفاك ان اصلاح خطائك لمن اجل اسباب السلوى والعزاء لمن

نكب نكبتك لانك اذا دعوت نوال جردي اليك لقيت فيهِ ابنًا جديرًا بالنعمة والمكانة خليقًا بنسبك علمًا وادبًا فاراه آخذًا من الكمال نصيبًا قلما احرزه اقرانهُ وقد شهد لهُ بهِ زمانهُ وتيقن ان المصائب لاعظم استاذ للانسان فانهُ يتلقى عنهـا من الفوائد ما لا ينالهُ في اشهر كليات العالم وقصور الكرام فاقبل اذن اليهِ واعطف عليهِ يؤيد لك بالخبر ما سمعتهُ بالخبر ولا تصدق حقيقة نسب البرت اليك لان من كان في عروقهِ دم كومارين لا ياتي ما اتاه ربيبك

— صدقت يا سيدي فلو كان البرت منّا لما تقاعد عن تطهير فعلتهِ بدمهِ

فتنبه خاطر المستنطق عند هذا الكلام فسالهُ قائلاً

— هلاّ تاكدت لديك جناية البرت

فحدج الكونت المستنطق بعيون حركتها الحيرة وسكنتها الدهشة واجاب

— انني عدت الى باريس مساء امس فلم اعلم بشيءٍ مما جرى سوى ان الجند قد القوا القبض عليهِ قبل ان يستكشفوا حقيقة الامر وما عهدي بك تحكم في قضية قبل استجلائها

فلام دايرون نفسهُ على ما اجراه دون اعمال الروية وعرف خطاءه في اقتحام الحذر فانقلب يسعى سرًّا في ادراك سبيل الاصلاح قبل فواتهِ لا سيما عندما رأى من الكونت تجاهلاً في جريمة البرت فخاف ان يكون قد تنبه خاطره بسوالهِ بيان الامر فاخذتهُ الحيرة في بدء الدعوى واشتبهت عليهِ المسالك فيها فما لبث ان استانف استكشاف الكونت فسالهُ قائلاً

— متى اتصل بك خبر اذاعة سرك

— لقد اعلمني بهِ البرت مساء امس فلم يهد لي سبيلاً لبيان ما نقترحه عليَّ لكن ...

وامسك الكونت عن هذا الاستدراك خيفة ان يبدر منهُ ما يناوىء

الحقيقة فيسقط حيث كان يرجو القيام

فالحّ عليهِ المستنطق باكمال الكلام

فقال كومارين — او لم يكن البرت مذنباً لما التزم في الحال الجبانة والضعف

— هل عندك ما يدفع عنهُ التهمة

— لا تكلفني الشهادة بل جئت افيك بما تقتضيه مني حقوق العدالة وما تفرضهُ عليَّ واجباتها ليس غير . ودونك بيان ما دار بيننا امس من الحديث

— عقيب ان اتى البرت في حديثهِ معي على ذكر رسائلي اخذ يدلي من الحيل اسباباً بغية ان يطلع بها على سري و يعلم مني ببقية الرسائل التي فاتهُ الوقوف عليها فعرف بها عند اجتماعه بنوال جردي فحصل بيننا على اثر الحاحه جدال عنيف طلب اليَّ في عرضهِ ان يتخلف عن مقامهِ لنوال فرغبت اليهِ ان يبقى لديَّ امل ان ابلغ حسم الخلاف بطريق اللين والحب فانكر رغبتي وابى الاَّ الانفصال عني فاخذت اتوسل اليهِ باعز ما لديهِ وما يهوى فلم افز بمرامي بل تعهد فراقي راضياً مني بمدد يسد بهِ عوزه فحاولت صده راضخاً لما يبغيهِ ويطمع بهِ فضحيت من اجلهِ كل افكاري وخواطري حتى انني حللت لهُ التقرب من كريمة دارلانج بعد اذ كنت حرمتهُ عليهِ لتباين النسب

فما طرق اذن المستنطق اسم دارلانج حتى تورّد خده من الاضطراب وخفق قلبهُ واختلج صدره فستر وجههُ بما كان لديهِ من الاوراق بحيلة تصفحها ثم اخذ يلوم نفسهُ على قبولها سماع هذا الاستنطاق فخاف ان يتطوح بهِ بعامل الانتقام على رغم استقامته الى الاخذ بحنقهِ من الفيكونت وكان يود لو امكنهُ اعتزال المنصب في تلك الساعة لكن رأى ان لا مناص لهُ من تلك الشدة فشدد عزيمته وعاود وقاره وهيبته فاستانف الاستنطاق قائلاً

— يعجبني قيام الفيكونت على عهوده معك قياماً يشف عن شهامته

وكرامته لكن قل لي اما اني في حديثهِ معك على ذكر الابنة لروج

فاجابهُ الكونت جواب من فطن لشيء اغفلهُ — نعم بالتفصيل

— لا بد من ان يكون قد اراك في شهادة هذه المرأة وجهًا يتوصل بهِ جردي الى اثبات دعواه

— ولذلك كان ابى ان يذعن لامري و يسكن لخاطري

— ارجوك ان تفصل لي تفصيلاً شافيًا ما جرى بينكما فترجع به الى محفوظك عساك ان تاتي بالفائدة المطلوبة من البحث فتزيدني فضلاً فازيدك شكرًا

فقص الكونت عليهِ باجلي بيان ما دار بينهُ وبين البرت حتى استجلى دابيرون الحقيقة فعرف غرض الفيكونت في الحاحه على ابيهِ بالانفصال عن القصر وواجب ارجاع نوال اليهِ ليلقي على عانقهِ اثقال التهمة التي ابهظتهُ . ولما انتهى من سرد القصة قال لهُ دابيرون

— انني لا استطيع ان احكم من نفسي عاجلاً بصحة ما قرّرت وصرحت بهِ ولكن يتبين لي ان الفيكونت قد ارانا بسيرتهِ نهجًا مهده من قبل باعمال الروية والفكرة

— فما لبث ان غرّني وموّه عليّ اما . . . . .

وقبل ان يتم حديثهُ دخل نوال فالقى التحية المالوفة ففاملهُ الكونت احترامًا ثم تنحى عنهُ فقال نوال مخاطبًا دابيرون

— دونك يا سيدي الرسائل التي طلبت اليّ تقديمها بين يديك وارجوك السماح بالانصراف حالاً اريد العود الى مدام جردي لان العلة بلغت بها حد الخطر

فلما سمع الكونت خبر اعتلال خليلته استفزه العجب للسوال لكن المستنطق قاطعهُ الكلام بقولهِ

— مهلاً يا نوال لا تعجل بالعود فان لي حاجة عندك

ثم نهض دابيرون من مكانهِ فامسك بيد نوال وتقدم بهِ الى الكونت قائلاً

—انني انتهز هذه الفرصة لاعرفك بنوال جردي

فبهت الكونت ولم يتاثر من هذه المقابلة كأنهُ قد هيأ نفسهُ لاستقبال جردي

اما نوال فشعر عند مرآه بانزعاج شديد لم يقوَ عليهِ فاضطر ان يستند الى الكرسي ازاء ابيهِ ولبث كلاهما برهة يتخالسان النظر فيلتمس الواحد من وجه الآخر لحًا خفيًا يدرك بهِ ما تكنهُ الضمائر

لكن المستنطق قد خاب امله بما كان يتوقعهُ من اثر هذه المقابلة فيدفع المترافعين عندها الى اظهار عواطف الحب والحنان فيعانق الاب ابنهُ فيتاكد بعينهِ ما سمعهُ باذنهِ واذ كان قد حبط عملهُ بهذا الوجه استانف الكلام مع الكونت فقال لهُ

— ما بالك استقبلت نوال كمن لا عهد لهُ بهِ من قبل على انك صدقت نسبتهُ اليك بحضرتي وعرفت امامي انهُ ابنك الحقيقي

فوجم الكونت شان من لم يسمع الخطاب فتقدمهُ نوال بالجواب قائلاً

— اعلم يا سيدي ان ليس في فوادي وقرًا من سيرتك معي . . . .

فاعترضهُ الكونت بصوت عنيف قائلاً — كان من الواجب عليك ان تناديني يا ابي

ثم حوّل الخطاب الى المستنطق فقال لهُ — هل لك من غرض عندي بعد ذالك

— يجب ان تصغي لما اتلوه عليك من تقريرك لتصدقهُ وتوقعهُ

ثم امر الكاتب ان يشرع بتلاوة الاقرار ففعل ولكن بسرعة يكاد السامع ان يتبين من خلالها الالفاظ فضلاً عن ان يدرك المعنى وكأنهُ قد تعمدها لغرض في النفس اما نوال فكان قد وعى جيدًا ما كان يرغب في احرازه الى

ان فرغ الكاتب من قراءة الاقرار فدفعهُ الى الكونت ليصدقهُ فوقعهُ دون ان يعترض على حرف واحد ثم نظر الى نوال وقال لهُ

-- هيا بنا يا ولدي فاعتمد عليك لحجزي الى ان ابلغ العربة

فنهض نوال مسرورًا بهذه الدعوة فجعل الكونت يده على عاتق ابنهِ وسارا معًا يتخطيان الرواق ودابيرون ينظر اليهما عن بعد ليرى ما يكون من امرهما اثناء الطريق الى ان تواريا عن عيانهِ فعاود مكانهُ وقال — لقد طال بي الزمان على الوقوف بالكونت ولكنني انعزى بما كان عن يدي لنوال من الخير في هذه المقابلة ولم يستطع دابيرون ان يتمادى في النجوى لما كان يزاحمهُ من الاشغال في تقرير الفيكونت وخدمهِ القائمين بالباب ينتظرون فاستنطق جميعهم وسمع اقرارهم فاجمع الكل على تخطئة سيدهم بما رأوه منهُ وما سمعوه عنهُ منذ عهد قريب ولا عجب اذا عرف الخدم بسيرة مولاهم وقد آلفوه ووقفوا بحضرتهِ الساعات فتبينوا من هيئتهِ انقلابًا ظاهرًا

فجميع دابيرون تلك التفاصيل على اختلاف مواردها فقرن بينها وعارض بعضها ببعض متتبعًا سيرة الفيكونت منذ يوم الاحد اليوم الذي اقبل فيهِ نوال الى القصر وقد لخص من اقرارهم ما ياتي :

أن الفيكونت عقيب ان اجتمع بنوال انقطع في الخزانة فاوعز الى الخدم ان يصدوا الزائرين عنهُ معتذرين اليهم بتغيبهِ في الضواحي ثم اباح لهم الخروج للتنزه وحظر عليهم الدخول عليهِ دون اذن . و يوم الاثنين امتنع الفيكونت في غرفتهِ حتى الظهيرة خلافًا لجاري عادتهِ في النهوض من النوم فانفذ مع غلامهِ الى كريمة دالارنج رسالة واوصاه ان لا يدفعها الاَّ اليها او الى مدبرتها ثم انفذ مع خادم آخر الى رجل في الملهى رسالة طواها على قراطيس مالية بقيمة مئة دينار

و يوم الثلثا نهض البرث باكرًا من سريره فاخذ يخطر في القصر خطرات المضطرب شان من ينتظر حاجة يتوقع قضاءها بفارغ الصبر ولما طال انتظاره

انحدر الى الحديقة فسالهُ البستاني رأيهُ في اصلاح بعض الخلل الطارئ على الحديقة فاجابهُ بكل ايجاز -- ارجع بما تطلبهُ الى الكونت عند عودتهِ . ثم انصرف منها الى المربط وهناك وقف عند فرسهِ وقال متنهدًا -- اسفي شديد لبعدي منكِ . ولما كانت الساعة الثالثة جاءهُ رسول بكتاب خاص فاخذه ملهوفًا وتصفحهُ قائلاً على مسمع من بعض الخدم -- لن تستطيع الدفاع . ثم عاد الى القصر فالقى الرسالــة في مستوقد الدهليز . ولما جلس على الطعام عند السادسة اخترق دي كورتيفول والمركيز دي شوزه امره فدخلا عليهِ وطلبا اليهِ ان يذهب بصحبتهما الى اللهو فانكر عليهما الطلب بحيلة ان قد ضرب موعدًا لاخرين يريد موافاتهم اليهِ قصد مشافهتهم بامر ذي بال

وعند الساعة السابعة ونصف على ما روى يوسف الخادم واثنان من رفقائهِ وعند الثامنة اعتمادًا على اقرار الحاجب والغلام لوبان خرج الفيكونت رجلاً وبيده ظلة ولم يعد الى القصر الاَّ عند الثانية من نصف الليل فصرف عنهُ غلام الغرفة الذي كان بانتظاره للقيام بخدمتهِ

ولما كان يوم الاربعاء تعجب غلام الغرفة عندما رأى ثياب سيده وسخة وندية فسالهُ السبب فاجابهُ البرت -- القها عنك في ناحية الى ان تخلعها على احد المعوزين . وعند الظهر جلس على الطعام فالتهم منهُ ما طاب لهُ راضيًا مسرورًا ثم نهض الى الخزانة فامتنع فيها واحرق ما كان لديهِ من الاوراق

اما يوم الخميس فقام مزعوجًا لا يقوى على شيء الى ان كاد يتعذر عليهِ الذهاب امام الكونت

ولما كان المساء حدث بينهُ وبين ابيهِ نفار شديد انقلب عنهُ يئسًا كئيبًا فدخل غرفتهُ وهو على الحال التي بينًا فسالهُ لوبان ان يستدعي الطبيب خيفة ان ينالهُ من شدة الغم عارض من الحمى فاجابهُ الفيكونت -- لا تفعل واياك ان تخبر احدًا بما رأيت مني

تلك خلاصة ما علقهُ الكاتب من التفصيل الذي اخذه عن لسان الخدم

القائمين في خدمة الفيكونت على اختلاف درجاتهم لديهِ ومكانتهم عنده فمنهم من شق عليهِ مصاب الفيكونت ومنهم من لم يكن ليبالي بشدتهِ واخصهم خادمهُ لوبان

ولما افضت النوبة الى زعيم الثقافيين في المثول لدى المستنطق لخص ما كان قد لقيهُ من الفيكونت عند القاء القبض عليهِ وقد مر بنا تفصيله على لسان تاباري واكد ما جاء اسنادًا للتهمة بقول البرت «انني قد تلفت» ثم اودع المستنطق ما كان قد التقطهُ من الادوات والادلة في قصر دي كومارين فتفحصها دابيرون وقابلها بما كان احرزه من قبل في منزل الأَيمة فسر حينئذٍ واكتفى بما وعى من البينات التي تؤيّد جناية البرت فقرنها كلها الى رزمة واحدة وجعلها امامهُ على الطاولة

واذ كان الشفق قد تصرم خشي ان يفوتهُ الوقت لاكمال المهمة في استنطاق المتهم فدعا بالحاجب اليهِ وامره ان ياتيه بشيءٍ من الزاد يقتات بهِ لانهُ لم يذق طعامًا ذلك النهار لمزاحمة الاشغال ثم هيأَ نفسه وتأَهب لاستقبال الفيكونت الذي بعث بطلبهِ اليهِ



الفصل الثاني عشر

استنطاق البرت

ان مبادهة الشرط البرت في القصر وهو في اضطراب شديد من امره قطع بهِ عن تدبير الحيلة فرارًا من ربق الاسر فاخذه الزعيم بيده قائلاً

— أنا نقبض عليك بحكم الشريعة

ثم ساقوه قسرًا الى العربة التي كانت بانتظاره ظاهر الحديقة فجعلوه عليها بين شرطيين وقام ثالث حذاء السائق وكدوا في الجري لا يلوون على احد وكان البرت اثناء الطريق منكس الراس مضطرب البال لا يأنس في ظلمة اوهامهِ بحقيقة ما صار اليهِ بل كانت خواطره كلها متجهة الى الاعية لروج يتمثلها في عينيهِ على الحال التي كان يشهدها فيها حين كان يقبل الى دارها في صحبة والده الكونت . فما زالوا بهِ سائرين الى ان بلغوا باب دار الحكومة فتقدموا بهِ الى كاتب السجن عملاً بالرسوم المالوفة الى ان انتهى من تحقيق حالهِ فجازوا بهِ دهليزًا مظلمًا الى حجرة ضيقة فادخلوه اليها واقفلوا الباب بعد ان نقبوا في جيوبهِ فنزعوا ما كان فيها من المال فما استقر البرت في تلك الظلمة حتى شعر من نفسهِ براحة شملت فكره وصدره لانقطاعهِ عن الناس واعتزالهِ قيلهم وقالهم فاستلقى على سرير كان في جانب تلك الحجرة ونام مطمئن البال خاليًا شأن الغريق اذا اصاب شيئًا يتشبث بهِ حين شدته

وبينا هو على سريره اخذ الخفراء بالباب يتحدثون عن شانهِ حيارى من سكون

بالهِ عند دنو الاجل عقاباً فقال احدهم يخاطب رفيقهُ

— اني لاعجب من هذا الشاب وسكينته حين الاضطراب فما اخالهُ الاَّ جماداً . أنىَّ لهُ ان ينام وهو بين انياب الاسود

— لا تعجب يا اخي ربما كان ممن آلفوا ارتكاب الجرائم وخاضوا ظلمات السجون فابتذلت ماء وجوههم

ثم تقدم الاول فنظر اليهِ من خصاص الباب وقال — انهُ نائم مطمئن نوم من لا يهزه من نفسهِ خاطر

— لا غرابة فيما ترى يا اخي فانني قد شهدت في حياتي رجالاً من درجة هذا السجين يدخلون السجن دخولهم الى غرفهم او الى الملهى والسبب في ذلك انهم يقلقون قبل ان يتاكدوا الحكم في دعواهم حتى اذا ثبتت التهمة وتاكدت الجناية انقلب قلبهم الى الراحة والسكون

— فما الراحة للسجين على حد الموت

— ان القلق والارتياب لمن اشد العذاب فلو كان لديك شيء من المال لكنت افيدك من الاختبار ما قصرت عنهُ همك حتى الآن اجعل ان شئت مالك في المقامرة وانت بعيد منهُ واصبر اذا امكنك الصبر على انتظار طالع جدك . فهناك تعلم موقناً بما يكون من القلق حتى اذا اتاك خبر فقدانها زال اضطرابك وسري عنك بقولك . ما الحيلة ذلك طالعي وهذا جدّي

— ان بيانك يا صاح يدل على اختبار طويل بل يشير الى انك بليت قديماً بمثل ما بلي بهِ اسيرنا

— لولا ولوعي بالمقامرة ومعاناتي اخطارها لما كنت قرينك فما لنا الآن واطالة البحث عند هذا الباب فانتظر هنا قيام السجين ريثما اعود اليك قريباً

فما طال رقاد البرت نحو اربع ساعات حتى هبَّ من سريره خالي البال حاضر الذهن فتاسف وتنهد قائلاً في نفسهِ — ما احوجني الى البأس والقوة حين الشدة . ثم تهيأ لهُ ان يدعو من في الباب لحاجة في نفسهِ يروم ان يكاشف

بها آخر فلم يتيسر لهُ ذلك فقال لا باس فلا بد ان يوافيني احد . ولما اراد ان يعرف الزمان طلب ساعته فلم يجدها لان الخفراء كانوا قد نزعوهـا عنهُ قبل دخولهِ فكبر عليهِ ذلك وقال — ويلاه أَالى هذا الحد تبلغ بي معاملتهم العنيفة اسفاه ما هذه الحال التي صرت اليها أأُجرَّد من مالي كما يجرّد الدهر الصعلوك فيبغي عليهِ حتى يجعلهُ على الطريق سائلاً

ثم نظر الى ثيابهِ فالفاها على غير انتظام فحاول جهده اصلاحها وغسل وجههُ وجلس على سريره منكس الراس جائلاً في بيداء الاوهام والافكار

وكان الخفراء يرقبونهُ من خصاص الباب فلم يسمعوا من هجسهِ شيئًا الاَّ كلمة واحدة بدرت من فيهِ وهي (الشرف) فقال احدهما للآخر

— ان مثل هولاء يلهجون في هذه الكلمة ولا يعرفون لها معنى

وبينا كان البرت على الحال التي ذكرناها جاء اليهِ الشرط بطلب المستنطق فقام اليهم مليًا وسالهم ان يمهلوه ليروي غليلهُ ففعل ومشى بينهم يقصد غرفة المستنطق

ان دابيرون كان قد استولى عليهِ الحزن وخيمت على قلبهِ الكآبة منذ بعث الجند بطلب البرت فقام يتخطى في عرض غرفتهِ وهو يوجس في نفسهِ خيفة الحيد عن طريق الحق في معاملة الفيكونت لما عنده منهُ فقال — تبًا لي انا الشقي في الاذعان لنفسي ضنًا بشرفهـا وحرصًا على حتها . فعبثًا احاول تسكين اضطرابها وهي لا تزال تثير وتهيج حقدًا على خصمي على انهُ ليس من العدل ان اقوم لديهِ مقام الحكم وقد كنت بالامس معتمدًا قتلهُ آه يا ليتني فعلت فجعلتهُ حكمي . نعم نعم لو كان الحكم يبنى على النيات لاستحقيت الهلاك دون رحمة فعليهِ يقتضي ان امثل نفسي على هذه الحال ساعة استنطاقهِ . . .

فما كاد يتم نجواه حتى سمع حركة في الرواق فقال — ها قد اتوا . فعاود عجلاً الجلوس على منصتهِ واخذ بعض الاوراق التي كانت امامهُ فجعلها في يده ستارًا يستر بهِ اضطرابه عن عيون خصمهِ بحيلة الاطلاع عليها وتدقيق النظر

فيها

وفي تلك الاثناء دخل البرت غرفة المستنطق فوقف بهِ واضع الجبين رافع النظر مكمد لون الوجه من اثر العناء والسهاد فبدأه دابيرون بهذه الاسئلة التي كان رتبها قبلاً تخفيفاً لاضطرابهِ فقال

— لا خفاك ان لا مسوغ لك بالانتساب الى البيت الذي نسبت اليهِ

— نعم يا مولاي وقد عرفت يقيناً انني مسبع دي كومارين وان لابي ان ينكرني متى شاء

— فاي اثر وقع في نفسك عند العلم بذلك

— لا اكتمك يا مولاي شدة الحزن التي نالتني عندما علمت بهبوطي من شاهق العزة الى حضيض الخسة والذل على انهُ لم يخطر ببالي ان اغتصب المحامي نوال جردي حقوقهُ من ابيهِ بل كنت ولم ازل كما يعلمهُ دي كومارين مصرّاً على مزايلة قصره وتخلية الحقوق لاصحابها

— ليس لك ان تنكر على جردي حقوقهُ فلو قدّر ان الكونت وامك يشهدان لك بما تدعيهِ لابطلت شهادتها شهادة الايه لروج

— ما هممت قط بظلمهِ

— فلا بد اذن ان تكون قد فتكت بتلك الآية حرصاً على مصلحتك

ان هذه التهمة التي رمى بها دابيرون البرت لم تفعل في نفسهِ ابداً ولم تحدث في ظاهره تغيراً فاجاب بصوت بيّن

— اقسم بالله وآياتهِ انني بريءٌ مما يفترون فليس لي يا مولاي في ظلمة الاسر الاّ رحمتك وعدلك لتأييد براءتي

فتعجب المستنطق من جراءة البرت وحار مما رآه فيهِ من سرعة الخاطر والبديهة فاستانف النظر في الاوراق المرصوفة لديهِ مستدلاً بها على ما يهمهُ معرفتهُ فيها ثم قال

— ماذا اردت بقولك (تلفت) عندما القي القبض عليك

— لما علمت يا مولاي بالسبب الذي من اجله احدق بي الجند وضح لعينيّ المستقبل يعضل بالشرور وانفسح لي مجال الفكر في غوائل التهمة التي اوقعوني بها دون نصير فسمعت باذني صوتًا يقول « من الراغب في قتلة كاودين » ولعظم الخطر المحدق بي هتفت قانطًا من الحياة . ويلاه لقد ادركني التلف

— وهل اغبرك رغبة في قتلها وقد تاكد لدينا ان السبب لم يكن سرقة كما اوهم القاتك فاخذ بعض المتاع فالقاه في السين واحرق ما كان عند الايمة من الاوراق . فان كنت تعلم بمرتكب هذه الجناية فاعلنهُ للحال

— يتعذر عليّ الجواب على سوالك

— هل زرت المرأة كثيرًا

— ثلاثًا في صحبة والدي

— كيف تقول ثلاثًا وقد اعلن لنا احد الساقة بذهابك اليها عشرًا او يزيد

— انهُ لفي ضلال مبين فضلاً عن ذلك ما ضرّني لو اكثرت من زيارتها

— هل عرفت بموقع الدار واقسامها

— نعم يا سيدي ان الدار تالفت من غرفتين وكانت كاودين تبيت في الغرفة القصوى

— انك لا ريب من اصدقاء الايمة فلو ذهبت اليها ليلاً فطرقت شباكها اسرعت اليك فاستقبلتك واكرمت منزلتك عندها

— صدقت فانها تحتفي بقدومي متى اقبلت اليها

— هل اصابتك علة في هذه الايام

— انني منيت بخطبٍ هدَّ مني القوى وانهك جسمي

— فلمَ منعت خادمك لوبان من طلب الطبيب

— وما ينفع دواء الطبيب لداء حرماني من الجلاء والكرامة

— كنت تهذو بكلام يشير الى انك تجرّدت من الاهتمام بمصلحة آل

دي كوماربن وما اكتفيت حتى جاهرت بذلك واحرقت ما كان عندك من الرقاع والرسائل

— كان من عزمي ان اهجر القصر بتاتًا

ولما رأى دابيرون ان النهج الذي انتهجهُ في استنطاق البرت كان عبث اطفال لا ياتي بفائدة عدل عنهُ واخذ طريقًا آخر للارهاب والتخويف فقال

— اين كنت مساء الثلاثا الماضي وبمَ قضيت زمانك تلك الليلة

فاربدَّ وجه البرت عند هذا السوال وداخلتهُ الحيرة فاطرق برهة يفكر ثم اجاب وهو يردد السوال ويتردد فيهِ قائلاً

— كنت ليل الثلاثا . . .

فلما رآه القاضي مترددًا في الجواب اكد سقوطهُ فكرّر السوال ملحًا بالجواب عليهِ قائلاً

— قل اين كنت تلك الليلة

— لا اكتمك يا مولاي عجزي عن بيان صحة ما كان مني تلك الليلة لانني لم افطن لشيء من آثار ما فعلت فيها

— لا اقبل بهذا النسيان لانهُ لو كنت قد دعوتك لبيان ما كان منك منذ ثلاثة اشهر لعذرت نسيانك ولكن اطالبك بتفصيل ما فعلت منذ ثلاثة ايام اي آخر يوم المرفع فلعلَّ ذكر هذا اليوم يذكرك شيئًا من اعمالك اثناءه

— انني خرجت تلك الليلة . . .

— بيّن كلامك ولا تبهم واين تناولت طعام العشاء

— في القصر جريًا على عادتي

— كلاً فانك قد خالفت نظام القصر على الطعام فعقيب ان فرغت من العشاء طلبت زجاجة من الخمر فترشفتها كلها ولا بد ان يكون لذلك من سبب فربما كنت تقصد هياج الخاطر بسورة الخمرة

— لم يكن لي يا سيدي من خاطر اثيره

— كيف لا وقد جاء صديقان بطلبك فاجبتها قبل ان تجلس على الطعام انك قد ضربت موعدًا لآخرين فلا بد لك من الموافاة اليهم لقضاء امرٍ خطير

— تلك حيلة قصدت ان ادفع بها عني

— لماذا

— لانني كنت ارغب في العزلة تفرغًا للاخذ بالاسباب التي تلطف بعض ما نالني من الغم والشدة في الحكم بانفصالي عن آل دي كومارين وحرماني من خيراتهم

— يبادر للذهن انك تخلفت عن الصد يقين ضنًا بغرضك في الذهاب الى لاجونشار وقد كنت قلت نهارًا «انها لا تستطيع الدفاع او المقاومة» فمن عنيت بذالك

— ان الذي اوجب هذا القول هو انني كنت كتبت قبلاً رسالة الى احدى السيدات فاتاني جوابها بعكس الامل فجحت بما اثر في نفسي قولها عرضًا ليس غير

— هل كانت تلك الرسالة من امرأة

— نعم

— فما فعلت بها

— احرقتها

— كفى باحراقك الرسالة مظنة

— كلاَّ يا سيدي فانها تضمنت امورًا خاصة

فتاكد لدى دابيرون ان تلك الرسالة كانت من كف كلارا فانتبه فخطر له ان يسالهُ بيان اسم كاتبتها لكنهُ خاف ان يتاثر عند اشهار الاسم فحوَّل نظره برهة بحيلة اهتمامهِ في التنقيب ثم سالهُ وهو مطرقٌ

— من كانت صاحبة الرسالة

— من لا استطيع التصريح باسمها

فاستاء المستنطق من انكاره فرفع رأسهُ وقال — اعلم انك قد صرت الى حالٍ اكدت لي شرك فلا تزيده بتمويهك واشرح ما عندك صراحة لان ليس لمن يقف موقفك ان يكتم الحكومة امره واحذر العقاب

— لا اكتمك يا مولاي الاَّ ما كان يناط بغيري وليس لك حق في الاطلاع عليهِ

— فما كان منك بعد العشاء

— زايلت القصر

— كلاَّ فانك خلافًا للمعتاد لبثت مكانك على الطاولة تدخن حتى تعجب الخدم من عملك الغريب فباي تبغ كنت ثم تدخنَّ

— من النوع المعروف (بترابيكو)

— في اية ساعة زايلت القصر

— نحو الثامنة

— هل كان معك ظلة

— نعم

— الى اين كان مصيرك

— لم يكن لي من موضع خاص اتوجه اليهِ

— أتخرج من دارك لغير قصد

— نعم

— بيِّن لي اذن الوجهة التي انتحيتها

— يتعذر عليَّ يا مولاي ذالك لانني كنت قد قصدت في خروجي ترويح النفس مما دهمها من الهموم والغموم فسرت على غير هدى سير من يهزه القلق وتتنازعه الحيرة فلم اقف عند حد معلوم

— لا صحة لما تدعيه

أنا لنعجب من انكار دابيرون صحة قول البرت في الغي عن قلق واضطراب وقد قرأنا عنهُ قبلاً ما ابان وجوده ايضًا على هذه الحال فبمَ كان يجيب سائلهُ صباح تلك الليلة التي كان يتهادى فيها بين الرصيفين يهزّهُ معاطفهُ سكرًا من الاشجان ويهوي للارض ثم يقوم كالتائه الولهان فلربما كان يتعذر عليهِ بيان حقيقة امره تلك الليلة . ولكن لا يلام اذا خطأً الفيكونت وهو على منصة القضاء وقد خلع العدل عنهُ ثوبًا نسجتهُ الاهواء وازال من فواده غرضًا لا يقوم معهُ الحق فارشده سبيلهُ آخذًا بناصر المستجير بهِ

وما كان اشبههُ بصديقين عمدا الى عمل السيف تلهيًا حتى اذا ثارت في عروقهما الحمية وتشاجرت النصال في شدة النضال تغلبت الاثرة على فواد احدهما فاعمتهُ عن الغرض من عملهما فانفذ سيفهُ في صدر صديقهِ عن حدة لا تعهدها فقتلهُ باكيًا عليهِ

ثم استانف دابيرون السوال فقال لهُ

— هلاَّ لقيك احد في طريقك نستطيع استكشافهُ عن حالك تلك الليلة أما دخلت الملهى فوقفت عند احد الباعة في ادلاجك ومسراك

— كلاَّ

— يسوءني ان اعلمك بما ينالك من هذا الانكار وفوات الدليل على موضعك تلك الليلة . لانهُ اتفق خروجك من القصر على هذه الحال في الليلة التي قتلت بالايمة لروج فناج سرك وحدَّث نفسك بما كان منك في تلك الليلة علك تاتي بما يدرأ عنك الشبهة وقد عرفت الحكومة بالساعة والدقيقة التي حدثت فيها الجناية فتنبه

فعندئذٍ بهت البرت وحار لا يدري لضيقهِ فرجًا فامرَّ يده بجبينهِ كدرًا وقال

— لا اذكر شيئًا من امر تيهي تلك الليلة

فتعجب دابيرون من عجز البرت عن الدفاع الى حد انهُ لم يستطع ان

يحول وجوده تلك الليلة وفي تلك الساعة الى مكان أَلِف انتيابهُ فيدفع عنهُ نبال التهمة المسددة وكشف عن الاوراق التي احرزها كادلة صريحة تشهد على البرت فقال لهُ

— تقدم وابصر بما هو لديك اما انها تخصك

— نعم يا سيدي كلها لي

— من كسر هذه السنان

— انا اثناء معاركتي كورنتين وهو شاهدي

— ساتاكد ذلك واين طرفها الآخر

— لا اعلم فمن اجل ذلك نستفهم لوبان خادم الغرفة

— هو الذي قال بجهلهِ موضعها ولا خفاك ان الآلة التي عمل بها القاتل على قتل الأيمة هي السنان وشاهدنا في هذه الشقة التي مسحتها بها

— مهلاً يا سيدي فاذا شئت مر من تثق بهِ ان يسعى بطلبها لعلهُ يعثر عليها فتتاكد حقيقة كلامي

— لا بد من العثور عليها ولكن لديَّ من الادلة ايضًا ما يفحمك وهو انني قد اخذت على الورق رسم قدم القاتل بعد ان طبعتها على الجبص وقد اراها تحاكي قدمك

وكان البرت يتتبع تلك الآثار بفواد غصٍّ بالاحزان والاكدار فزاد هلعهُ الى ان ضعف عن الدفاع معهُ فكان كلما اراه المستنطق اثرًا من الآثار قال بحقيقتهِ الى ان قال لهُ دايرون

— وما قولك بهذه الظلة ورسم فلكتها اما تحاكي ظلتك فقابل فلكتها بهذه وانكر اذا استطعت الانكار

— ان مثل الظلة والفلكة كثير فلا عجب اذا تشابهت ادوات صانع واحد

— وما اعتراضك على هذه السيكارة

— لا انكر انها من النوع المعروف بالترابيكو وقد يتفق وجوده لدى الكثيرين

— لا باس ان الجاني كان في يده ساعة فتك في الايئة لروج كنوف رمكاء (رمادية) ولما كانت الطعنــة قد فعلت في ظهرها فتشنجت اعضاؤها تشبثت بكف القاتل قبل ان يفصل عنها فشجتها وها اننا قد وجدناها لديك فقابل بين هذه الآثار و بينها أليس انها منها او تدل عليها

فلما ابصر البرت بعينيهِ تلك الآثار التي تشابه العين كل المشابهة انتفى الريب و بدت الحقيقة باجلى بيان فاكمد وجههُ وارفض العرق البارد على خدّيهِ ووجفت يداه حتى عجز عن تحريكها فقال بصوت خنقهُ الاسف — و يلاه ماذا دهاني

ثم استانف المستنطق بيانهُ وقال — لا ريب ان هذا اللباس هو الذي كنت ترتداه تلك الليلة بدليل ما عليهِ من الوحول وما ركبت فيهِ من الصعاب فمزقتهُ تمزيقًا · اذا كنت قد اضربت عن معرفة قصدك بالخروج تلك الليلة فلا اغفل سوالك عن الموضع الذي مزقت بهِ ثوبك فلطختهُ بالاوحال

أنىّ لالبرت ان يثبت في المجال وقد اشتد عليهِ تسديد النبال ولما لم يرَ ما يستجنُّ بهِ و ينفي نفوذها هوى الى الكرسي قائلاً

— لقد جننت مما سمعت ووعيت

واستطرد المستنطق حديثهُ وهو شاخص في البرت الى ان قال لهُ — أَلا تعلم انك انت قاتل الايئة لروج

— غاية ما اعلم انهُ سافضي ضحية العجائب والغرائب التي تذهب بعقل الانسان على انني ما زلت أُويد براءة ساحتي

— نعم اذن بمكانك تلك الليلة . . .

— مولاي لا ريب ان من كان . . . .

ثم عدل عن اتمام اعتراضهِ فقال بصوت ضعيف — لقد قلت قبلاً بما علمت

فعندئذٍ نهض دابيرون وقد رأى ان يزيد البرت عجبًا من بيانهِ فقال

— ان كنت تجهل مكانك ليل الثلاثا فانا اعلمك بهِ واذكرك بموضعك من منزل الايمة لروج . انك عقيب ان ترشفت ليل الثلاثا من الخمر ما رنح عطفيك خرجت عند الثامنة من القصر آخذًا في طريق موقف سان لازار فبلغت عند التاسعة موقف (ربويل) الخ الخ . . . .

فسرد لهُ القصة بوجوهها دون ان يغفل منها حرفًا حتى ذهب ببقية روع المتهم ثم اطرد الكلام الى ان قال لهُ

—لا يفيدك الاصرار على الانكار وقد وضحت الادلة وانكشفت الاسرار فصرّح بالاقرار تغنم العفو والاّ نالك من العقوبة على عنادك ما لا تقوى على احتمالهِ

وكان دابيرون قد توهم في المتهم نهاية الضعف عن رد بيانهِ الى ان خالهُ لديهِ ساقطًا على قدميهِ مستجيرًا بهِ يسالهُ الرضى والعفو

اما البرت فتقمص من الضعف ثوبًا جديدًا فنهض من سقطتهِ وقال

— لا انكر يا سيدي ما في الادلة التي قدمتها من الالسنة التي تنطق بذنبي ولكن لو تمثلت نفسك مكاني وعلى الحال التي انا عليها لما قلت بغير ما نقول . انما اقسم باعز ما عندي انني بري لا مما يتهمون

— لا تحنث بيمينك

— انني صرّحت واصرّح ايضًا ببراءة ساحتي من التهم التي لا احاول نقضها وقد اصابتني سهامها الصائبة حتى انها افحمتني بصحة بيانها وسديد برهانها نعم نعم انني هالك لا محالة لعجزي عن الاتيان بما يردها عني و يوكد نزاهتي لكن لم ازل على رغم حقيقتها متشبثًا بعرى الامل الى ان ياتيني الله من فضلهِ نصيرًا

— ما تعني بقولك

— ليس غير ما قلت

— انصرُّ على الانكار

— انني بريء

— ذلك هذيان

— كلاَّ يا سيدي بل حقيقة لا يعتورها التباس

— حسبنا اليوم ما تبيناه من امرك فاستانف الخطاب في دعواك الى يوم آخر علك ترعوي عن غيك فتهتدي الى صوابك بعد امعان الفكرة في خلوتك فاسمع الآن صورة الدعوى التي يتلوها عليك الكتاب واذا عنَّ لك ان تكاشفني وانت في محبسك بشيء مما يناط بدعواك فابعث بطالبي اليك متى شئت ذلك وانا اوعز الى الخفراء في تلبية طلبك

وعقيب ان سمع البرت قراءة الشكوى انصرف الى محبسهِ يخفره الجند كما كان عند خروجه منهُ

ان دابيرون كان قد ثبت لديهِ بعد اطلاعه على اقرار الشهود واستئناسهِ بسكوت البرت في معرض البيان ان الفيكونت هو الجاني وان اصرَّ على الانكار لكنهُ عندما خلا بنفسهِ لم يشعر منها بتلك الراحة التي يدركها الخصم اذا فاز بدعواه على خصمهِ او بذلك الفخر الذي يتيه بهِ الانسان اذا تمكن من حل معضلة قصر عنها الآخرون بل كان فوزه بالبرت علةَّ للقلق والانزعاج فدهمهُ من جراء مضايقتهِ ثورة لم يسعهُ تسكينها فعاد باللائمة على نفسهِ يعنفها على التعرض في امر كان عنهُ في غنى . فناجاها قائلاً — لو كنت اعتزلت مقامي فانكرت استكشاف البرت لكنت الآن في راحة من هذا العناء الذي جلبتهُ لنفسي بيدي دون ان افقد شيئًا من المرام الذي تعمدتهُ لان الحكومة كانت قد عهدت الى خلفي بفصل هذه الدعوى فحكمت على البرت بما جناه وسلمت لهُ باستقالتي من شاك الضمير واوم كلارا فيتيسر لي ان اجتمع بها

فاسليها على مصابها والطف حزنها اما الآن فاذا قضي على البرت حبيبها قضت لا شك عليَّ بالبعد منها اذ اكون قد بحثت عن حتفهِ بيدي واذقتها صاب عذاب لا عزاء لها بعده

فاخذ المستنطق يلج في تعنيف نفسهِ ويزداد بغضاً لالبرت من جراء اعتراضهِ دون راحتهِ وهنائهِ فيصب على هام تاباري الشتائم ويوسعهُ سباً لانهُ ساقهُ الى هذه التهلكة بيده

وبينا كان دابيرون يناجي نفسهُ ويعاتبها على اقتحام خطر الانفصال عن كلارا بالحكم على البرت دخل عليهِ تاباري يروم الوقوف على نتيجة الاستنطاق فسالهُ قائلاً

— ماذا كان جوابهُ

فاجابهُ المستنطق معرضاً عنهُ — لا ريب انهُ الجاني

فحار تاباري من استقبالهِ بعد اذ كان قد علل نفسهُ بالاطراء والثناء على حذاقتهِ فقال لهُ

— جئتك يا مولاي قصد الوقوف على خاطرك في ما تراه من ضروريات البحث وتاكيد ما انكره المتهم بالبيّنة

— لم يدع ما يوجب اثباته

— هل افحمتهُ يا مولاي باسئلتك فلجأ الى الاقرار

— كلاً انهُ لم يقر بذنبهِ غير انهُ صدّق ما قدمنا من البراهين القاطعة مصرّحاً بعجزه عن بيان استعمال المدة التي مرّت بهِ منذ يوم الثلثا موكداً براءة ساحتهِ من التهم

فتعجب تاباري وبهت مما سمعهُ عن حال المتهم فلبث واقفاً كالذاهل عن شأنهِ وكونستان الكاتب ينظر اليهِ ساخراً منهُ لتنوّع اشارتهِ في نجواه قائلاً

— عجباً كيف لم يدّعِ البرت باختلاف المكان والزمان ردّاً للتهمة. فربما قد اخطانا الغرض في الايقاع بهِ والقاء التهمة عليهِ. لا ريب ان الجناية

قد نعدت الى غيره

وما زال يشير بيديهِ حائرًا من امره الى ان حسبهُ المستنطق يهزُّ سكرًا فقال لهُ

— اننا لم نضل وقد وضحت لنا الحقيقة في عرض البينات فضلاً عن ذلك اذا شئت ان تشهد ذلك بعينيك فتصفح صورة الدعوى حرفًا حرفًا ريثما ارصف اوراقي

فجلس تاباري الى جانب كونستان واخذ يتصفح بيان الدعوى الى ان فرغ منها باقل من ربع ساعة فرفع رأسهُ مزعوجًا مقطب الوجه وقال مخاطبًا المستنطق

— انني اتيت على غير عمد خطاءً عظيمًا فالرجل بريءٌ من كل ذنب فاعترضهُ دابيرون وهو يتهيأُ للانصراف قائلاً — ما تقول يا صاح أتنفي التهمة بعد ما تصفحت بيان الدعوى

— نعم يا مولاي انني اهتف قائلاً . قف بنا عند هذا الحد من الظلم قبل ان نتمادى في الضلال فنجمع على هامنا من غوائلهِ ما لا يسعنا معهُ العيش . دقق النظر في الاستنطاق ترَ ان الشاب لم يأتِ بجواب يتهمهُ بل يتضح لك منهُ وجه الصواب

— كيف يليق بك يا تاباري ان تنكر ما اثبتهُ قولاً وفعلاً فحملتني كرهًا على تصديقهِ

— لم انكر يا مولاي حقيقة حدوث الجناية وصحة الادلة التي اتصلت بنا عليها غير انني لم اتعمد في ما وجدت رجلاً معروفًا بل قصدت في ما اتيت هدايتك في الدعوى فاذا كانت البينات التي الفيتها بين يديك لا تتهم البرت فانها تشير الى غيره وقد تاكد لنا من الاسباب التي اتخذها الجاني في ادراك غايته ان هي الاَّ نتيجة اختبار طويل وحذاقة غريبة في بابها على انني ارى من اطلاعي على صورة الدعوى ان البرت لم يأتِ لتغفلهِ بشيء يشير الى تلك

الحذاقة حتى انهُ لم يتصدَّ لك في اعتراضهِ الى اختلاف المكان حيلة يتحلها السدَّج في بدء الدفاع عن نفسهم فلا ريب ان الفيكونت براءٌ من التهمة

فعقيب ان تامل دابيرون الثقاف المتطوّع ساخرًا من هذيانهِ ردَّ عليهِ تنصلهُ من الشكوى قائلاً

— لقد اخطأت يا صاح في ما ادعيت فلا تنظر الى غيرك بمرآة نفسك فتحسب انهُ قد اوتي من الذكاء والدهاء ما اوتيت فاعلم ان صاحبنا لم يفته الاعتراض الاَّ لتعذره عن ازالة الشبهة

— كلاَّ يا سيدي ان الجاني الذي اتعمده شديد الحذر والخوف على ان البرت لم يفته الدفاع عن نفسهِ الاَّ لما رآه من اتفاق البينات التي تقضي عليهِ دون رحمة . فاقتصر عن الجواب على اسئلتك بكلمة العجب . شان الضعيف المظلوم

— انني ارتاح الى البينات فيطمئن خاطري الى سجنهِ دون اعتراض

— كم يتفق يا مولاي للحاكم ان يقضي بما يجمع لديهِ من البينات والبراهين على المتهمين وقد جرى لي ذلك في دعوى الخائط (كاذر)

— اذا لم يكن الجاني على الايمة من كان لهُ غرض في قتلتها فمن جنى عليها اذن . أتتهم اباه الكونت

— كلاَّ فان الجاني غض الشباب

وفي تلك الاثناء كان المستنطق قد انتهى من ارصاد معدات الرحيل فاخذ قبعتهُ يريد الانصراف فقال لتاباري

— اكاد يا صاح أعيي من الجهد في العمل فاستانف الخطاب الى الغد وانت يا كونتسان اقصد السجن واسال الحفراء هل طالبهم كومارين المتهم بمكاشفتي

ثم نحا نحو الباب فاعترضهُ تاباري قائلاً

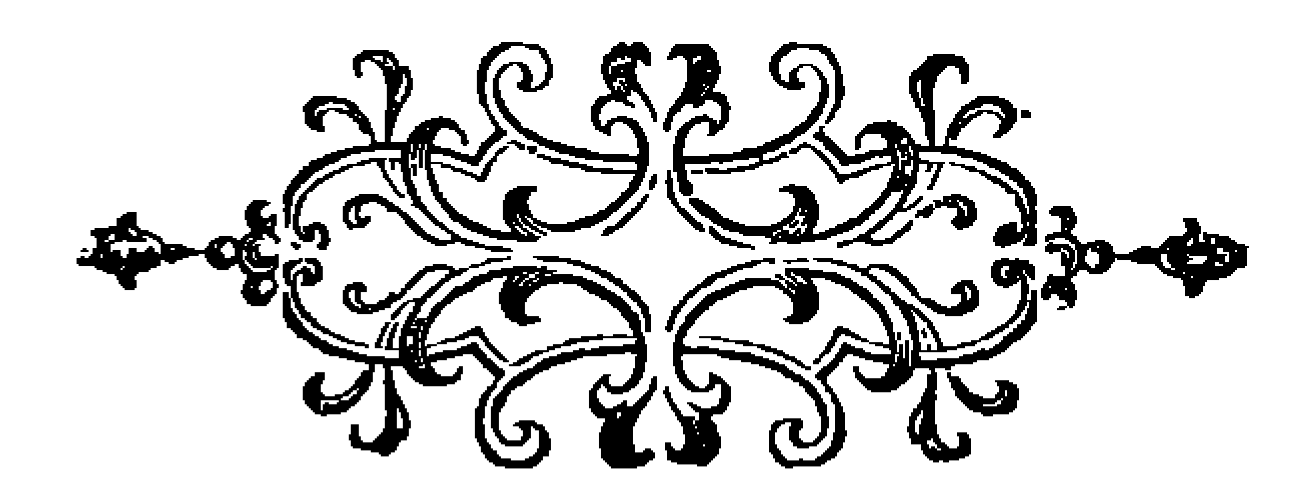
— تاكد يا مولاي انهُ بريء واسعدني بجهدك وجدك على طلب الجاني

الحقيقي واحذر الملامة اذا انفذ الشرع حكمهُ في البرت

فانزاح عنهُ دابيرون واستمر سائرًا في طريقهِ دون ان يبالي بهِ فحوّل اذ ذاك الثقاف المتطوع انظاره الى الكاتب كونستان واراد ان يقنعهُ على ترك الدعوى فما صادف لديهِ قبولاً لان الكاتب كان قد نال ايضًا من عناء النهار ما ازعجهُ جدًّا فدفعهُ الى الانصراف عجلاً دون تاخير

فاضطر تاباري ان يقف في الرواق قبيل باب غرفة المستنطق عرضة للوساوس التي كانت تتنازع صدره فقال في نفسهِ

— ويلاه لقد جنيت على البرت البريء بما سقت المستنطق اليهِ خطأً فاكرهتهُ زورًا على حبسه . فماذا يحل بي انا الشقي اذا دفع اليأس الفيكونت الى الانتحار ظلمًا . وكأين من المظلومين يقضون على انفسهم قبل ان تقضي الشريعة عليهم . لكن لا يسعني ان اتقاعد عن نجاتهِ كما قمت في القاء القبض عليهِ . نعم نعم انهُ يترتب عليّ ان اسعى في انقاذه من سلاسل الاسر واهمّ في طلب الجاني الحقيقي الذي كان عثرة في طريقي . ولا بد اذا اهتديت اليهِ ان آخذ بحقي منهُ



الفصل الثالث عشر

اجتماع نوال بالكونت دي كومارين

عقيب ان شيع نوال جردي الكونت دي كومارين والده الى العربة التي كانت بانتظاره عند باب دار الحكومة اراد ان ينكص على عقبيهِ قائلاً

— متى ياذن لي الكونت ان احظى بالمثول لديهِ وافيًا بما يترتب لهُ عليَّ من واجب الاكرام

— لا تذهب وكن في صحبتي

فاراد نوال ان يعتذر لديهِ عن الذهاب معهُ فاعترضهُ الكونت قائلاً

— قلت لك ان تذهب في صحبتي دون اعتراض

فاطاع نوال امر ابيهِ وقام الى جانبه في العربة فاستانف الكونت الخطاب قائلاً لهُ

— لقد لقيت اباك وفقدت الحرية

فجرت بهما العربة جريًا سريعًا الى ان وقفت بهما عند باب القصر فترجل الكونت يعضده نوال صاعدًا بهِ الدرج الى الغرفة وكان الخدم قد تالبوا من كل ناحية الى الباحة يتفاوضون في شان الحادثة التي جرت صباحًا و يتعاطون الاحاديث متسا ئلين عن الاسباب التي اوجبت هذا التغيير فجعلت نوال في الدار بدل الفيكونت وقد عرفهُ احد الخدم يوم دخل على البرت فاشار لرفقائهِ عنهُ

ان خبر القاء القبض على الفيكونت ذاع في الحي فتناقلتهُ الالسنة وعلقت عليهِ ذيولاً متضاربة بعضها يشف عن حسد وغيرة منهُ وبعضها عن حنق عليهِ ولم يكن يخطر ببال احد عيون تلك المحلة ان يرسل الى القصر من يقف على الخبر الاكيد في هذا الشان بل اقتصر جميعهم على العلم بما شاع وهو : انهُ لما انصل بالحكومة نبأ وقوع الجناية وجهت الثقافيين للبحث عنها والتنقيب في اسبابها فالقت القبض على المتهمين بها ولم يعلم احدٌ بنتيجة البحث بل لم يزل سرًّا غامضًا

فقال احد الخدم — العلَّ هذا الشاب الذي جاء في صحبة الكونت هو ابنهُ الحقيقي

فاجابهُ آخر وقد كان في اثر الكونت — ربما صح قولك في ذلك فقضى سيدنا على البرت بالانفصال عن الدار كما يقضي على احد خدامهِ

فاعترضهُ واحد منهم واسمهُ يوحنا — اني لاعجب من كلامكما في هذا الشان وهل يتفق حدوث ذلك في دار الكرام

— لا تعجب يا صاح مما يجري كل يوم وقد شهدناه مرأى العين

— أنىَّ يكون ذلك

— ان ما يبان لي سببًا في هذا الانقلاب الغريب هو ان الكونت قد اهتدى الى ابنهِ بعد اذ فقدتهُ امهُ قديمًا فاعاده اليهِ واسبغ نعمتهُ عليهِ

— ومتى كان عهد فقدانهِ

— انني لا استطيع ان آتيك ببيان ذلك على ثقة ولكن يترجح عندي ان سيدتنا الفقيدة ربما كانت قد قصدت بهِ اذ كان طفلاً مثابات التنزه فعرضت لها بعض القرويات اللاتي دأبهنَّ السلب فاختطفنهُ منها فشق عليها العود الى القصر دونهُ خيفة غضب زوجها فكتمت الحادثة وابتاعت من احدى المعوزات طفلاً . . . .

وقبل ان يسهب الخادم في روايتهِ المختلفة عاد لوبان ويوسف من دار

الحكومة فدخلا القصر وانضما الى رفقائهما فاسرع الكل الى استعلامهما حقيقة الحال طالبين الى لوبان غلام غرفة الفيكونت ان يفيدهم نتيجة البعثة فما ضنّ بعلمهِ عليهم فقال للحال

— نبأ لالبرت من شقي غبي فقد مزّق بيده ستار الكرامة وعرّضني [illegible] للخزي والعار بعد اذ كان قد تبوأ مكانًا عليًا فياليتهُ وقف بفعلتهِ عند [illegible] سيدهِ بل اذاني بخدمتهِ وألحق بي الملام . فما كدت اقف امام المستنطق حتى استقبلني بهذا الكلام قائلاً – ألا تخجل من القيام بخدمة الجاني على كهلة وفتاة لم تتعدَّ الثانية عشرة

فاعترضهُ يوسف قائلاً – ما اخالهُ الاَّ جاهلاً غبيًا فما كان اغناه عن اقتحام الشرّ بنفسهِ ولديهِ من المال ما يكتب الكتائب لانفاذ مآربه

— لا تخف يا اخي عليهِ شرًّا فان المثري يقوى على التنصل من التبعات بقوة درهمهِ وعن قريب سترى الفيكونت فائزًا ظافرًا

فقال الطاهي (العشي) – آه ليتني اقف بباب الكونت فاسترق السمع لاعلم بما يدور بينهُ وبين زائره من الاحاديث السرّية

فانكر عليهِ الخدم هذا الراي فعطلوه قائلين – لا يليق بنا ان نتجسس الابواب ان كنا امناء فضلاً عن ذلك ان الكونت كان قد جعل غرفتهُ في مكان يأمن فيهِ شرّ الجواسيس فخصّ احد الخدم واسمهُ دانيس بالدخول عليهِ فقط دون غيره وقد جعل لهُ بدل امانتهِ جعالة جزيلة

فلنستانف الكلام عن الكونت في خلوتهِ مع نوال فنقول ان دي كومارين عندما جلس على كرسيهِ وسط غرفته تالبت اليهِ الخواطر المزعجة على اثر ما دهمهُ من الذل في الوقوف بحضرة المستنطق وما بدا منهُ عن غير عمدٍ من الضعف في خطابهِ فلام نفسهُ على الاقرار باسراره واباحتهِ ضمائره

اما نوال فكان ملتزمًا في الوقوف لديهِ كل احترام ينظر اليه ولا يجسر ان يخاطبهُ الى ان بدأه الكونت بهذا الكلام

— اعلم يا نوال انك الآن في منزلك وقد صرت عندي بمقام الفيكونت دي كومارين ولك مذ الآن ان تتمتع بكل حقوقك التي حرمتها وافهم قبل ان تقابلني بالشكر على هذه النعمة انهُ لولا انني تمكنت من كتم السر الذي سلبتك بهِ تلك الحقوق لما رضيت عنك ولدي بل لكنت احرص على غرضي في ابعادك وتقرب البرت مني

— لقد ادركت يا سيدي مرمى حديثك و بلغت الغرض الذي تستهدفهُ فتيقن انهُ لو غرّني الزمان فاغواني كما اغواك وحملني على ان اركب للشر ما ركبت لما كنت اسعى لصيانة شهرتي في غير السبيل الذي اتخذتهُ حرصاً على غرضك لانهُ من كان قد بلغ من الجلاء والعلاء ما بلغت لا يسعهُ السقوط من ذروتها جهلاً و بغياً بل يتحرى جهده المحافظة عليها ولو ظالماً

فسرَّ الكونت بجواب نوال واعجب بذكائهِ غير انهُ حاول كتم رضاه عنهُ فاستانف حديثهُ قائلاً

— لا حق لي على قلبك فلا اطالبهُ بالمحبة لانني لم افضِ حق هواه لكنني اسالك الوفاء باكرامي واحترامي واعلم ان من السنن التي جرت في اسرتنا من قديم العهد حتى الآن ان يلتزم الابن لدى ابيهِ الطاعة العمياء فلا يقاطعهُ الكلام اذا ابتدأَ بهِ ولا يحكم عليهِ بالصواب والخطأ فيهِ شأني مع والدي من قبل وشأنك الآن معي . ثم لا خفاك انني كنت قد جعلت البرت في دار خاصة فاقمت لديهِ الخدم والحشم واجريت العربات في باحة داره واتيتهُ من المال ما يكفيهِ نفقة ذلك كله وجعلت لهُ علاوة نحو اربعة آلاف فرنك راتباً شهرياً . اما الآن فقد رأيت استئصالاً لشأفة أَلسنة المرجفين ان اجعلك في مكان اسمي واخصك براتب ستة آلاف فرنك شهرياً تنفقها في حاجتك الى ما يؤيد مكانتك وعزك ولا حاجة الى ان استزيدك حرصاً على سرك وصيانة للسانك واعلم انك غرض لنبال قوم لا يغضون عن هفواتك بل يتطلبونها سبباً لتلهيهم ولذتهم . هل تدربت على عمل السيف

— انا من اصحابهِ في الدرجة الثانية

— وما درجتك بين الفرسان

— انني لم اجرِ معهم في ميدان غير انني قد آليت على نفسي التدرب عليهِ فلا يمضي قليل من الزمان حتى ابلغ مكانًا معروفًا بينهم

— لا بد لك من مزاولة هذا الفن قريبًا . ثم استانف الخطاب للكلام عن تدبير المنزل. انك لا تنزل في غرفة البرت لان من عزمي تعطيلها ريثما تكون الحكومة قد فرغت من البحث فيها لكن ستقيم في الجانب الآخر فتدخل اليهِ من السلم الاخرى وسانفذ اوامري للحال في ارصاد معداتهِ حتى اذا دخل الزائرون دارك قالوا انك تقطنها منذ اعوام ولا اكتمك ما ينشأ عن هذا التدبير من الاشاعات والاراجيف التي تحط بشاني ولكن لا حيلة الآفي التعرض لها . كنت قد رأيت ان ارسلك الى النمسا او روسيا ريثما تتبدد غيوم الظنون فاعترضتني الحكمة وابت الآن احتمل ذل يوم دون ايام فمهما غالى القوم في اوهامهم وتوسعت في شرحها الالسنة لا تبعد ان تنقطع قريبًا فتدخل في طيّ الغيب فها انني ارسل اليك الخدم للشروع بالعمل اليوم

وهوى الكونت الى الطاولة يريد ان يطن الجرس ليدعو بالخادم اليهِ فاستوقفهُ نوال

ان نوال كان لم يلبث متظاهرًا لدى الكونت بالهيبة والوقار على رغم ما استخفهُ من الطرب عند وقوع النعمة عليهِ وانتقالهِ من حال الى حال فاعترضهُ قائلاً

— اسمح لي يا مولاي ان ابوح بما عندي من الراي في ما دبرت وارجوك ان لا تعتدّ كلامي بحضرتك اعتراضًا على حكمتك بل قصدت بعد اثبات الشكر لفضلك والاقرار بجودك وجميلك ان اسالك تاجيل اشهار نعمتك الى حين . وما اخالك تخطئني في ذلك . لان الحال تقضي عليّ ان التزم مكاني كما كنت قبلاً لئلاً اثير الخواطر عليّ فتعنفني تعنيفًا لا قبل لي بهِ فيرمونني

بسوء النية ويتقوّلون عني الاقاويل المتضاربة وحسبي كدرًا اذا قيل عني انني طمعًا بالفوز ورغبة بالاستظهار على الخصم دستهُ بقدمي فدخلت منزلهُ وتقلبت على سريره اشرًا وكبرًا. فيوآخذوني بسرعة الاقبال الى التمتع بخيره وبالجملة انني احاكي البرت بسيرتي لا سيما اذا دخلت القصر في ابان نكبته. فالرجا بجلالتك ان يصفح عن اعتراضي فيسمح لي ان اقيم على الحال التي اقمت عليها حتى الآن فلا ابدل شيئًا من سيرتي وانقطع عن الناس مدة ريثما تخمد حدتهم وينبو عضب لسانهم واسعى في خلوتي وراء الذرائع التي تمكنني من الظهور بينهم كأنني نشأت في نعمتك ولم اكُ لديهم دخيلاً

— صدقت يا نوال فالراي سديد

ان نوال لم ياتِ باعتراضهِ الاَّ وفي نفسهِ اغراض منها انهُ كان يخشى حقد الكونت عليهِ فاعتدَّ قبولهُ في خاصتهِ واقراره بحقوقهِ حيلة لاختباره ثم انهُ كان يحاذر منهُ كمينًا فرأى ان يتلافى شره بالامهال ولما آنس منهُ الرضى عن رأيهِ استطرد الكلام الى ان قال

— يتعذر عليَّ ان انتقل للحال من درجة الى اخرى قبل ان انظر في ما يكون ورائي من الاعمال قبل ان انظر امامي فلا يخفاك انني كنت قد ادركت بجدي ودهائي درجة مكنت لي بين قومي عزًا انية بهِ على اقراني فاقبلت اليَّ الناس بملء الثقة واعتمدوا عليَّ في حلّ مشاكلهم فلا يسعني ان اتخلف عنهم قبل ان آتيهم بالاسباب التي اوجبت انحيازي عنهم اليك ثم ان لديَّ باعثًا آخر يمنعني من القيام عندك عاجلاً اذ كنت اذهب في السياسة مذهبًا حرًا يناوىء مذهبك فيها

— أأنت تشايع الاحرار كما ذهب البرت

— لا تلمني يا مولاي اذا كنت قد ذهبت في سياستي مذهبًا رأيت فيهِ نجاحي فلا يند عنك ان غرض الاحزاب على اختلافها واحد وهو السلطة . فكلنا نسعى اليها بطرق متباينة فعليهِ لئن كنا قد اختلفنا في الواسطة فقد اتفقنا

على الغاية . وقد قيل

كل من في الوجود يطلب صيدًا غير ان الشباك مختلفات

فتيقن يا سيدي انني اذا دعيت باسمك صنتهُ من كل شين ونزّهتهُ عن كل عين

— ذلك ما آملهُ منك وارغب بهِ اليك فعسى ان انسلى بك عن بعد البرت

— لقد نبهت يا مولاي خاطري بذكر اسم البرت الى الاخذ بناصره فنسعى معًا في انقاذه من التهلكة

ان الكونت اوجس حذرًا من نوال عند اقتراحه عليهِ الانتصار للفيكونت فسالهُ قائلاً

— فما الحيلة في انقاذه وبمَ نجده

— ايليق بك يا سيدي ان تتقاعد عن نصرتهِ وقد نزلت بهِ الشدة فتجافى عنهُ الخلان وخانهُ الزمان فكانوا معهُ عليهِ اعوانًا . كلاّ فانهُ لم يزل ولدك واخي وقد تقلد شهرتك زهاء ثلاثين عامًا فانا نقاسمهُ البلاء فما ينالهُ من الخسة ينالنا بلا مراء فمن الواجب ان نتعاقد على نجدتهِ في نكبتهِ

فلم يسع الكونت عند هذا الكلام الاّ التصريح بذكر نوال فتأثر لبيانهِ وحنّ لرقة جنانهِ فقال لهُ

— قل بما يجب علينا في هذا الشان

— ان ندفع عنهُ جهدنا اذا ثبتت لدينا براءة ساحتهِ من التهمة . فاني محام وقد ذاعت شهرتي في الانتصار للحق فاقوم مدافعًا عنهُ لدى المحكمة فارد سهام الاعداء عن صدره بقوة برهاني واستجلي الحقيقة بفصاحة لساني

— وما الحيلة للنجاة اذا كان قد اقرّ بذنبهِ

— اقوم عندئذٍ لديهِ بالخدمة التي يتوقعها الشقيق من شقيقهِ آن شدته

— احسنت يا ولدي واكرمت

ثم بسط يده لنوال فضغط عليها ملتزماً لقاء هذا الاكرام كل احترام وافعم صدره فرحاً لنجاح غايته في امتلاك فواد الكونت ورضاه

ثم عاود الكونت الكلام بشان نوال فقال له

— انني اذعنت لما قدمت لديَّ من البراهين التي توجب بعدك مني للحال واعتداذعاني لرأيك وخضوعي لاشارتك شذوذاً لم يسبق لي عهد بهِ لانني ما اعتدت ان اعدل عن امر قررتهُ خطأً كان ام صواباً . ومع ذلك لا ارى من مانع يمنع قيامك عندي مذ اليوم وها انني اعد لك الغرفة التي تنزلها عاجلاً الى ان ياتي الزمان الذي تسميهِ لمساكنتي دائماً

فقاطع نوال الكونت الحديث دون ان يخشى ملامةً فقال

— لم اتقاعد يا سيدي عن الارتياح لخاطرك والرضوخ لاوامرك غير انهُ لا يسعني الآن ان البي اشارتك في القيام عندك وعليَّ واجب مكرس لا بد لي من القيام بهِ ازاء مدام جردي فانها على خطر من العلة التي دهمتها اخيراً

— أتشير بذلك الى فالري

ثم اعتمد رأسهُ بين يديهِ يفكر في ما مضى من امره معها قائلاً في نفسهِ

— لا يسعني الاصرار على بغضها بل اشعر من نفسي بدافع يدفعني اليها لا سيما في آخر ساعة من حياتها فلا ريب انها تقضي اسفاً على ما نال البرت من الغضاضة فاسليها واخفف اشجانها بمثولي امامها . واذ رأى الصواب في الذهاب اليها قال لنوال

— انني اكون في صحبتك

فاجفل المحامي عند هذا الطلب فرده بقولهِ

— ما لك يا سيدي والمثول لديها فاكفف نفسك مرارة العذاب اذا نظرت اليها وهي في ذهول تام وربما تتاثر لمرآك فيشتد عليها الالم

— فاذهب اذن اليها بذاتك يا ولدي

فرنَّ نداء الكونت (يا ولدي) في اذن نوال كما ترنُّ المعازف في آذان

الجيش ساعة الظفر فاحنى رأسهُ احتراماً واستاذنهُ بالانصراف فاستوقفهُ الكونت بقولهِ

— اياك ان تنسى ما عاهدتك عليهِ من التردد الى القصر كل يوم وقد جعلت لك موضعاً حذائي على الطعام فوافني متى شئت عند السادسة

ثم اطنّ الجرس فوافاه زعيم الخدم فقال لهُ

— اعلم يا دانيس ان تحظيري الدخول على الزائرين لا يتعدى نوال واعلن اشارتي لسائر الخدم فبلغهم ان لهُ في منزلي شاناً خطيراً

ثم انصرف نوال تاركاً الكونت في خلوة تماها منذ الصباح لما زاحمهُ من على اثر الحوادث التي توالت عليهِ بياض ذلك النهار فرغب بها لامعان الفكرة في تدبير شوءونهِ وما لبث ان قال في نفسهِ

— ذلك ابني الحقيقي لا ريب فيهِ فلا يجدر بي ان انكر عليهِ التمتع بنعمتي وقد آنست فيهِ صورتي الحية آن كنت في الثلاثين من عمري فضلاً عن ذلك انهُ اتاني بما يشف عن حسن سيرتهِ وسلامة سريرتهِ ونزاهة صفاتهِ وكرامة سجاياه ما يوءهلهُ لان يتقلد جلائي ويقاسمني شهرتي . لكن لا ادري بما اصف تلك الاسباب الخفية التي تبعد بي عن هذا الشاب فارى نفسي ابداً جانحة الى حب البرت مشعرة باسف بعده منها على رغم التهمة التي رموه بها يقولون ان نوال قد استكمل صفات الانسانية فصدقت قولهم بما شهدتهُ فيهِ من الشهامة وعلو الهمة وكرم السليقة وسلامة الطية فما كدت ابلغهُ خاطري في الرضى عنهُ حتى بادر الى بيان رغبتهِ في التفاني حبًا بي وضنًا بنجاة البرت وما اكتفى بما اخذ عهده على نفسهِ حتى تلا على مسمعي كلمة الرضى عن مدام جردي بالحقيقة ان ما ابداه كان غرابة لا يسعني تصديقها والاعتماد عليها . اما ان شانه في ذلك شان ابناء عصره فانهم ينشاون براء من معائب والديهم . لكن اما كان البرت مستجمعاً صفات الكمال الانساني وغرّ فسطا جهلاً على كلودين . فما يصنع نوال . . . كان من الواجب ان اصحبهُ الى فالري . ثم تهيأ لهُ ان يستوقف

نوال فقام الى الشباك المطل على الباحة ليدعوه اليهِ فلم يرَ احدًا لان المحامي بعد ان فصل عن القصر بقليل ركب عربة في موقف بوركونيا قاصدًا عجلاً شارع سان لازار . ولما بلغ باب منزلهِ دفع الاجرة للسائق وترجل يطوي الفناء مسرعًا الى غرفتهِ فاستقبلتهُ الخادمة فبدأها بهذا السوال

— من جاء يطلبي

— لم يأتِ احدٌ يا مولاي

فارتاح بالهُ عندئذٍ واطمأن روعه فقال

— اما اتى الطبيب

— بلى وقد ارانا في هيئتهِ لوائح الكدر ثم عاد منذ برهة ولم يزل عندنا حتى الان

— اني اذهب اليهِ لاسالهُ بيان الحال فاذا حضر احدٌ اليَّ فادخليهِ غرفتي واعلمني لي قدومهُ فاوافيهِ

فلما دخل نوال مضجع مدام جردي لم يشهد فيها ما يحقق الامل بالشفاء وقد غارت عيناها وتشنجت اعصابها فاستحالت هيئتها على السرير الى صورة شبح مسجى تنتنض حينًا بعد حين كما ينتفض الجسم اذا مستهُ شرارة الكهرباء

وكان قد دعي الى تمريضها احدى راهبات المحبة فقامت عند المستوقد حين دخل نوال فبصر بها وكانت حسنة الجملة قرنت بين الجمال والكمال وكان يناظرها على الكرسي الطبيب هرفي محدقًا في حركاتها وسكناتها فعندما اقبل اليهِ نوال قام لاستقبالهِ فحياه قائلاً

— الحمد لله الذي يسر لي الاجتماع بك بعد الانتظار الطويل

— انني كنت في القصر لاسباب خطيرة اوقفتني على مثل الجمر عن العود الى هنا

ثم هوى الى اذن الطبيب فهجس فيها قائلاً

— ما رايك في العليل

فقال الطبيب برأسهِ قول القانط من الشفاء – ان الحال تنذر بالخطر والعوارض التي عرضت لها اليوم لم تزل تتوالى

فضغط نوال على يدهِ يريد ان يقاطعهُ القول بالخطر لان مدام جردي اخذت تتململ على سريرها وتتنهد . فقال نوال للطبيب

— لا ريب انها سمعت الحديث فتاثرت منهُ

— حبذا التاثر ولكن أنىّ يكون لها امل بالشفاء وقد بلغت الروح الحلقوم

ثم دنا منها فجس نبضها وفتح جفنها فالفى العين مظلمة جامدة فقال – تعال وانظر فيتاكد لك حديثي . خاطبها لنرى هل تعي كلامك

فتقدم نوال وهوى الى اذنها وهو يرتعد فرقًا من مرآها على تلك الحال فخاطبها بهذا الكلام :

— امي خاطبيني انا ولدك نوال اومي اليّ ولو بطرفك امي ألا تسمعيني ألا تخاطبيني

فلم يلقَ منها جوابًا ولا اشارة لانها كانت في ذهول تام

فاعترضهُ الطبيب قائلاً – اما تاكدت بياني وحققت حكمي

— اسفي عليها بالله قل لي ألا تشكو الآن ألمًا

— كلاَّ

وفي تلك الاثناء تقدمت الزاهدة العابدة الى السرير عندهُ وقالت موجهة الخطاب الى الطبيب :

— لقد هيأْنا ما اشرت اليهِ

— فلندعُ اذن الجارية لتسعدنا على وضع الخردل

فجاءت الجارية للحال تتعاون مع الطبيب والزاهدة على وضع الخردل وهي الحيلة الاخيرة

اما نوال فانزاح عنهم الى النافذة واطرق مفكرًا لا حزنًا على فقد التي

كانت لديهِ في مقام والدته ولكن في مستقبل حياتهِ في دار الكونت و بينا هو يناجي نفسهُ ويعللها بتلك الامنية طرق اذنهُ صوت الطبيب في جانبهِ يقول

— ان الخردل هو آخر ما يسعدنا الطب على استعمالهِ في هذه الحال فاذا تاثرت منهُ كان لنا الامل بالنجاح والاَّ تجمنا

— واذا بطل عمل المجم

— كان الشفاء عسرًا ولكن لا تيأس من رحمة الله

— يشق عليَّ ان اراها على هذه الحال من الضعف والذهول فيا ليتها تنتبه برهة اتمكن فيها من مخاطبتها

— ما ادراك ما يحدث بعد وضع الخردل عسى ان تنتبه من غفلتها ولا خفاك ان الطبيب لا يستطيع ان يحكم من نفسهِ على امرٍ اشتبهت عليهِ فيهِ وجوهُهُ فقد يتفق احياناً للمصابين بهذه العلة ان يشفوا منها عند بلوغهم حد التلف ولكن لا يكون ذلك الشفاء دليل العافية لانني اخاف ان يكون الالتهاب قد تطرّق للدماغ فاصابهُ وهناك البلاء

— ألا رجاء بانتباهها

— ان انتباهها يا اخي لا يغنيها شيئًا

— ألا تهتدي لصوابها

— ربما يتيسر لها ذلك ولكن حبيبي ما الغرض من كل ذلك

— آه انى في حاجة قصوى الى الكلام معها

— يتعذر عليَّ ان اقطع بصحة مرغوبك ومع ذلك يمكنك ان تقيم لديها حتى اذا انتبهت يتسنى لك ان تخوض معها في غايتك ولكن اياك ان تغفل عنها لان انتباهها لا يطول

ثم طلب الطبيب الانصراف بداعي اشغالهِ في الخارج فودع نوال وانصرف يشيعهُ نوال الى الباب وقبل ان يفترقا سالهُ المحامي قائلاً

— ألا تعود الينا

— انني اعود المساء اذ لا حاجة لوجودي قبل ذلك الحين وانا اعتمد على الممرضة في العناية والاهتمام ولي بها كل الثقة

— االنت الذي انتقيتها

— نعم هل يكدرك ذالك

— كلاَّ لكن . . . .

— ما معنى هذا الاستدراك ايسوءك ان ترى الزاهدة متوفرة على خدمة والدتك فما ضرك قيامها اديها ليلاً هل يخل وجودها في مذهبك السياسي ام يعطل اراءك

— ستعلم يا اخي بكل الاسباب

— لا يداخلك يا نوال ريب من وجودها وتيقن ان ما من احدٍ يقوى على معاناة ما يعانين هولاء العابدات في السهر على المرضى ومداراتهم فاعتمد عليَّ وكفى بما قلتهُ لك بيِّنة على موضع الثقة منها فاودعك الآن واعدك بالعود عند المساء

فانصرف الطبيب وانقلب نوال راجعًا الى مضجع مدام جردي بهمومهِ واوهامهِ وقبل ان يستقر بهِ المقام وفد اليهِ الخادم يدعوه الى مقابلة زائر جاء بحاجة اليهِ

فخرج المحامي الى الزائر وكان كلرجو فلما دنا منهُ خاطبهُ قائلاً — الحمد لله الذي هداك اليَّ بعد ان كنت قد يئست من مرآك

كان هذا الرجل بعيد الشهرة في محلة سان لازار ونوتردام دي لورات يتالب اليهِ نفر من الناس بطلب المال دَينًا كل مائة بعشرة وهو يرجئ مطالبتهم ويتمهل في اقتضاء مالهِ حذَر الخسار في المقاضاة فيؤثر ان يستوفي حقهُ بالامهال خيرًا له من تعريضهِ للفقدان بطريق الالحاف . وكان نوال قد عرفهُ عند جوليات فلاح لهُ من سيرتها معهُ انهُ يوءخذ بالملاينة والمداهنة والتمليق فاجلسهُ نوال الى جانبهِ وعلق يسالهُ عن صحتهِ ويستعلم حالهُ فاجابهُ

كلرجو بالاسهاب متكلمًا عن اسنانو وعينيهِ ونحول بدنو الى ان صرف النظر عن الصحة الى المال فقال لهُ

— لا خفاك ان المال قد اعوزني في هذه الايام فتقدمت اليك بطلب ما لي رهن ذمتك وقد حان اجل الدفع فلا تخيب طلبي

— بالله يا كلرجو لا تتمادى في المزاح ودع الالحاح

— وهل في ما قدمت شيء من المزاح

— كيف لا وقد كنت كتبت اليك منذ ثمانية ايام ان تمهلني الى حين لعجزي عن الوفاء بمطلوبك

— قد قرأت ذلك الكتاب

— فما قولك اذن فيهِ

— كان يقتضي ان تعلم من امساكي عن جوابك انكاري قبول اقتراحك فتهتمّ في اعداد ما يلزمك من الدين

فتضجر نوال من انكاره فقال — لم افطن لاشارتك فافعل ما بدا لك

— ألا تعلم ان هذه هي المرة الرابعة التي جددت فيها المواثيق

— نعم انني جددت المواثيق بعد ان اديتك الربى الباهظ فكفيتك الاسف على تعطيل مالك

— لا اشكو من هذا القبيل ولكن اراك تبطىء في دفع الدين طامعًا في الملاينة فلو عرضت اسمك بطريق الاحالة الى آخر لما كنت تتقاعد طرفة عين عن اداء المطلوب

— ما ضرّني لو تحوّلت وتناقلتها الايدي فطافت البلاد وانا عند عذري معك

— كلاَّ بل كنت تخشى المفاضاة فتسرع الى الوفاء لكن اراك تطمع في لين جانبي الى حدّ النسيان فتيقن انني ما كنت لالح عليك بالدفع العاجل لو لم اكن في حاجة قصوى الى المال

— بالله لا تلح عليّ بالطلب وانا صفر اليدين

— فلا تلمني اذن يا صاح اذا رفعت الامر الى الحكومة

— ما تغنيك الشكوى شيئًا وانت تعلم يقينًا انني لا املك درهما بل كل ما اتمتع بهِ هو لمدام جردي

— انني علمت ذلك وهل في بيع ما عندها كفاء الدين

— فما تبغي اذن مني أ تقصد سجني فها انا لديك ولكن يا ضيعة الامل وخيبة المسعى

— دع عنك هذا الهذيان وجد بالوفاء فانك لو شئت الآن دفع القيمة لما تعذر عليك توفيرها

— أنّى لي ان اوفرها ولا مورد استوفي منهُ الاّ جيب مدام جردي والطبع يأبى ان اتقدم اليها الآن بالطلب

— لا فائدة من الاعتماد على صندوق والدتك وهي على شفا خطرٍ كما علمت وقد سعيت في استنزافهِ حبًا بتلك النازلة في محلة لابروفانس . فاياك ان تعدل الى الجفاء في معاملتي فانني انتقم بها منك فاشهر امرها معك واهتر عرضها بين القوم . فما كان اغواك في سيرتك معها فانذرتك مرارًا وحذرتك اقتحام الفاقة في الاذعان لاوامرها ورغائبها فلم ترعوِ بل زدت عتوًا حتى نفض ما في الوطاب وصرت تشاكل في سوء حالك السائلين على الابواب ويا ليتها تخلص في حبك لقاء تفانيك في رضاها وتقلبك على هواها . فما انت لديها الآن الاّ عارية فلا بد ان تردك يوم تحقق فقرك وعوزك

فتكدر نوال من تعنيف دائنهِ وفار جاشهُ حتى لم يسعهُ الصبر على الذل في الوقوف بهِ فسالهُ

— وما تبغي مني الآن بعد التقريع

— ليس الاّ قبض القيمة فعجل بدفعها والاّ تدفعني الى مطاردتك في دار جوليات

— هل يحق لك ان تنتهك حرمةُ منزلها

— انني احتال عليها في الدخول فاحملها على ان تستنض منك القيمة كما تيسر لها تحصيل غيرها من قبل وانا على يقين من طاعتك لها حتى انها لو طلبت منك رياش منزلك لما بخلت بهِ عليها وعندي البينة على ذلك فانك الآن تدعي العسر وقلة الحيلة في تحصيل القيمة على انك لم تدعِ ذلك عندما طلبت اليك في الاسبوع الماضي نقدها عشرة آلاف فرنك . فيالشفائك اذا طال قيامك في سلطة هذه الخلابة لا ريب انها تدفعك للبوار . فاصغَ لنصيحتي وتأكد انني لك من المخاصين

فلم يتمالك نوال نفسهُ ان باح بغضبهِ فاجابهُ

— كفاك توسعني شتمًا وترميني بسوء النية ظلمًا فاعدل عن النصيحة وادفع الاوراق الى الحكومة وقد حببت اليَّ المقاضاة لديها على تعنيفك واذا كنت حتى الان قد اعتسفت في سيرتي فسمت نفسي النفقات العريضة فانا قادر على الاصلاح وغدًا اؤيد لديك ما قلت فتيقن انني افيك غدًا ما لك في ذمتي وانجو من سوء معاملتك ولا اتكلف في جلب المال لوفائك الاَّ مؤونة الطلب ومع ذلك مهما يكن في اقتحامهِ من الذل رضيت بهِ عن الحطة في سماع ملامك ولكن ارجوك ان تكتم عسري لا سيما في الحال الحاضرة لان في النفس مقاصد ومآرب اسعى في ادراكها فلا ابتغي تعطيلها حبًا بك . واذا لم يرق لديك امهالي الى الغد فادفع كما رأيت السفتجة الى الحكومة واحملها على مقاضاتي خيرًا لي من احتمال جفائك وغلاظة كلامك . فانني آمل منها الرحمة الى حين

— وهل ترجو منك الصدق في الامهال وانت على ما انت في كل حال فتعاملها كما عاملتني

— كلاَّ لانني اتوقع تغييرًا عظيمًا في احوالي قبل وقوع اجل المهلة

— قل لي وعلى مَ تعتمد في توفير القيمة

— ليس لك ان تعلم بذلك وسيتضح لك الامر جليًا بعد حين واذا رضيت الآن احلتك بالقيمة على آخر

— آه لقد فطنت الآن الى الحيلة التي دبرتها وقد اخبرتني بها جوليات وهي انك عزمت على الزواج بفتاة مثرية لكن اخبرني هل هي في شيء من الحسن ام ارتضيت بمالها عن جمالها

— لا ابوح بسري

— انني اسر يا نوال بنجاحك وادعو لك بالتوفيق غير انني لم ازل الحُّ عليك في هجر تلك الفاتنة التي سلبتك مالك وهي قادرة على ان تسلبك حياتك فاقترن بمن تشا شرط ان يتقلص ظل الماكرة من فكرك فهات الحوالة بقيمة اربعة وعشرين الف فرنك فاقبضها بعد غد وارجع لك سفتجتك

— اما هي لديك الان

— كلاَّ لا اكتمك يا نوال انني دفعتها من امس الى الحكومة علمًا مني بحبوط املي عندك ولكن لا تخف باسًا فانني استردها

وقام كلرجو يريد الانصراف وقبل ان يصل الى الباب فطن لغرض كانت جوليات قد عهدت بقضائهِ اليهِ عند نوال فقال لهُ — ارجوك ان تعد الحوالة بقيمة ستة وعشرين الف فرنك ثم ان جوليات كلفتني ان ابتاع لها شيئًا من القماش ومن عزمي ان اذهب بهِ اليها غدًا

فساء نوال من اضراب خليلته عن مكاشفتهِ في حاجاتها قبل قضائها وكدَّره اعتمادها على جيبهِ دون سابق علم بذلك الاعتماد

فلاح لكلرجو كدره فاعترضهُ قائلاً — أ يسعك يا اخي انكار طلبها وانت تعلم انها لا تذعن الاَّ لما تامر بهِ نفسها فاذا ابيت تقديم ما تطلبهُ الان جاءت اليك برغائب اخرى ينوء بك حمل اثقالها

ثم انصرف كلرجو وغادر نوال اسير همٍّ شديد لا يدري كيف يصرفهُ عنهُ اذا علم الكونت بعسره ثم نظر الى الساعة فرآها تشير الى الوقت

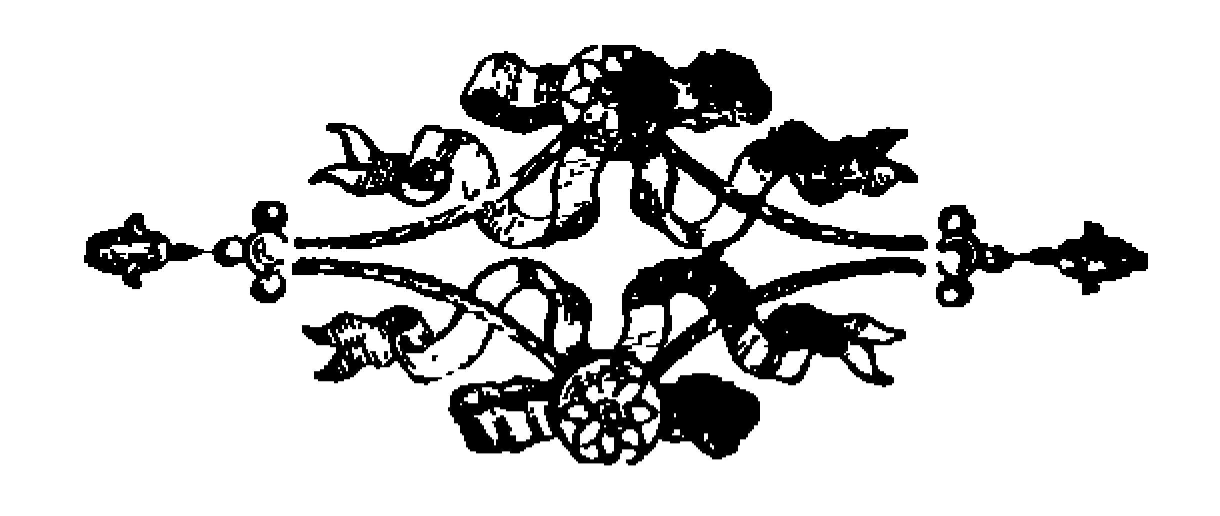
المعين لموافاة والده لكنهُ حار في امره بين ان يترك امهُ على سرير الموت وبين الذهاب الى ابيهِ قيامًا بوعده. فراى اخيرًا ان يعدل عن الذهاب الى ابيهِ فقال في نفسهِ — انني اكتب اليهِ بعذري. فقام واخذ رقعة كتب عليها ما معناه ان مدام جردي على خطر جسيم يخشى معهُ ان تجود بروحها الساعة فآثرت البقاء عندها للقيام بالمفروض عليَّ نحوها. و بينا هو يدفع الرسالة الى الخادم لينفذها الى الكونت عرض لهُ خاطر آخر فسال الخادم قائلاً — هل عرف شقيق مدام جردي بمرضها

— لا اعلم يا سيدي

— اما خطر لاحد منكم ان يعلن لهُ مرض شقيقته فليذهب احدكم بالخبر اليهِ عاجلاً

وعقيب ان فرغ من هذه المهمة عاود الجلوس في مضجع المحتضرة ازاء الزاهدة فلاح لهُ في محياها شيئًا من البشر فسالها قائلاً — هل من امل ايتها الفاضلة بالشفاء

— اتكل على الرحمن وهو خير طبيب



الفصل الرابع عشر

الخلاف بين دابيرون و تاباري

عقيب ان صدّ المستنطق تاباري فارسلهُ خائبًا وابى ان يلبي دعواه في تبرئة ساحة البرت اندفع الثقاف الى الطريق بعزيمة لا تفتنها المصاعب ولا تبليها المتاعب وخصوصًا اذا كانت الغاية ملافاة شرّ نشأ عن بدء فعل الفكرة في خلاص الفيكونت من التهلكة التي زجه فيها عن غير ذنب جناه ولما كان قد اعياه الجهد كما اعيا المستنطق من قبل فاضنكهُ الجوع لاذ بمطعم على الطريق فطلب الى صاحبهِ ان ياتيهِ بما تهيأ وفيما كان ياكل تواردت الى ذهنهِ الخواطر فانهكتهُ وطالبتهُ نفسهُ بمقابلة البرت ليسكن روعه ويسليه على نكبته قائلاً — ليتني ابلغ هذا البريء خبر اشتغالي في خلاصهِ وسعيي في توفير اسباب مناصهِ . الى ان فرغ من طعامهِ فنهض للحال ودفع ما عليهِ وانصرف يعدو الى محلة سان لازار فطرق الباب ودخل صاعدًا السلم الى منزل صديقته مدام جردي ليستعلم حالها فاستقبلهُ نوال وقد لاحت على وجههِ امارات الحزن والكآبة لاعتلال صحة تلك التي اعتدها في ماضيهِ امًا لهُ . فحياه تاباري وتقدم معهُ وهو يناجي نفسهُ في الطريقة التي يتخذها توصلاً الى معرفة نتيجة ما انتهت اليهِ زيارة نوال ابيهِ على رغم ما كان يراه على وجه صديقهِ من اثار الغم محاولاً كتم رغبتهِ في تحرّيهِ وبحثهِ عن اسرار تلك المناظرة لانهُ كان يخشى ان ينم بهِ توغلهُ في التنقيب لدى المحامي فيذيع امره ويعرّض نفسهُ للظنة . فدخل تاباري اثر

نوال مضجع مدام جردي وكانت لم تزل في تلك الساعة ذاهلــة غير انهُ طرأ عليها تغيير بيّن وهو انهُ تسنى لها تحريك جفنيها تحريكًا مبهمًا

فسأل تاباري نوال همسًا – ماذا رأى الطبيب.

— قال ان لا امل بالنجاة .

فدنا حينئذٍ تاباري من سرير المحتضرة وقال – ما اشد عذاب هذه المنكودة الحظ يحسن الله اليها ان يندبها اليهِ لكن آه لو عاشت فدرت بما يعانيهِ ابنها الحقيقي في السجن أَما كانت تموت غمًا من اجلهِ

— صدقت يا اخي وقد تقدمتك بهذا القول فكنت اود لو اطال الله عمرها فمتعني بحياتها لاكفر لديها عما جنيت بهِ عليها . لقد شعرت الان يا اخي بالم فقدها وندمت ندمًا شديدًا على ما فرط مني ازاءها فنسيت كل مساوئها وتمثلت حسناتها ولكن اين انا من نيل هذه البغية وعن قريب يقطع بها الله فيكفيها مضض البلاء وانا احب اليها المنية من الحياة قيد البلية وقد رايت رأيك في براءة ساحة ابنها الحقيقي

— فمن يكون اذن الجاني

فاحمر وجه نوال من هذا السوال في موضع التعجب والحيرة حتى لاح لتاباري اضطرابه فحاول للحال ازالته بهذا البيان قائلاً

— ما سالت يا اخي متعجبًا من اشتباه وجوه هذه المسئلة الا لحكمي ببراءة الشاب عن ضعف مني وقلة اختبار ولي بينة ادعم بها الحكم وهي ان من كان ساذجًا كالبرت يقصر مدى عن ارتكاب جناية فظيعة فضلاً عن ذلك ان كل من سمع بهذه المسئلة قد راى بما رايت وحكم بما حكمت وحسبهُ سلوى اتفاق الراي على تبرئتهِ

ولما كان هذا الحديث قد دار بين المحامي وصديقهِ عند سرير المحتضرة انصل بالزاهدة العابدة شيء منهُ فاضطربت جدًا وخشيت ان تكون الغيرة او الطاعة العمياء في خدمة الانسانية قد اوقفتها في محل يشتبه بنزاهتهِ لا سيما

عندما طرق اذنها خبر الجناية فعاتبت نفسها على الخدمة في ذلك المنزل والوقوف فيهِ

ثم استانف نوال الكلام فقال — انني اعاهدك كما عاهدت امس الكونت دي كومارين على الدفاع عن ساحة البرت

كاد تاباري عند سماع هذا الكلام ان يضم نوال الى صدره فيبوح لهُ بسره متفقًا معهُ على انقاذ الفيكونت لكنهُ خاف ان يغمض من قدره باشهار امره فراى ان يصبر على الكتمان الى ان يتحقق نتيجة ما تقضي اليهِ حال البرت . فقال لنوال

— احسنت يا اخي بما كشفت لي من ثبات عهدك وصدق ودك وما انيت من الادلة عن علو همتك وشهامتك واخلاصك نحو من كان لديك بمقام المغتصب وقد كنت اخشى ان تلهيك السعادة ومطارفها عن حب من غادرتهم يجرون وراءك اذيال الشقاء والبوس فتداركني بعفوك عما داخلني من الوهم واخبرني بما كان منك مع ابيك الكونت لانهُ على ما اشرت اليهِ في حديثك انك كنت في خلوتهِ

وفي تلك الاثناء لاح لنوال نظر الزاهدة محدقًا بهِ تحديق الراغب في الوقوف على اثر يتوقعهُ فاومى لرفيقهِ عن ذلك بلطيف الاشارة وقال

— انني اجتمعت بهِ فلقيت منهُ كل ما بهِ سروري وغاية مناي ولا يسعني الآن ان اتيك مفصلاً جملة ما دار بيننا غير اني استانف الخطاب في هذا الشان فاوافيك بالبيان الشافي لانهُ يشق عليَّ ان الهو بالسعادة ونفسي مشتغلة بالحزن عما نال مدام جردي من الشدة والضنك

فاضطر تاباري ان يقنع بهذا الجواب على وعد التفصيل ونقدم الى نوال بالاذن في الانصراف الى منزلهِ حرصًا على راحتهِ من الجد نهارًا فلم يلح عليهِ نوال باطالة الوقوف لديهِ واخبره بما كان من عزمهِ في استدعاء شقيق مدام جردي واجلى لهُ عن حيرتهِ في تخفيف حزنهِ واضطرابهِ عند اشهار خبر اعتلال

شقيقته فاوى اليهِ تاباري ان يكتم الامر للحال فينبئهُ بهِ استئنافًا

ثم ودعه وانصرف يقصد منزلهُ بعد تغيبه عنهُ نحو يومين . فدخلهُ وهو يوجس خيفة من كدر قيمتهِ التي كان غادرها وحدها دون انيس ولا جليس فاستقبلتهُ منة وهي تزمجر متلبسة بالغيرة على صحتهِ والمحافظة على راحتهِ فهيأت لهُ معدات الرقاد وانصرفت فاقفل تاباري الباب وخلا بنفسهِ يناجيها في حقيقة ما كان قد وقف عليهِ في مسئلة لاجونشار وبعد اطالة الفكرة تاكد صحة ما ابداه لكنهُ طالب عزيمته بصرف الجهد توصلاً الى الجاني . فهجس قائلاً — لقد تهوّرت في اتهام الجاني معتمدًا على اراء الناس وقد قيل « جدّ وراء من كان لهُ في الجناية ارب » فلو قلنا ان للوارث حظًا عظيمًا في قتل مورثهِ كان ايضًا للمحمول على القتل سهم في الجناية وهو احراز ما يكون عليهِ من الحلي والمال . فالطامعون بقتل الأيمة ثلاثة وهم البرت ومدام جردي والكونت دي كومارين فمما تبين لي ان البرت غدا براء من التهمة ومدام جردي ايضًا لغمها الشديد وحزنها على قتل الايمة عند تصفحها الخبر فبقي علينا ان نبحث عن امر الكونت فلا ريب انهُ لم يقدم بنفسهِ على ارتكاب هذا الاثم الفظيع بل ساق اليهِ آخر فمن ترى يكون ذلك المرتكب وقد دلتنا الآثار على كرم اصلهِ فهل يكون ايضًا لهذا الثاني معين ثالث . ذلك ما يجب عليَّ تدقيق النظر فيهِ . ثم يبدو لي في المسئلة وجهٌ آخر يستوقف الفكر عنده وهو ان تلك الأيمة قد اتتنا بتبديل الطفلين ادلة تشير الى حذاقتها واقتدارها على الشر فلا بد ان يكون لها يدٌ سابقة في الغدر والمكر دفعت من تمكر بهم للفتك بها تخلصًا من شرها وبالجملة ان في المسئلة سرًا يتيهُ عقلي في سبيل استجلائهِ اما الذي تاكدتهُ من امرها هو ان الفتك بها لم يكن ناشئًا عن امتلاكها الباب الذي يتوصل بهِ نوال الى استرجاع حقوقهِ بل كان عن غاية تحاكيها على ما اوضحتهُ في التفصيل الذي وجهت بهِ التهمة الى البرت . ذلك ما يقتضي عليَّ دراسته ومن اللازم ان اقف على سيرة هذه الايمة فاحيط علمًا بها وسادرك ذلك متى جيء بترجمة

احيانها الى المحكمة

ثم عاد تاباري الى مراجعة البينات التي قدمها في تخطئة البرت فرأى ان ليس فيها ما يثبت وقوع التهمة عليهِ . لكن الاتفاق او الصدفة مهدت سبلاً للوهم فاغلقت عليهِ ابواب السجن . ولكن ما اضلّ القرائن احيانًا وما ابعد دلالتها من مواقع الحقيقة وقد تحققت ضلالها في دعوى ذلك الخائط الذي كان قد قصد نحو الساعة الخامسة مصنع بائع الاسلحة فابتاع منهُ مدية وذهب فقدمها لاصدقائهِ قائلاً لهم — «انني قد ابتعتها للفتك بزوجتي الجائرة التي تمكر بي وباولادي» ولما كان المساء سمع الجيران لغطًا ونزاعًا شديدًا في منزل الخائط يتلوها وعيد وتهديد . وفي الغد اتفق ان الخائط وخادمهُ تغيبا فوُجدت المرأة ملقاة على الارض مخضبة بدمائها وتلك المدية كانت قد بلغت من ظهرها مدى النصل . على ان القاتل لم يكن زوجها اصلاً بل خليلها ولكن قد انت القرائن بماينفي التهمة عن الثاني و يوقع بها الاول . فما لي ولالبرت اذا انكر عليَّ بيان المكان ليلة وقوع الجناية فعليَّ ان اثبت بعده تلك الليلة من موقع التهمة وإبطال كل مظنة . فعسى ان يكون جفرول قد اهتدى في بحثهِ الى الجاني الاثيم . آه من لي بعتق البرت من السجن ولو بما ملكت يدي اسفاه ماذا يحلُّ بي اذا حبطت آمالي وخانني الجد في خلاص من اخذتهُ بحبالي

ثم نهض تاباري فاستلقى على سريره ونام مزعوجًا مشغول الفكر في عاقبة امر البرت فرأى في منامهِ كانهُ وسط القوم يوم يحتشد ليشهد قتل الجاني في ساحة (لاروكات) وإمامهُ المظلوم البرت يرسف بقيوده منكس الراس صاعدًا السلم المؤدية للنطع معتمدًا على عاتق القسيس حتى اذا بلغ النطع اجال نظره يمنة وشمالاً فاصابتهُ عيناه فللحال نقطع وثاقهُ و بسط يده مشيرًا اليهِ قائلاً بصوت جهوري

— «هذا قاتلي»

فعندئذٍ هاج الشعب وماج فتدفقت عليهِ الشتائم كما تتدفق المياه من

الحجاج . فاراد الفرار فحال دونهُ الرعب فحاول ان يغض بصره فتعذر عليهِ ذلك لان قوة داخلية كانت تدفعهُ للنظر حولهُ . ثم رفع البرت صوتهُ وصاح

— «انني بريء والجاني هو . . . »

فلفظ اسمًا تناقلهُ الشعب لكنهُ لم يفهمهُ وما طال الزمان حتى اطار الجلاد رأس البرت . . . . .

فعند ذلك انتبه تاباري من نومهِ فزعًا ومكث بضع دقائق مضطربًا حتى تأكد لديهِ ان ما رآه كان حلمًا ولكن خاف ان يكون ذلك الحلم نذيرًا فاخذ يتذكر حديث البرت ويراجع في نفسهِ ما وعاه لعلهُ يفطن لاسم الجاني الذي اعلنهُ ولما اعياه البحث نهض من فراشهِ فاشعل الشمعة وجلس على الكرسي يعنف نفسهُ ويؤاخذها باقتحامها الاشتغال في مهنة لقي فيها امرَّ ما كان من دنياه بعد اذ توهم فيها اللذة والجد . ويا ليتني وقفت في محنتي عند المتاعب فكفيت قلق الفكر من الجناية زورًا على البريء وقد نبهني الدهر للعدول عن السير في هذه الخطة منذ حاق بي الفشل في دعوى الخائط مع امرأته .

وما زالت الهواجس تجهد تاباري وهو يرقب ساعة خلاص البرت حتى دنا ذلك اليوم فقصد نحو الساعة الثامنة دار المستنطق وتقدم اليهِ بالعذر عن اقبالهِ اليهِ باكرًا فاستقبلهُ دابيرون هاشًا باشًا يريد ان يلاطفهُ اصلاحًا لما كان منهُ قبلاً في التماسهِ تخلية سبيل البرت

فساء تاباري هذا الاستقبال وخاف ان تكون تلك الابتسامة سخرية منهُ واستخفافًا بهِ فامسك عن التصريح بما كنَّ في خاطره وما قصد المستنطق لاجلهِ لكن لم يسعهُ اغفال السعي في تجريد ضميره من عوامل الريب والشك فافتتح الخطاب معهُ بكل هوادة ناظرًا الى فوادهِ مثيرًا احساساتهِ وعواطفهُ مناجيًا عقلهُ ورشده اما دابيرون فلم يتحوّل عن عزمهِ ولم يغير حرفًا مما رسخ في ذهنهِ ولا لوم عليهِ لان حديث تاباري لم يكن الاَّ من قبيل المجاز عند وجود الحقيقة بعد اذ وضحت لدى المستنطق البينات الجلية في مخاطئة البرت وإتهامهِ فقال لهُ

اخيرًا تاباري — اسالك يا سيدي التمهل في الحكم على هذا الشاب الى ان نستوفي العلم باحوال ماضي تلك الايمة وما يكون قد احرزه جفرول من الادلة في هذا الشان واطلب اليك ان تبيح لي مقابلة الفيكونت فاخلو بهِ في سجنهِ وما اخالك تنكر عليَّ هذا الطلب لقاء ما قدمت من النصب . فابى المستنطق عليهِ الخلوة في ذلك الحين ووعده بتلبية طلبهِ بعد اربعة ايام فاجابهُ تاباري قائلاً

— يشق عليَّ يا سيدي هذا الانكار ولكن لا حيلة لي الاَّ بالرضوخ والاذعان عملاً بالامر

ثم نهض يريد الانصراف للحال محاذرة ان يدفعهُ الجدال الى الحدة في الكلام فيمتنع عليهِ نيل رغبته . فانقلب راجعًا وقد اضمر في نفسهِ الانتقام من المستنطق لعناده كما آلى على نفسهِ انقاذ البرت من تلك التهلكة التي زجه فيها فهجس قائلاً — يا لشقاء ذلك السجين الرابض في سجنهِ اسير الاضطراب والقلق يناظر الموت في كل لحظة

ان دابيرون لم يكن يتطلب للايقاع بالبرت الاَّ المدة التي عينها فيسعى جهده في اكراههِ على الاقرار بذنبهِ ولكن لم يجد من يشهد لهُ بما كان من البرت في ليلة المرفع . فعمد الى توفير السعي في اجلاء هذا الغامض فدعا باربعة من احذق الشرط ودفع اليهم رسم البرت فارسلهم الى بوجيفال وارياضها منقبين باحثين عن الآثار موعزًا اليهم ان يطلعوا سكان تلك النواحي على الرسم لانهُ لا بد ان يكون قد عرفهُ او لقيهُ احد نزلاء تلك القرية ليلة وقوع الحادثة

وعقيب ان انفذ رجالهُ عاد فطلب اليهِ البرت . وكان تلقى صباحًا التفصيل الشافي عن حال السجين وحركاتهِ ونجواه في تلك الظلمة لكنهُ لم يذكر الكاتب فيهِ شيئًا ما يشير الى تحقيق الجناية . قال . انهُ لم يسمع ركزًا بل كان مطمئن البال مفكرًا ياكل وينام شان من لم يهجس بشرٍ يدهمه او خطر يؤلمهُ

وفي تلك الاثناء دخل البرت بين خفرائهِ غرفة المستنطق ولكن على

حال لم يكن عليها من قبل لانهُ كان يتوقع المنية رابط الجاش غير هياب ولا جازع فكانت عيناه تحكي لناظره عن رضاه بالموت والرضوخ لاحكامهِ دون رهبة و بالجملة انهُ كان ممن تقلهم المصائب فلا تجندلهم فلما راه دايرون شديد العزم ثابت الجنان عدل عن الخطة التي كان قد اخذه فيها قبلاً وعرف ان من كان في مكان البرت لا يخشى وعيدًا ولا يهاب تهديدًا بل يزداد ثباتًا كلما زاده اعناتًا فرأى ان ياخذه بالرفق فيحاكي فوأده لعلهُ يصيب منفعة في اثارة اشجانهِ فحدثهُ ولا حديث الاب وداراه ولا مداراة من طب ابن حب فعرّض لهُ بذكر حبيبته وانتظارها ساعة الدنو منهُ المتوقفة على لفظة تبدر من فيهِ مقرًا بما كان من اثر ماضيهِ وحاصل الامر ان فصاحة المستنطق لم تنجع في فواد البرت بل ما زال يجيب بالايجاز عن كل ما كان يقترح عليهِ موّيدًا براءة ساحته موّكدًا حقيقة نزاهته

فلم يبقَ للمستنطق من الحيل في حمل البرت على الاقرار وتحويلهِ عن ذلك الاصرار الاّ طريقة واحدة وهي انهُ جعلهُ ازاء جثة تلك الايمة المقتولة من اربعة ايام فتاثر البرت عند النظر اليها كما يتاثر غيره حينما يبدو لهُ مشهد هائل او تروى لهُ حادثة مفجعة و بينا هو لديها قال احد الحاضرين

— ليتها تتكلم فتفصل الخطاب

فاجابهُ البرت قائلاً — لكنت انجو من عذابي باهون الاسباب

فغضب دايرون جدًا لحبوط مسعاه وعدل عن الرفق الى الحدة فامر الجند ان ترجع بالمتهم الى السجن قائلاً في نفسهِ — لا بد ان اتوصل الى اخذه باقراره

فما بال دايرون يريد تخطئة البرت بعد اذ كنا رأيناه يسعى في نجاتهِ لا ريب ان العامل في هذا الانقلاب هو وقوف المستنطق في مجال اشتبهت عليهِ فيهِ المسالك فتوهم ان ما جمع لديهِ كان الحقيقة لا شبهة فيها وان اصرار البرت على انكارها يعد من باب المكابرة والعناد فصار يود الآن لو تمكن

من تخطئة البرت وتثبيت تهمته ومما كان يحمله ايضًا على الايقاع به هو الخوف من ان يرمى بالميل عن غرض في دعواه فجد يحاول تحت جلاء الحقيقة تنزيه نفسهِ عن هواها

فقام الى بوجيفال واقام هناك يصغى الى ما كان يتلى عليهِ من تفاصيل الحادثة دون ان يعلق منها بشيء حديث الاَّ ان بعضهم اخبروه ان امرأة لا يعلمون بشانها ومكانها كانت قد باحت لديهم برأى القاتل خارجًا من دار الايمة ثم اخبره البعض الاخر ان تاباري كان ايضًا ساعيًا على العربة سعي الثقافين في الاهتداء الى اثر الجاني في هذه المسئلة الغامضة وكان في اثره نفر من الرجال فقابلهُ الثقافون وتحدثوا معهُ . فقال لاحد الثقاف ما اضيع زمانك في اذاعة هذا الرسم بين القوم وما اكثر الشهود اذا كانت اجرتهم دراهم معدودة ثم قابل آخر فقال لهُ — لا ريب انك ساذج بل غبي في سعيك على الطرقات وراء رجل قد اتخذ الزوايا مأواه فرارًا من المنبثين عليها فالاجدر بك ان تنقب عنهُ في الخبايا . ثم التقي باخرين كانا على مائدة الشراب في بوجيفال فادار معهم ذكر الحادثة وتكلم عن حذاقة الجاني فقال . حكي ان رجالاً راوه ثم روت لنا امرأة انها خاطبتهُ وسارت معهُ بعيدًا

. فساء دايرون تجوُّل تاباري في بوجيفال رعزم على ارجاعه الى باريس اما تاباري ومن معهُ كانوا قد توارو في الحجاب

فاضطر المستنطق ان يعاود منزلهُ كئيبًا حزينًا وعند دخوله استقبلهُ الخادم برسالة برقية كانت قد جاءتهُ من روان موقعة باسم جفرول . وهذا مبناها :

«وجد الرجل وفي هذا المساء اقدم باريس ولدينا شهادة ثمينة»

«جفرول»

الفصل الخامس عشر

كلارا ودابيرون

لما كانت الساعة التاسعة من صباح الاثنين علق يتهيأ دايرون للذهاب الى دار الحكومة حيث كان يتوقع لقاء جفرول وتاباري وقبل ان ياخذ تمام الاهبة للانصراف دخل عليهِ الخادم باعلان قدوم احدى الفتيات وفي رفقتها عجوز تبغي مكاشفته وقد ابت اشهار اسمها دون حاجة تدفعها الى ذلك فامره المستنطق ان ياذن لها بالدخول وقد توهم فيها نسيبة احد المتهمين في دعوى يشتغل في البحث عنها فاراد ان يستقبلها عاجلاً لينظر في ما تريد ويرسلها عنهُ حالاً

وكان اذ ذاك واقفاً عند المستوقد يبصر في حقة رقاع الزيارة منقبًا فيها عن اسم يريد تحقيقهُ وبينا هو قابض على تلك الحقة يقلب النظر في ما وعت سمع حفيف رداء السيدة عند الباب فلم ينتبه اليهِ ولم يلوِ عليها بل صوّب نظره الى المرآة ازاءه ولاول نظرة وقعت على صورة الزائر المنعكسة عليها وقعت الحقة من يده على ظاهر المستوقد فزعاً شان من تمثل لهُ شبح هائل فاراعه وهمس قائلاً — أ كلارا مقبلة اليَّ

وخيفة ان يمكر بهِ الوهم لوى الى الباب فتحقق شخص من هتف باسمها اي كلارا تلك التي رمتهُ بحبها فمالت عنهُ الى الفيكونت فحار دابيرون من جرائتها واقدامها على زيارتهِ وحدها لان قيمتها التي كانت في رفقتها مكثت خارجاً ولا

غروَ اذا اقتحمت كلارا تجرّع الملام في زيارتها دابيرون لان حبها لالبرت وضنها بحياتهِ قد هوّنا عليها المتاعب وذللا لديها المصاعب بل زادا في حسنها رونقًا لم تانس بهِ عين المستنطق من قبل فتقدمت بلطف الى دابيرون والقت عليهِ التحية قائلة

— لم ازل ثابتة على عهد الولاء معك فهل عندك مني ما عندي منك

— نعم كل اخلاص

ثم جلست كلارا على الكرسي الذي جلس عليهِ تاباري من قبل ليتدبر مع دابيرون امر القاء القبض على حبيبها وقالت

— هلاَّ عرفت بما قصدتك لهُ

فاوى اليها دابيرون ايماء العارف بالغرض وفوادهُ يضطرب خوفًا من الانقياد اليها وقبول رجائها فمكث حائرًا لا يعلم بما يجيبها اذا طلبت اليهِ العفو عن حبيبها

فاستانفت كلارا حديثها قائلة — لقد اتصل بي من اخبار حادثة الامس ما ذهب بروعي فاحرمني الهجوع والقاني من غمي على فراش من دموع لكنني عندما علمت ان قد عهد بفصلها اليك سري عني وزال كربي فاشكر لطفك واثني على جميلك لقبول الحكم فيها رحمة بي

فلما سمع دابيرون شكرها وثناءها بكلام يقطر لطفًا اطرق خجلاً وقال

— لست في شيء مما تثنين بهِ عليَّ

وكان صوت دابيرون يتهدج حتى تنبه خاطر الفتاة اليهِ فتوهمت انهُ ناشيءٌ عن ذكرى ما كان من امرهِ معها سابقًا فقالت لهُ

— ان الاسباب التي تفرض عليَّ شكرك لهي واضحة وحسبي بوقوفي لديك وسبيل تقرّبي منك سببًا يقضي بذكر صنيعك لانهُ لو وكل امر البحث عن حقيقة الحادثة الى رجل آخر لامتنع عليَّ الطريق اليهِ وبعدت مني حيلة التسلية في استجلاء الغامض على انني آملة بك ان تفيدني عما اوجب القاء

القبض على ذلك المظلوم وزجه في السجن دون رحمة

فتنهد دابيرون تنهدًا اسمع كلارا غير انها لم تستطع بيانه فاستطردت الكلام الى ان قالت

— ان طمعي بلطفك وحلمك يحملني على ان اتكلم بحضرتك ولا احاذر خطرًا وقد تاكدت لي مودتك فاعتمادًا عليها اسالك ان تفرج عن المظلوم سريعًا واعلم يقينًا انهُ بريء

ان كلارا كانت تتكلم شان من كان على يقين من امره جاهلة ما انطوت عليهِ تلك الحادثة من التفاصيل التي وجهت كل التهمة الى حبيبها اما دابيرون فتاثر لكلامها واضرب عن ملامها في عرض الطلب خاضعًا لحكم تلك العيون التي كانت تشفع لديهِ بحركاتها الفتانة فمكث صامتًا لا ينتهي من عجبهِ وحيرته في ازاحة الستار عن خبايا تلك المسئلة التي لا ريب تزعزع اركان سعادة كلارا . وقد كان في الامكان ان يقابلها بالصد كما قابلتهُ عندما باح لها بحبهِ لكنهُ لطف اعتراضهُ على اعتقادها ببراءة ساحة البرت ولم يرضَ بذلك فوزًا فقال

— ان لديَّ من البينات ما ينكر براءته

فقامت للحال كلارا مزعوجة تعترض عليهِ بالاشارة فاستانف دابيرون الكلام قائلاً

— بل اوكد لكِ انهُ اثيم

— ما اخالك ترعى الاوهام

— كلاً بل انا عند حد اليقين واذا شئتِ اطلعتكِ على الوقائع حرفًا حرفًا

فما كادت كلارا عند هذا الكلام تصدق بوجودها بحضرة الرجل الذي عهدت فيهِ الرقة واللطف والحب بل كانت تكذب بما سمعت وما نقلتهُ اليها آذانها وحملت كلامهُ من العجب على الايهام

— اما دابيرون فكان لم يزل لديها غضيض الطرف تلوح على محياه شارات الحنان والرأفة الى ان قال

— يشق عليَّ يا سيدتي ان آتيكِ بالحقيقة دون تمويه وقد نالني من العلم بها ما نالك وسهمنا في المصيبة سواء واحب اليكِ ان تاخذيها عن صديق ما غوى في حبكِ ولا سعى في نقض ما ابرمهُ من جهة قلبكِ فتاهبي اذن لاستماع الشكوى وجرّدي نفسكِ من هواها وتدرعي بالصبر على احتمال البلوى . كلاَّ ان الحكومة لم تخطىء المرمى في القاء القبض على الفيكونت دي كوماربن وقد ثبت لديها انهُ هو القاتل بادلة صريحة

وكان دابيرون عند تصريحهِ بالشكوى امام كلارا كالطبيب الذي يصب في كأس الدواء نقطًا من السم عملاً باصول الطب ابتغاء المنفعة ويلتمس من عينيها الاثر الذي وقع في نفسها من كلامهِ حتى اذا رأى انزعاجها امسك عن الكلام . فكان يتوقع منها سكب الدمع والتلهف على وقوع حبيبها في انياب الشدة . لكن كلارا لم تبالِ بشكواه فصدتهُ قائلة

— كذب من رماه بهذه التهمة فما كان البرت فاتكًا ولا سفاكًا ولو قدّر انهُ اقرَّ من نفسهِ بذنبهِ لانكرتهُ عليهِ وخطأتهُ فيهِ

— انهُ لم يبح حتى الآن بذنبهِ ولا بد ان يصرّح بهِ تحت عبء البينات التي القيت على عاتقهِ فكانت كلها واضحة ولا وضوح الشمس رأد الضحى

— لا اصدق التهمة ولو اتفقت البينات عليها وانا كما علمت اعلم منهُ بنفسهِ فلا اقول بذنبهِ واجاهر بتبرئتهِ بين العباد كما اعلن كذب المفتري في كل البلاد

واذ حاول المستنطق الاعتراض قاطعتهُ كلارا الكلام فقالت

— انك تدفعني ايها المستنطق الى ان ابدل صفتي فالبس في مناظرتك غير حلتي وانتقب بغير نقابي فاقوم لديك قيامي لدى والدني شحًا بصيانة حياة هذا الشاب ورغبة في اقناعك وازالة الاوهام من صدرك . فاعلم انني

احب هذا الفتى منذ اربع سنوات وهو يحبني حبًا لا يفي الكلام بحق وصفهِ وتعريفهِ فشرح لي قلبهُ وكشفت لهُ صدري حتى كان كلانا واحدًا في القول والفكر فلم آنس فيهِ كل هذه المدة الّا ما كان باعثًا على تمكين روابط الحب بيننا وتوثيق عراه . بهِ نزلت نفس الانسان منزلها وفي قلبهِ عرف فضلهـا . بهِ تمخضت الكرامة واليهِ لفت السلامة و بالجملة ان الله خصهُ بخلال هي للانسانية كمثال. فانّى لمن كانت هذه صفاته ان ياتي جناية لا يقدم عليها الّا الضواري . وقد عرفتهُ منقطعًا لذاتهِ عن لذّاتهِ بينما كان كل من رآه حسده على نعمتهِ لان والده كان يمقتهُ و يبغي ببعده منهُ فقام معي يقاسمني الشقاء والعناء الى ان منّ الله علينا بالفرج فمالي ارى المفتري يلج علينا بالتزام الضنك والشدة بالله قل لي ما الذي يدفعهُ الى التحامل علينا

— لا خفاكِ ان البرت لا حق لهُ بالشهرة التي تقلدها والمال الذي تنعم بهِ حتى الآن وقد اقرّ بذلك واذ كانت حقيقة هذا التجرد سرًا في صدر عجوز خاف ان يذيعهُ الزمان قضى عليها قبل الاوان

— يا للفظيعة و يا للعار اذا كان المدعي قد اسند دعواه الى هذه البينة الوهنة لا ريب ان ما افترى بهِ عليهِ كان زورًا وبهتانًا وقد تحققت اسرار التي اشرت اليها فعرفتها بوجوهها اذ كان حزنهُ من اذاعتها شديدًا ليس فقط بالنظر الى ما خالطها من التمويه بل مخافة ان تكون لديّ من دواعي تعطيل موثقة الحب المبرمة بيننا . اما انا فعبثت باوهامهِ وسعيت في تبديد اكداره بقولي ان حبي لهُ لم يكن مسنودًا الى الشهرة ولا معتمدًا على المال بل اساسهُ الاتفاق . فمالي وللارجاف والتشنيع فاني احبهُ ولو اعترض عليّ الجميع فلمـا تاكد ثباتي على حبهِ على رغم الاشاعة شكر لحسن وفائي وقال لا احيد عن حبكِ حتى يعترض دونهُ فنائي

— لا يند عنكِ ايتها الكريمة ما يعترض للانسان على غمهِ وهمهِ من الخواطر التي تسوقهُ الى تلفهِ وهو لم يتعمدهـا بل يجري معها كالذاهل الحائر

فلا ينتبه الى غوائلها الاّ بعد ان يكون قد اقتحمها جهلاً . ولا يبعد ان يكون البرت قد جرى على ذلك في ما فعل بعد اذ تاكد من ابيهِ الجفاء وحرمانهِ من النعمة التي تمتع بها طويلاً فحاذر ان يسقط من اعين الناس فيصبح بينهم ذليلاً بعد ان تبوأ من المجد مكاناً رفيعاً ونال قدراً جليلاً

فاكفهر وجه كلارا ولاحت عليهِ سيماء الكآبة كأن بها قد مالت الى جانب الشك فقالت

— ترى اهوى بهِ اللم الى ارتكاب تلك الجناية

— لا استطيع ان اقطع بذلك وقد ارانا في اقدامهِ على الجريمة وناهيهِ اليها حكمة يتيهُ بها عقل الناقد البصير لكن اكدي ايتها السيدة انني لا اسلك في مقاضاتهِ الاّ ما فطرت عليهِ من الحرص على العدل والرحمة واعلمي انني لم ازل على العهد ارعى الولاء فاصبري واكتمي حزنكِ الناس الى ان تجلو لديكِ عاقبة الامر لئلاّ يشمت بكِ الاعداء فيكثروا من ذمكِ في التطوّح بحب هذا الشاب المفتون

— بالله لا تخاطبني بحديث العموم فانني لا ارضى بهِ مقنعاً

— ان حبكِ يعصب على عينيكِ فيريكِ الضلال هدى والعدل اعتدا فابقي على كرامتك وشحي بسلامتك الى ان تكشف لكِ الايام حقيقة ما خطر ببالكِ انهُ وهمٌ من الاوهام ولا تقنطي من الحياة فسوف يأتيكِ الزمان بحبيبٍ سواه

وكان هذا الحديث يمرُّ باذن كلارا لغطاً لا تدرك معناه فقالت له

— عد عليَّ بنصيحتك لانني لم افقه مؤداها

— ما جئتكِ الاّ بما تلاه عليَّ قلبي من نصوص حبك فاحفظيهِ عني ولا ازال اكرّر عليكِ القول راغباً اليكِ بالتزام الصبر عند هذه النائبة وقدمي احزانك فدا شرفك واسكبي ما شئت من الدمع ندامة على عهد دنست بهِ حبك وخلوصك واطلبي الى الله ان يعاجلكِ بنسيانهِ لان من

احببتِ كان من دون اهلك

ثم امسك دايرون عن الكلام وجلاً لان كلارا كانت قد ضايقتها الاشجان ولم يعلم ان قلبها كان لم يزل حيًا حتى استانفت الخطاب فقالت لهُ

— تبين لي من كلامك قبلاً ان البرت اقتحم الجناية وهو مفتون

— لا انكر ما قلت واقول

— فاذن كان لا ذنب عليهِ

— ليس لنا ان نحكم بما انزوى في زوايا الصدور بل الحكم في ذلك لله وحده اما نحن فلا يسعنا الاَّ الحكم باثمهِ وربما تسنى للقضاة أن يخففوا من عقابهِ شيئًا او ان يصفحوا عنهُ لكن لا يدفعون عن شهرتهِ ما لحق بها من العار . بل تدرن على جسمهِ مدى حياتهِ

فاستوقفتهُ عندئذٍ كلارا وهي غضبي وقالت

— تريد بذلك ان تحملني على هجره والتخلي عنهُ حين الشدة فاذا كنت قد رأيت ما يراه بعض الرجال اذا دهم خلانهم مصيبة او نابهم نائبة اما انا فلا اتحوَّل عن عهدي ولو نزلت لحدي فالمرأة عمومًا هي اوفى الاصدقاء واخلصهم عند حلول المصاب ولا بد ان تكون عيناك قد اكدت لك هذا الامر وإن كان قد فاتك فاعتبره مستانفًا فتجد عند المظلوم المنفرد في نكبتهِ امرأة تبكي لبلواه وتحنُّ لأذاه . فاعلم وتيقن انهُ مهما تكلفت من الجد والنصب في الجهاد معهُ لا اعدل عن حبهِ وقد اخترتهُ لي من اول عهد الصبا حبيبًا فابقى على عهدي ولا اخلف بوعدي فاقوم اتراوح معهُ عبء العار الى آخر ايامي . فارموِ بنبالك تشق صدري قبل جلده . ارشدني الى السلوان يا من تقدمت اليَّ بهِ بالله اهدني مورده . كلاَّ كلاَّ انني لا ابغي بهِ بدلاً فبعد التخلف عنهُ ذلاً . هو حبيبي اذا سكن السجن ونصيبي اذا هجره ورفيقي اينما سار وشقيقي ولو عاش شاردًا في القفار . نعم نعم انني لهُ ايان استقر . وارد مورده على الخير والضر

وفي اثناء هذا الكلام استجنّ دايرون بكفيهِ يريد اخفاء لوعنه واطفاء حرقته فقال في نفسهِ — ما اشد حب كلارا لالبرت واحرصها على حياتهِ آه لو كان لي من يحبني و يرعى ودادي كما ترعى كلارا وداد البرت لكنت اشريه بروحي قبل ان افديه بمالي

ان المحبة التي اكدتها الفتاة لخطيبها بعثت في فواد المستنطق الغيرة والحسد فقال . ما لي ارى بعض الناس يحرمون لذة هذا الحب وفي قلوبهم من العواطف والاحساس ما في قلوب الآخرين أيعد ذلك جهلاً من المرأة بقدر تلك الاحساس . فما بالها آثرت حب البرت على حبي على انني قد احرزت من الكمالات وجمعت من الاسباب التي توهلني اليهِ . وبينا هو يناجي نفسهُ بهذه الخواطر لاح لهُ انزعاج كلارا وتصرُّم انفاسها فخطر لهُ ان يطن الجرس ليدعو الغلام اليهِ قصد ان يأتيهِ بما يعالج بهِ ضعفها واذ آنست فيهِ الاهتمام بهذا الشان انكرت عليهِ ذلك بقولها

— ما قصدت يا اخي في دعوة الغلام

— رأيتكِ مزعوجة فقصدت ان افرّج عنكِ

— لا يغرّنك ضعف بدا لك ظاهرًا وقد ربط الله على قلبي وثبت جاشي فان الحزن الذي توسمتهُ فيَّ كان ناشئًا عن اذاعة اسراري ولولا ان ما بحت بهِ كان من اجل البرت وفي سبيل خلاصهِ لكان غمي اشد مما رأيت وهي اعظم ما علمت وعاينت . ثم انني عنفت نفسي لتعرضها للدفاع عنهُ على انهُ لم يأتِ ذنبًا يستحق الدفاع بل كان بريئًا طاهر القلب صافي السريرة نزيهًا

وتحفزت كلارا للانصراف فاستوقفها دايرون باشارة منهُ يريد ان يجهز على فوادها فيحرمها امل الفوز بخطيبها معافىً ولما استانف الخطاب معها بفاتحة الاسف واللهف قاطعتهُ كلارا الكلام قائلة

— كفاك كفاك ما حملتني بحديثك وصبا وتيقن ان لا فضل لهُ لاقناعي على انكار من مال اليهِ القلب وصبا . فامكث على عزمك واعتقادك لكن

ارجوك ان ترحم شقائي وترثو لبلائي ولو كنت حقًا صديقي لكنت اعاهدك على نصرتي لكنك تأبى الخلوص معي في خلاص حبيبي

فاضطرب دابيرون عند هذا الكلام واستقبل صابرًا سهام الملام فحاول من نفسهِ عبثًا التحوُّل عن اعتقاده بجناية البرت لان المصلحة والحب كانا يتجاذبان فؤاده فلا يقوى معهما على الحيلة في استجلاء الوجه الذي بهِ يتوصل الى تبرئة الجاني خلافًا لما كان يعهد فيهِ من اللطف بالمجرمين والرفق بهم

ثم نظر الى كلارا وقال لها بصوت خافت — لو بسطت لديكِ ما وعت الاوراق من البينات لقطعت برجائك وعدلت بكِ عن حب ذلك الجاني

— فما عساها ان تكون تلك البينات التي توعدتني مرارًا ببسطها فهاتِ ما عندك منها

— فليكن اذن ما رغبتِ بهِ وسآتيكِ ببيان ما احرزتهُ الحكومة دليلاً على تخطئتهِ فلا تتوهمين بي خصمًا لدودًا بل ما زلت لكِ صديقًا ودودًا ولكن لما كان الزمان لا يسمح لي بسردها الآن فحسبي بواحدة منها حجة سديدة تقع قذى في عين كل معترض وهي ان الجناية كانت في ليل ثلاثاء المرفع وقد تعذر على المتهم اشهار المكان الذي استقرَّ فيهِ تلك الليلة قال انهُ خرج فيها من منزلهِ ولم يعاوده الاَّ عند الثانية من منتصف الليل وقد اتت اثوابهُ وكفوفهُ بما رسخ عليها من الآثار ما يفحم المدعي زورًا

فقاطعتهُ كلارا الحديث فرحة بهِ قائلة — مهلاً يا اخي مهلاً أَهذه هي الحجة التي تويد بها التهمة . أَتتخذ خروجه تلك الليلة وتأخير عودته سببًا للجناية

— نعم يا سيدتي

— فيا لخيبة امل الخصم اذن في دعواه اذ جاء باوهن الادلة تأييدًا لمرامهِ وانفاذًا لما رَبهِ فان البرت كان ليلة الثلاثاء عندي وفي داري

— هل كان البرت تلك الليلة بالقرب منكِ

— نعم

فتضعضعت خواطر دابيرون عند هذا الاثبات حتى ظن نفسهُ في غفلة او سبات ثم استانف السوال فقال

— هل رأتهُ جدتك وقيمتك وخدمك في القصر . هل تكلموا معهُ فناظروهُ

— كلاّ يا سيدي انهُ جاء اليّ خفية عن اعينهم لانهُ كان قد بدا لهُ امرٌ احب مكاشفتي بهِ سرّاً وانصرف عني دون ان يدري بهِ احد

فتنهد دابيرون تنهداً هذا معناه — انها تبذل اقصى الجهد في نجاتهِ وقد رأت دون انفاذه تعريض شهرتها

اما الفتاة فتاولت معنى تعجب دابيرون تاويلاً اسندتهُ الى رضاها عن الاختلاء بالبرث فقالت لهُ

— ان تتعجب من كلامي ايها المستنطق تغض من شرفي وقدري

— ما قصدت يا سيدتي . . .

— لا تحاول تاويل تعجبك الى غير ما اشار فاعلم ان من كان في مقامي تسنى لها ان تستقبل خطيبها دون باعث فلا تخجل من الوقوف بهِ ساعات استغرقها بيان الخلوص والولاء

وكان الغضب والغيظ قد صبغا وجهها فاضمرت الحقد على المستنطق فاعترضها قائلاً

— ما كان من قصدي الايقاع بحرمتك والغض من مكانتك كما توهمين لكن عجبت من اختلاف الفيكونت اليكِ خوف الرقباء على ان امر خطبتك اليهِ قد ذاع وشاع فدنا عهد القران فضلاً عن ذلك انني حرت من وقوفهِ بكِ وعليهِ تلك الثياب الوسخة

— اذن انت في ريب من حقيقة كلامي

— ان الزمان يكذب بها . . .

— اسالك ان لا تهتر عرضي مدعياً عليّ بالكذب والبهتان وتيقن اننا

او كنا مذنبين لما نقدمنا ببينات تبرىء ساحتنا لديك فنكبنا عن نهج الرجاء واتصال طلب السماح

فساء دابرون تيه كلارا واستصغارها لقدره فاعترض عليها قائلاً

— لا يغرب عنكِ انني مستنطق وعليّ واجبات لا يسعني اغفالها فاتصل بي خبر الجناية فنقبت في اسبابهـا وبحثت عن الجاني فتبين لي انهُ الفيكونت دي كومارين فالقيت القبض عليه عملاً بالسنة الجارية ان يوخذ الجاني بذنبهِ فاستكشفتهُ وعرفت منهُ انهُ اثيم فما فائدة المعترض على الحكم في تخطئة الجاني اذا كان هو الشاكي على نفسهِ. وقد كان من الواجب ان اصمّ اذاني عن سماع دفاعك ولولا انني اودكِ وارعى عهدًا بيننا حصل قديمًا لما اطلت الوقوف بكِ باحثًا عن مسئلة لا قبل لكِ فيها ومع ذلك انني كنت راضيًا عن حديثك معي عند حد الصداقة اما الآن وقد حدتِ عن نهج الولاء فاخاطبك مخاطبة الحاكم المعترض واطلب اليكِ ان تاتي بالبرهان

— ان كلامي يا سيدي . . .

— مالي ولكلامك أيدي دعواكِ بالبرهان

فنهضت عندئذٍ كلارا وقد شخصت عيناها الى المستنطق تحكي عما شمل فوادها من الحيرة وما عرا سرّها من الريب والشك فقالت

— أيلذ لك ان ترى البرت مذنبًا جانيًا ام يحلو لك الحكم عليهِ ام هل لك من ثار تاخذ بهِ منهُ وقد غدا رهن يديك . هلاَّ نزع بك الهوى فتحاملت عليهِ وفي نفسك من مراثر الماضي ما امالك عن عهدك بالرفق والعلم . اكد لي انك لا ترافعهُ لخصم تود تنكيله

— كفاكِ تسددين سهام التقريع والملامة

— أذهلت عما كان بيننا حين صرحت لي بحبك وكشفت لي من خلوصك ما صدقتهُ وشكرتك عليهِ ولم انكر عليك التعاقد معك الاَّ لاعتلاقي بحب من تقدمك بالطلب فصدفت عني والدمع من عينيك شاهد على حسرتك وكيدك

فجعلك الدهر ان تكون حكمًا تامر في دعوى من رماه بعسفهِ وجوره . ولي في قبولك الحكم عليهِ دليل بيّن صريح على الانتقام منهُ

ان كلام كلارا كان كالسهم النافذ في صدر دابيرون وقد ادهشتهُ بفصاحتها وطول باعها في الدفاع على انهُ كان قد عهد بها العي عندما كان ينتاب منزلها واعجب من كل ذلك انها كانت تناجيهِ باسرار نفسهِ كأنها صداها

— ان الحزن الذي تيهكِ يشفع بكِ عندي فاضرب صفحًا عن قذفك بي ولا لوم عليكِ لجهلكِ الامور ولا يخال لكِ ان الحكم على البرت يناط بي وحدي ومعي اعوان لا يرضون بما قدمتِ بيانًا لتبرئة ساحة حبيبك او خطيبك . فان صدقت كلامك واذعنت لما تصرحين بهِ كان ذلك مني علمًا بما انتِ عليهِ من النزاهة اما الآخرون فانهم يأبون الاذعان لما تنهي بهِ البينات وما يقضي بهِ العدل

فاذرفت عندئذٍ كلارا الدمع وقالت باخمد صوت — لئن كنت قد تماديت يا اخي في الطعن فعفوًا لان الشقاء والبلاء يدفعان الى التيه والضلال فلا تاخذني بذنبٍ ما تعمدتهُ ولا تعودتهُ

— لقد اكدت لي قبلاً اخلاص طيتي وسلامة نيتي فلا اعتد كلامكِ معي طعنًا بل ان ما يكدرك يؤلمني

— فالرجاء بك ان تسعدني على تأييد ما قدّمت وتصديق ما ابنت وها انا اقص عليك قصتي بلا تمويه ولا رثاء

ان دابيرون كان على يقين من محاولة كلارا خداعه فلم يقصد ان يصدها بل كان يعجبهُ ثبات عزيمتها فقال في نفسهِ — ترى ما عسى ان تاتيني بهِ من الفريات او ما الذي تروم اقناعي بهِ

فاستانفت كلارا الخطاب فقالت

— لقد علمت يا اخي بما حال من الموانع دون اقتراني بالبرت لان والده

الكونت كان يابى ان يزوجه مني لفقري فاضطر البرت ان يجاهد في سبيل اقناع ابيهِ نحو خمس سنوات كان يتمكن اثناءها من رضى والده حيناً ثم يعدل عنهُ الى ان توصل منذ شهر الى ادراك سوءلو والمرام . فساء جدتي تردد الكونت وإنكاره ولكن لم يسعها الاّ التسليم لرغبتي بيد انها رأت من الحكمة ان ترجيء العقد لاجلٍ غير مسمى قصد ان تبعد بافكار الناس عن المظان فيرمونها بالطمع في التقرب من الكونت ثم رغبت الى الفيكونت في اثناء خطبتهِ ان لا يكثر الترداد الينا . فقضي عليهِ وعليّ ان لا نتقابل الاّ لماماً . ومكثنا مدة على هذه الحال الى ان علمت عنهُ يوم الاحد انهُ في شاغل يقعد بهِ عن موافاتي . فداخلني من هذا الابطاء همٌّ وقلق فاخذت اردد في ذهني توجيه السبب الذي يبطئهُ عن القدوم الى ان كان الغد فقمت انتظر قدومهُ و بينا انا ارقب الساعة بوجدٍ مبرّح دخل عليّ الغلام بكتاب يطلب اليّ البرت فيهِ ان اضرب لهُ موعداً فيود ان يكاشفني فيهِ بما خطر لهُ بمعزل عن رقيب قائلاً انني ابغي في اختلائي بكِ مشافهتك بما يترتب عليهِ سعادة مستقبلنا وراحتهُ . وقد ترك لي خيار اليوم والساعة مع العهد على كتم الامر فبعثت اليهِ بالجواب افيده موافاتي مساء الثلاثا الى باب الحديقة المشرع الى الطريق القفر وكان الذي حملني على اختيار تلك الليلة هو ان جدتي كانت قد احيت ليلة انس دعت اليهـا الخلان والاصدقاء فتسنى لي في خلالها الاختلاء لعلة في حجاب عن العيون

— ارجوك ان تسمي اليوم الذي كتبتِ فيهِ الى البرت

— نهار الثلاثا

— هلاّ يمكنكِ تسمية الساعة

— انني انفذت الكتاب عند الثالثة او قبلها بقليل

— كملي اذن ما ابتدأتِ بهِ

— ان الزمان وفقني الى ادراك امنيتي فتخليت عن الجمهور وانحدرت

الى الحديقة قبل ايذان الساعة المساة و بينا كنت اعالج الباب لافتحهُ اذنت الساعة بالتاسعة فطرق البرت الباب قبل ان يتيسر لي فتحهُ فلخبرتهُ بعجزي ودفعت اليهِ المفتاح علهُ ينجح فكان حظهُ فيهِ كحظي فاضرب عندئذٍ عن الدخول ورضي بمكاشفتي من تفارج الباب فتحدثنا برهة ثم عنَّ لهُ ان يتسلق الجدار فاعترضت عليهِ في ذلك وقلت لهُ اياك ان تركب الحذر فتكدر وحسب ذلك الانكار من نفسي فاضطررت ان اذعن اخيرًا لخاطره فتسلق الجدار وكان اعلاه مرصوفًا بالزجاج فتدلى يستند على الشجر النابت في حدوده الى ان وقف بي وجهًا لوجه وقصَّ عليَّ القصة التي نحن في صددها فجلسنا ذهلاً من الليل على المتكإ حذاء الحديقة ثم دفعنا المطر الى السرادق فقمنا نتناجى في ظلهِ الى ان انتصف الليل فقام وانصرف عني من حيث اتى غير آنني كفيتهُ مونة العناء في تسلق الجدار اذ اتيتهُ بسلم البستاني فصعد عليهِ وتدلى الى الطريق

ان لهجة كلارا في سرد القصة كانت تحكي عن صدقها دون اشكال حتى حار دابيرون في امره والتبس عليهِ وجه الاعتراض فقال

— هل عاجلكما المطر قبل تسلق البرت الجدار

— كلاَّ بل اصابنا عندما كنا على المتكإ فنشر البرت ظلته

— فاسمحي لي اذن ان انقطع لنفسي قليلاً

فقام دابيرون وجلس على طاولتهِ فاخذ رقعة يدعو بها البرت اليهِ ثم كتب اخرى الى احد الشرط يكلفهُ فيها الذهاب الى الموضع الذي اشارت عنهُ كلارا في حديثها ليتحقق علو الجدار و يبحث عما يكون ثم من الآثار في صعود البرت وانحداره . واوعز الى الشرطي ايضًا ان يويد بحثهُ بما ينفي عنهُ كل ريب

وكان قبل ان يبتدىء بالكتاب الثاني قد دعا الغلام بسلك الاشارة اليهِ فحضر بين يديهِ فقال لهُ

— دونك هاتين الرسالتين فاذهب بهما الى الكاتب ،ابلغهُ رغبتي في انفاذ ما يشيران اليهِ واياك الابطاء واذا كان كونستان في الخارج فانتظره او فارسل من يدعوه اليك لانهُ لا بد ان يكون في انتظاري . سر اذن عجلاً واحذر التاخير

وعقيب ان فرغ من عملهِ عاد الى كلارا فقال لها

— هلاَّ حفظتِ لديكِ الكتاب الذي بعث بهِ البرث يطلب اليكِ الموعد

— نعم وربما كان معي

فقامت كلارا ونقبت في جيوبها الى ان وجدتهُ فدفعتهُ الى المستنطق

فاخذه المستنطق وقبل ان يتصفحهُ تبادر الى ذهنهِ الوهم بان الفتاة كانت ربما قد جعلت هذه الرسالة في جيبها من قبيل الاحتيال لان ليس من دأب السيدات ان يحملن في جيوبهنَّ رسائل الاحباب لا سيما تلك التي تتضمن الاشارة الى الخلوات وما لبث ان قرأها سريعًا ثم قال

— اراه اغفل تاريخها ولا شارة عليها

فلم تسمعهُ كلارا لانها كانت تشتغل في احراز بينة تؤكد فيها ذلك الموعد وتثبت تلك المكاشفة فقالت لهُ

— يتفق كثيرًا للانسان انهُ اذا اراد الخلوة ورغب بها احدقت بهِ الرقباء وشخصت اليهِ العيون . فاسال يا اخي اذا شئت غلمان القصر لعلَّ احدًا رآه معي تلك الليلة

— أَلا يكدركِ ذلك

— كلاَّ انني لا اخاف اذاعة الامر وقد توقف عليهِ خلاص البرث

فاكبر دايرون سيرة كلارا واعجب بخلوصها خصوصًا عندما رأى فيها هذا الانقلاب العظيم من العي الى الفصاحة التي يتيه بمثلها احذق المحامين

ثم فطنت الى دليل آخر على وجود حبيبها تلك الليلة بقربها فقالت

— ان المفتاح الذي كنت قد دفعتهُ لالبرت لم استرجعهُ فلا بد ان يكون قد بقي لديهِ فابحث عنهُ لعلهُ حفظهُ عنده فمنهُ نتأكد زيارته

— ساسعى في الوقوف عليهِ

— ولك ايضاً ان تبعث من ينظر في الموضع فيتحقق الجدار الذي اشرت اليهِ

— لقد تقدمتك في هذا الراي فبعثت بطلب الفحص في احدى الرسالتين التي انفذتهما مع الخادم

فقامت كلارا عندئذٍ وقد تهلل وجهها بشرًا فمدت يدها الى المستنطق قائلة

— انني اشكر فضلك على ما سعيت من اجلهِ سعيًا يوكد لي انتصارك للحق واخذك بناصر المظلوم من الظالم وقد بدا لي ايضاً دليل آخر وهو لا بد ان يكون البرت قد حفظ ايضاً لديهِ الرسالة التي كنت وجهتها اليهِ نهار الثلاثا

— كلاَّ فانهُ احرقها

فغضت طرفها كلارا واجمت لتوهمها بهذا الجواب شيئًا من السخرية غير ان دابيرون قال حقًا لانهُ كان قد تذكر ما فعلهُ البرت عندما تلقى تلك الرسالة بعد ظهر الثلاثا اذ القاها في المستوقد فقال في نفسهِ لا ريب انها من الفتاة ولذلك كان جوابهُ عليها بعد ما تصفحها « لا تستطيع معاندتي او مقاومتي » ثم حوَّل نظره الى الفتاة وقال لها

— اما كان يسهل على الفيكونت ان يشرح لي الامر الذي علمتهُ منكِ الآن فلا يضلني بكتمانهِ ويتيه الحكومة ايضاً

— ان حرص البرت على شرفي وشحهُ بعرضي جعلاه على ان يفدي حياته خيرًا لهُ من ان يبوح بشيءٍ مما اودعتهُ سره وعاهدتهُ على كتمانهِ

فلم يرَ دابيرون اعتراضاً على هذا الكلام بل جاء جوابًا لسؤال اقترحه على البرت اثناء استكشافهِ فقصر عنهُ لسبب غامض فقال دابيرون

— يقتضي ايتها السيدة تتمة للفائدة المطلوبة منكِ ان تسردي ما بسطتهِ الآن بحضرة الكاتب ليسطره امامهُ فتوقعينهُ ولا يسوءكِ ذلك فان الحال تقضي عليكِ بتحمل هذه المشقة

— انني بكل سرور اذعن لاشارتك فما من عقبةٍ تحول دون نجاة البرت الاَّ واسعى جهدي في تذليلها فلو رفعت دعواه الى المجلس الاعلى لكنت تقدمت بنفسي وجاهرت بما عندي من العلم بامره دون حجاب يمنع من الخجل او الخوف لانني تاكدت ثبات حبهِ وامتلكت خلوص قلبهِ فلا اخاف منهُ صدودا ولا اخشى في عقد ولائهِ ردودا

ثم قامت ونظمت رداءها ومكنت قبعتها شان من يبغي الانصراف فقالت

— هل من حاجة الى اطالة المكث هنا ليعود الباحثون بما جمعوه من الادلة في مهمتهم

— كلاَّ

— لم يبقَ اذن عليَّ يا اخي الآن اوَكد رجائي واوَيد اعتمادي على رحمتك ولطفك بالبرت فتجيز لهُ ان يهجر السجن طلبًا للراحة

— انني اعدك بالافراج عنهُ متى بلغ ذلك مني حد الامكان

— بالله عجل بتسريحهِ احسانًا لمن تسالك العفو عنهُ وقد تاكدت براءة ساحتهِ من التهمة لا تدعني بين مخالب الشقاء وانياب البلاء رحماك انجدني بنجاة البرت واذا شئت انطرحت على قدميك مستجيرة

فبسط الحال دابيرون ذراعيهِ وانهضها قبل ان تهوي للارض وفواده يخفق تحت عوامل الحب واللهفة فكان بجسد الاسير على حالهِ قيود لو كان في ظلمتهِ وتلك الفتاة تسعى في نجدتهِ فقال لها

— انكِ تطلبين اليَّ ان آتي امرًا يتجاوز حد الامكان وانتِ تعلمين يقينًا بعجزي عن تلبية طلبك في تسريحهِ من نفسي ولولا انني كنت اقوى على تخلية سبيلهِ لما كنت اتقاعد اصلاً عن اطلاقهِ رحمة بكِ وضنًا بدموعك

وولوعك

— وكانت كلارا تزداد اسفًا ولهفًا فمزقت ثوب الصبر الذي كانت تجملت بهِ من قبل وكشفت للمستنطق تململها وولوعها فقالت

— يا لشقائي وشدة بلائي . انيّ يسعني ان اصبر على ما حاق بهِ من الشدة والبلاء وما يساوره من الضيق وهو لي خير حبيب بل شقيق . رب اوح في قلبي ما أُلين بهِ فواد قضاتهِ . ارشدني سبيلاً اصون بهِ سلك حياتهِ . فبمن استجير وممن اطلب النصير على دحض العذال وتقصيد النبال . ترى من ينجدني فانطرح على اقدامهِ . من يعدني بالعفو عن البرت فيقيدني بشكره مدى ايامهِ

ثم امسكت عن الكلام برهة تموه فيها دمعها المنهمر وقالت

— هلاَّ يصادف صوتي مجيبًا ويلقى ندائي حبيبًا . بلى بلى انني اقصد من وجب عليهِ انقاذ البرت من الهوة التي زجه فيها . ودفعهُ الى الشدة وفيافيها بلى بلى انني اذهب الى ابيهِ الكونت الذي تخلى عنهُ وبعد منهُ كأنهُ لم يكن ولده ومن كده . فعليَّ ان اذكره بما عليهِ . واحوّل انظاره اليهِ

وانصرفت كلارا للحال تنزو نزو الغزال وفي اثرها قيمتها وقد غادرت داپرون من حسرتهِ بين حيّ وميت بردد كمدًا وقهرًا ياليت ياليت

آه انني ما اخطأت الغرض في اختيارها لي حليلة وقد احرزت من الكمال كل صفة جليلة . الآن عرفت قدرها واستجلت عيبي بدرها فياندمي على حبها واحسرتاه على خسارة قلبها

وبينما كان يتاسف ويتلهف خطر في لبهِ خاطر كالسهم الخاطر فانتبه وقال

— ترى هل صدقت كلارا في روايتها واخلصت في حكايتها ام كان ذلك من منقولها . كلاَّ ثم كلاَّ ان كلارا ما نقلت بهتانًا ولا قارنت عليهِ انسانًا لكن اخاف ان يكون الخداع قد تطرّق اليها عن غيرها فاعتقدت بهِ طمعًا

باحراز خيرها

ان تاباري صدق في ما عنهُ تنبا . وقد قال لي انهُ لا بد ان تعرف بمكان البرت في تلك الليلة معرفة لا يتسنى لك صدها عن حقيقة يصعب ردها

ان في القضية سرًّا لا استطيع الآن استجلاءه فاخاف المكر والخديعة ولما طال بهِ الافتكار دون ان يقف منهُ عند حد بيّن جلي نهض وقال — الامور مرهونة باوقاتها ففي المرافعة تنجلي الحقيقة باوضح طريقة

الفصل السادس عشر

وفاة فالري

وكان عجب الكونت من وفود كلارا عليهِ اشد منهُ عجب دابيرون اذ دنا منهُ الغلام وهمس في اذنهِ قائلاً

— ان السيدة كلارا دارلانج تريد مشافهتك

فهتف الكونت دهشًا — قدوم من تعلن لي يا غلام . أكلارا اقبلت اليَّ

فتردد الكونت برهة في الجواب على التماسها خيفة ان تسمعهُ حديثًا مزعجًا لان كلارا لم تكن توده مطلقًا وذلك لما نالها من جفائهِ فقال في نفسهِ — ترى ما الداعي الى هذه الزيارة ربما كان قدومها قصد السوال عن حال البرت . وعقيب ان اخذ يفكر في الجواب على طلبها بين الرفض والقبول رأى اخيرًا ان يذعن اليها رعاية لحرمة من كان قد رضي عنها زوجة لولده فاوعز الى

الغلام ان ياذن لها بالدخول الى الردهة في الطابق السفلي حيث تنتظره ريثما يكون قد فرغ من طعامهِ . فما طال زمن انتظارها حتى وافاها الكونت فقامت اليهِ كلارا وانحنت امامهُ احترامًا فابتدأتهُ بهذا الخطاب

— سيدي الكونت . . .

فقاطعها الكونت يريد الغرض توًّا فقال — لا ريب انكِ قدمتِ في طلب العلم بحال ذلك الشقي

— كلاَّ بل جئتك بما عندي من العلم بمسئلته واخص ما عرفت منها انهُ بريء

— تدبري يا ابنتي كلامك قبل ان ترميه

— ما قلت الاَّ الحق وما عرفت الاَّهُ وقد كنت الان بحضرة المستنطق احد اصدقاء جدتي فقصصت عليهِ حقيقة الحال فاذعن وقال ببراءة ساحة البرت

— هل هو قال بذلك . اخاف ان تكوني على ضلال

— كلاَّ بل انني على هدى والامر واضح لانني اتيتهُ ببينة لم تخطر ببال احد من شهوده وقد ذهبت عن خاطر البرت فاعلمتهُ بمكانهِ يوم وقعت الجناية واكدت لهُ بالادلة الصادقة ان البرت كان تلك الليلة سميري الى ما بعد نصف الليل

— تلك بينة قاصرة

— كلاَّ وقد دعمتها بما ينفي كل ريب

فحار الكونت عجبًا وقال في نفسهِ . أَيصدق قول كلارا بتحوّل فكر المستنطق عن اتهام البرت

فاعترضت عليهِ كلارا وقد ساءها تردده في الحقيقة فقالت — مالي اراك يا سيدي تنهج في دعوى البرت نهج الخصم وانت ابوهُ . هل انت في ريب من براءة ساحتهِ وتنصلهِ من التهمة . أَتنكر ابنك فتتخلى عن السعي في نجاتهِ . آه ان تقاعدك عن الاشتغال بانقاذه يوذي بهِ . على انني قسرًا عن كل ما كان

يحول دون مبادرتي الى نصرتهِ اقدمت على الخطر وركبت الحذر في سبيل خلاصهِ

ان اقناع الرجل على تصديق ما يتمناه قريب المنال . فما كادت كلارا تتم سرد بيانها حتى ارتاح الكونت الى كلامها وسكن الى روايتها دون البحث عن مصدرها وموردها . فازال من فواده حديث كلارا كل ما كان غشية من الريب في وقوفهِ لدى المستنطق وتوسم في محياها السلام لانهُ كان قد شعر منذ ثلاثة ايام بالم فراق البرت فشق عليهِ سجنهُ واقلقهُ جدًّا عذابهُ فقال في نفسهِ . الحمد لله الذي محا عن شهرتي عارًا كتبتهُ عليها ايدي المفترين ثم سال كلارا قائلاً

— فاذا كانت الحكومة قد تاكدت براءتهِ فلا بد من ان تامر باطلاقهِ من السجن

— اسفاه يا سيدي ان تسريحهُ لم يكن مناطًا بالمستنطق بل باعضاء كثيرين ولذلك قد جئت اطلب اليك مساعدتي على العمل بتعجيل سراحه

— فما الحيلة

— هل لمن كان مثلي ان يرشدك يا سيدي سبيل السعي في نجاتهِ وانت اعلم مني بالاسباب التي يجب عليك اتخاذها توصلاً الى هذه الغاية أ لست تجود بما لديك حبًا بنجاة البرت

— لا ريب في ذلك

ان الكونت كان كالذاهل عن نفسهِ منذ القي القبض على الفيكونت فاضطربت افكاره وقلقت خواطره فلم يحاول اصلاً استنباط الحيلة في استجلائها بل كان راضيًا فيما صار اليهِ صيانة لنفسهِ من ألم الشقاء . فكان صوت كلارا في اذنيهِ كالصور يوم النشور فنهض من غفلتهِ ونشط من عقالهِ يستقبل بوجههِ نور الامل ويشعر من نفسهِ بقوة الشباب فتقدم وقال

— هيا بنا اذن

ثم بهت قليلاً وقد شملتهُ الكآبة وعرتهُ الحيرة فقال – لكن الى اين نذهب وعلى مَ نعوّل في سيرنا واي غرض نستهدف فلو كانت الاحوال على عهدها الاول لتسنى لي ان اطرق باب الملك فاشافههُ بهذه القضية لكن اليوم ليس للآمر ان يسطو باوامره على الشريعة فاذا تقدمت اليهِ بالطلب احالني على المحكمة وبيّن لي ان ذلك من خصوصياتها فلا قبل لهُ بالاعتراض على اعمالها فنضطر ان ننتظر الحكم على ان البرت يقاسي في سجنهِ العذاب ويتوقع من طرفة عين الى اخرى نهايته ان شرًّا وان خيرًا . فممن اذن نرجو الفصل في هذه الدعوى عاجلاً

— بالله يا سيدي لا نتردد في الامر وسر بي الى الاعضاء والوزراء فانا احدثهم بالقضية واطلب اليهم فصلها وعسى ان ننجح كل النجاح

فضغط الكونت على كف كلارا مسرورا بحديثها شاكرًا همتها وغيرتها قائلاً لها

— لقد طاب املكِ يا كلارا بالحقيقة لانتِ من خيار بنات جنسك وقد اتاك الزمان وسيلة تمتلكين بها فؤادي القاسي فقد تأكدت الان سموّ خلالك وعرفت سنا كمالك فلا ريب انكِ جديرة بان تكوني في اسرتي وبمقام ابنتي هنيئًا لالبرت بقربك وسقيًا لهُ اذا استحق امتلاك قلبك . لكن لا يسعنا يا حبيبتي ان نخبط في سيرنا ولا بد لنا من صديق نسترشده في هذه المهمة ليهدينا الرجل الذي نطالبهُ بشفاء غمتنا وتنفيس كربتنا فما لنا الاّ ان نسال نوال الدلالة عليهِ اذ كان محاميًا عارفًا باصحاب الحل والعقد

فشخصت كلارا الى الكونت عجبًا واندهالاً

فصرف الكونت عجبها بقولهِ – ان نوال ولدي وشقيق البرت وهو من نخلة الادباء وخيرة الحكماء عارف بالاسباب التي يقتضي علينا الاستمساك بها

ان ذكر نوال في عرض هذه المناظرة التي كانت آخذة بلب كلارا ذهب بروعها فجاز في فؤادها كالسهم حتى لاح للكونت التياعها فقال لها

— لا تخشي باساً فان نوال سليم النيـة صافي الطية يود البرت مودة حقيقية فلا يداخلنكِ من جهتهِ ريب وتاكدي انهُ يكون في مقدمة الجهاد لانهُ امس كان قد صرّح علناً بحضرتي ببراءة ساحة البرت وعزمهِ على تحرّي الذرائع التي تفضي بهِ الى نجاتهِ من اسره

لم يرتح خاطر كلارا الى هذه الادلة بل كانت تهجس قائلة — ما فعل نوال بالبرت . ولم تحرِ جواباً

فاستطرد الكونت حديثهُ قائلاً — فلنبعث الان بطلبهِ وهو لدى والدة البرت المحتضرة

— فمن تكون والدة البرت وهل هي في الوجود

— نعم يا ولدي وانا الان اقتصر على التلميح تاركاً لالبرت حق اكمال ما ابتدات بهِ لان الزمان لا يمكنني من الاسهاب في هذا الباب

ثم تردد برهة فرأى بدل ان يرسل في طلبهِ ان يذهب اليهِ بنفسهِ فيتم لهُ بهذه الحيلة مرأى فالري التي كان قد طال بعدها منهُ وصدها عنهُ

من الامور ما يسلم بها القلب ويندفع الانسان اليها فيحول دون مرامهِ حائل فيجاهد الفكر في شانها في مجال الحيرة الى ان ياتي الزمان بخلسة من عنده فيستمسك بها الانسان ويندفع اليها وراء ستار العذر وهو الشهوة او الميل وقد سماه العامة بالتوفيق او الحظ . فقال لكلارا

— ارى من اقرب الوسائل وادناها الذهاب الى نوال

— هيا بنا يا سيدي

— لا اعلم اذا كان يليق بكِ ان تسيري في رفقتي اليهِ

— فما ضرّني لو خطرت في صحبتك ومن اجل البرت اذ كان لا بد من وجودي بينكما لزيادة الايضاح في تفصيل القضية وانا ابعث القيّمة الى جدتي لتخبرها بذلك فتدعوها الى انتظارنا هنا

— اني اليك

ثم نقس الجرس واوعز الى الغلام ان يقرن الجياد للانصراف

ولما نهض بكلارا بريد ان ينحدر على الدرج امسكها بيدها يريد مخاصرتها قائلاً

— انكِ بالبشرى التي جئتني بها اليوم جددتِ شبابي فيليق بي اذن ان اخاصركِ بيان شكري لكِ

وعندما استويا على العربة اشارت كلارا الى السائق ان ياخذ في طريق سان لازار . فجدت الجياد في السير الى ان بلغت المحل المقصود فترجل الركب وصعدا بهداية الخدم يريدان غرفة مدام جردي . وكان الكونت اثناء صعوده مضطرب الفكر دائم الخفقان لقربهِ من مقابلة التي تلف بحبها . واذ بلغ باب الدار استقبلتهما الجارية فسالها الكونت مشافهة المحامي فاجابتهُ انهُ خرج منذ برهة لكن علمت انهُ لا يتاخر عن العود

— فنحن ننتظره

فتقدم الكونت بكلارا وامامها الجارية الى الردهة حيث كان ثلاثة اشخاص وهم كاهن الرعية والطبيب ورجل آخر وسيم الطلعة تشير حلتهُ وما زُرَّ بهِ شرجه الى انهُ جندي فكانوا يتناقلون الاحاديث وقوفًا عند المستوقد فلما وفد عليهم الزائران تعجبوا جدًا وبهتوا فلما دنيا منهم القيا عليهم التحية فحيوهما باكرم منها ولكن ما لبثت عيونهم تخالس النظر متسائلين بالاشارة عن حال الداخلين عليهم . فهمَّ الجندي للاحتفاء بالسيدة كلارا اما الكونت فازعجهُ وقوفهُ بينهم وهم في خلوة فرأى ان يبادهم بالخطاب مبينًا الغرض من زيارتهِ فقال

— اسالكم العذر سادتي عن وجودي في خلوتكم ولولا حاجتي عند نوال لما نقضت حرمتها ومن الواجب ان اشهر لديكم اسمي فانا الكونت دي كومارين

فلما طرق اذن الجندي هذا الاسم انتصب غضبانًا وعيناه تقدح شررًا ثم تنحى جانبًا مخافة ان ينم بهِ غضبه

فلم يتبين ذلك الاثر من حضر الاّ كلارا و بينما كانت تهيء مجلسها مال الكونت الى الكاهن فهمس في اذنهِ قائلاً

— ما شان مدام جردي

فتقدم الطبيب الكاهن بالجواب على سوال الكونت رغبة في التقرب منهُ فقال لهُ

— اخشى يا سيدي ان تقضي اجلها قبل انصرام اليوم

فامرّ الكونت يده بجبينهِ شان من أثر في نفسهِ الخبر وامسك عن الكلام برهة ثم قال

— هل عاودها الرشد

— كلاّ وقد عرض لها ليلاً عارض من الحمى ذهب برشدها فلم يبقِ على روحها . وها ان القسيس بانتظارها ليقضي بما تدعو اليهِ الواجبات الدينية . ولا بدَّ ان يكون الالم قد اشتد الان عما كان قبلاً

فما كاد الطبيب يتم حديثهُ حتى سمع انينها من اقصى الغرفة المجاورة مصداق قولهِ فقال لهُ الكونت

— اسمع ايها الطبيب انين المحتضرة

اما كلارا فمكثت مكانها دون ان تدري بشيء مما كان يجري بالقرب منها غير انها كانت تشعر بتصرُّم انفاسها وحرج صدرها من قعودها في مكان انحشرت فيهِ الكرب وانتشر فيهِ البلاء فدنت من الكونت بينما كان يسال قائلاً

— أهي هنا

فاجابهُ الجندي بصوت جاف — نعم

ان شدة ارتباك الكونت اذهلتهُ عن كل الحركات التي كانت تبدو امامهُ ولولا انهُ بالقرب من فالري لكان فطن لاشارة صوت ذلك الشيخ في جوابهِ لكنهُ لبث مطرقًا يفكر بتلك التي ساهمتهُ لذة حياتهِ فقال

— انني ارغب في مشاهدتها

فاجابهُ الجندي — ما الامر باليسير

— لماذا

— ألا افلّ من ميتة نستقبلها بسلام

فاحجم الكونت عندئذٍ احجام من يستجنُّ رشق السهام فاطرق نظره عند استقبالهِ نظر الجندي كما يطرق الجاني بحضرة الحاكم .

اما الطبيب فاعترض الجندي قائلاً — لا باس اذا دخل عليها الكونت وهي الآن في حالٍ لا تقوى معها على معرفتهِ فيخشى من المقابلة اضطراب حالها

وتلاه القسيس مؤيداً كلامهُ بقولهِ — انها لا تنتبه الى شيءٍ وقد دنوت منها الان فاخذتها بيدها دون ان آنس فيها حركة تشير الى اليقظة

لكن الجندي كان اثناء هذا الحديث مفكرًا ولما رأى اجماع الراي على السماح بدخول الكونت قال لهُ

— ادخل لعلَّ الله ارسلك اليها

وكان يتهادى في مشيهِ اليهـا حتى اضطر الطبيب ان ياخذ بيده مع القسيس

اما كلارا والجندي فلبثا واقفين بالباب · فما كاد الكونت يخطو نحو خطوتين حتى وقف مزعوجًا وكأَن بشيءٍ من نفسهِ يثبطهُ عن التقدم فهجس قائلاً عندما رآها عن بعدٍ — ويلاه ماذا ارى أهذه فالري تلك الفاتنـة بجمالها

اما هي فلما وقع رائد نظرها عليهِ شعرت بقوة غريبة انعشتها قليلاً فاجلستها على الرغم منها ورفعت يدها الى جبينها فنزعت عنهُ ما كان متلبداً عليهِ من الثلج باشارة الطبيب وارسلت فرعها الى الوراء وهتفت باخمد صوت

— أأنت كوي

فعند هذا الهتاف تهزأت اعضاه الكونت وجمد في موقفهِ جمود من

اصابتهُ الصاعقة وعيناه شاخصة الى فالري وقد تبدلت هيئتها فماج النور على جبينها ينبعث من عينيها فيوحي لرائيها الحنان والانعطاف . ثم استانفت الكلام فقالت بصوت مازجه الانين

— الحمد لله الذي هداك اليَّ بعد ان طال تغيبك عليَّ فلو كنت تدري ما قاسيت من العناء وعانيت من الشقاء لرحمتني وادنيت مدى بعدك مني . آه يا كوي لولاك لكنت الآن رهن اللحد جزى الله من اقعدك عني . ناشدتك الله قل لي ما الذي ابطأك عني حتى الآن وعلمك ان تدور مع الزمان . أأهلك يا كوي . أخلانك واحبابك . ألا يعلمون ان كل من في حماك يهواك لكن انا وحدي في كل من في حماك . كلاَّ كلاَّ انني فطنت الى السبب . . . وقد كنت رأيتك منصرفًا عني غضبًا لان احبابك ارادوا ان يفصلوا بيننا فوشوا بي عندك وارجفوا بحبي لغيرك آه ترى بما جنيت حتى احدق بي الاعداء فكانوا عليَّ ألدَّاء . أليس ان سعادتي ثارت في نفوسهم ثورة الحسد والغيرة فحملوا عليَّ ولجوا في عذلي لدى من هو اعز الناس لديَّ وقد تاكدت انكارك عذلهم ووشايتهم بوجودك عندي واقبالك اليَّ

اما الزاهدة التي كانت قد انزاحت عن موضعها لتالب العواد في مضجع المريضة ارسلت انظارها في تلك الحضرة حائرة طائرة

لكن فالري استانفت حديثها فقالت — أأنا اخون بعهدك وامكر بودك هل يداخلك ريب في خلوصي وقد تيقنت انني انا منك ومن خيرك وفضلك نعم انت لي وكل مالي انت فما رغبت بشيء الاَّ وكان لي اضعاف ما رغبت فكنت لك قلبًا وقالبًا منذ اول يوم انزل على قلبي طابع حبك فما ترددت في قبوله كانني لم اخلق الاَّ لاجلك كوي ألا تذكر عهد حبنا القديم يوم ضربت على الفقر بيد المساعدة فحرمت نفسك لذتهـا رحمـة بي وقد كنت صرحت لي بعجزك عن تعزيز مكانتي لقلة ذات يدك اذ كنت قد قدمت باريس طلبًا للفقه . وكنت حبًا بي قد عزمت ان تصلح بناء داري في رصيف

سان ميشال . آه ما كان ابهج تلك الايام التي مرّت بنا وما اقصر تلك الساعات لزيادة سرورنا فيها اذ كنا نقف عند النافذة المطلة على قصر التويلري فنجيل النظر معًا في رياضهِ الغناء ومقاصيره المحكمة البناء . آه ألا يانس خاطرك بذكر اوقات الصفا اذ كنا نجتمع سواء في الحدائق فنتناظر وكأن كلاً منا عيون نتمتع بجمال محيانا لكن قد خدعتني فموهت عليَّ لانك لم تكن طالبًا الفقه وقد رأيتك ذات يوم في الطريق على عربة يجري وراءها غلامان عليهما حلة موشاة بالذهب الخالص فما كدت اصدق عينيَّ بما نقلت ولما عدت المساء اخبرتني صريحًا انك من محتد كريم واسع الثروة . فلمّ صرّحت لديَّ بذلك

فقال الكوست في نفسهِ — ترى أتهذو ام تروي الحقيقة . وكان الدمع يهطل من عينيهِ فيموههُ بيده كالفتى فاعظم الطبيب والقسيس بكاءه فقالا ما بال هذا الشيخ يبكي بكا الفتيان هل لهُ سرٌّ في صدر الزمان

ثم استطردت مدام جردي حديثها الى ان قالت

— امرتني ان اهجر منزلي على ذلك الرصيف فما اسفت واذعنت لاوامرك وانقدت لمطامعك فجعلت لي اساتذة فاخذت عنهم بعض العلم . آه كوي ليتك كنت حقيقة طالب علم لا غنيًا لكفيتني ألم شباة الظنون وصنوف الكدر ان المثرين لاشقى الورى فلا يصفو قلبهم ولا يطمئن خاطرهم . لانهم لا يعلمون بشان المتقرب منهم وحقيقة حبهِ لهم فيتوهمون بهِ حبيبًا بل ربما كان طامعًا بمالهم تلك افكار ملأت قلوبهم غيرة وحسدًا فمزقها الحذر والقسوة لِمَ لِمَ يا حبيبي هجرنا تلك الدار وفيها اكتمل بدر سعادتنا وعظم املنا في الراحة والهناء لِمَ لِمَ تدعني حيثما وجدتني اما كنت تعلم ان السعادة والغبطة لمن اقوى الاسباب التي تثير في نفوس الناس الاطماع والحسد . كان من الحكمة ان نكتم سعادتنا كتمنا الاثم ولا نشتغل في الترقي الذي كان اس انحطاطنا بل ذلنا ان الافتخار بمحبتنا حملك على اشهارها على رغم رجائي في كتمها فنالنا منها ما نالنا وعلم الكل بمكاني منك فتقوّلوا عنك الاقاويل المتضاربة ورموك بالاسراف

حبًا بي حتى اطرقت خجلاً من المكانة التي تبوأتها عن يدك كنت تعجب بحسني وبهجتي فيسرك هتاف الناس بي اما انا فكنت ابكي علمًا مني ان تلك الحال تؤدي بي الى الخسة والعار وكم سمعت الناس يتحدثون عني كما يتحدثون عن اولئك النساء اللائي يعنين في زينتهن لافتتان الرجال وما كفاني ذل القذف باللسان حتى هترت عرضي اقلام كتبة الصحف وعنها عرفت ايضًا بعزمك الزواج آه كان من الواجب ان ابعد منك فاصد عنك لكن الهوى تغلب عليَّ فاقعدني عن القطيعة على بساط الذل والدناءة وقضى عليَّ ان اجرَّ ذيول الشقاء والعناء واشد ما كان حزني وقلقي يوم وافتني الصحف تنقل خبر زواجك وانا لم ازل لديك كما كنت قبلاً خليلتك فانقطعت تلك الليلة في غرفتي وحيدة وما قولي كذا ومعي الهمّ فقلت في نفسي . يا لشقاء تلك الطاهرة النقية التي غرّها الجلاء فادناها بحبائلهِ من صدر قد ضمني قبلها فكان ناكس العهد خافر الذمة . وكنت اتوقع الجزاء بالبلاء حتى لقيتهُ اليوم اذ ابقى عليَّ الدهر بالقهر واحرمك خليلتك . لهفي عليها انها كانت تودك مودة صادقة فخنت عهدها وصرمت ودها بل جعلتني عونًا معك على قتلها لانها لا ريب قد قضت كمدًا من حبنا

وكان الحضور يصغي الى حديثها دون اعتراض لكن كلارا كان قد اعياها الوقوف بالباب فجثت ناحية على ركبتيها وقد جعلت منديلها في فيها لتميت حركة تنهداتها وزفيرها قائلة في نفسها — ترى اما هي والدة البرت

اما الزاهدة فكانت جالسة دون ان تعبأ بامر من الامور ظنًا منها ان ذلك الحديث الذي كانت ترويهِ فالري لم يكن الاَّ حلمًا او هذيانًا حتى انها نهضت اخيرًا متقدمة الى السرير وقالت للمريضة

— تدثري حذر البرد

فاعترضها القسيس والطبيب قائلين مع الجندي — دعيها تتكلم دون باعث

فاستانفت فالري روايتها قائلة — من الذي وشى اليك بخيانتي وارجف بصرف مودتي عنك يا للطغاة ما اقدرهم على بث الشقاق فانهم تجسسوا اعمالي وراقبوا خلواتي حتى تبين لهم ان ضابطاً كان يزورني لكن فاتهم ان ذلك الضابط هو اخي وشقيقي لويس الذي لما بلغ الثامنة عشرة وكان في عطلة من الاعمال دخل في سلك الجندية قائلاً لامهِ « يا امي دعيني اذهب فاخفف عنك اثقال المعيشة » وسار بين الجند سيرة ملكتهُ قلوب اخوانهِ وقربتهُ من رؤسائهِ فرقوه في الجندية حتى اصبح اليوم رئيس كتيبة واقام على حبي بكل امانة ولو مكث في باريس لما صرت الى الحال التي انا عليها الآن . لكن وفاة والدتي قضى عليَّ بالقيام وحدي في هذه المدينة الحافلة وفي تلك الاثناء عرف لويس بغرامي فخشيت صدوده لكنهُ ما لبث ان صفح عن ذنبي ورحم قلبي قائلاً ان كتم الحب المفقود بيني و بينك يا كوي كان الشفيع الوحيد لي عنده . فتامل واعتبر كيف انهُ صان شرفك وذاد عنهُ بعرضهِ . وكان يتردد اليَّ خفية لانني انا التي جعلتهُ ان يخجل من مقابلة اختهِ علناً وحرمت على لساني ان يجاهر باسمهِ بين الناس لئلاً يقذفوا بهِ من اجل سقطتي وحذَر ان يعلم بهِ احد كنت اسعى في استقبالهِ سرًّا لكن وا اسفاه انقلب عليَّ ذلك السر ضرًّا اذ بعث في نفسك الريب واشرب قلبك التهمة فاتصل به ما كان من امرك فغضب جدًّا الى ان عزم مبارزتك فمنعتهُ من اتمام عزمهِ واتيتهُ بادلة راهنة تذهب بحقهِ من الذود عن حوضي فيالضيعة ايامي ويا لخيبة مرامي لكن مالي وللاسف على ما فات فحسبي بوجودك الآن عندي اعظم اللذات فصدق يا كوي روايتي وساكتب الى لويس ليوافيني بشهادتهِ مؤيداً حقيقة بياني وصدق لساني وما اخالك تنكر شهادة جنديٍّ اكتسب ثقة العموم

فصاح الجندي قائلاً — لقد صدقت شقيقتي في روايتها

لكن المريضة المحتضرة لم تسمع الكلام فاستطردت الحديث الى ان قالت بصوت المجهود

— كفى بوجودك عندي علاجًا ناجعًا وها انني اشعر الآن من نفسي بقوة ناشئة فتقدم وعانقني

فمدت ذراعيها تريد ان تعانقهُ وقالت - لكن اسالك يا كوي ان تبقي على ولدي استحلفك الله ان لا تنزعه مني يا لتعاسة الام اذا فصلت عن ولدها لا تنكر عليَّ بقاءه عندي لتنيلهُ شرفًا عاريًا فتعتدَّ ذلك نعمةً تقابل شقائي لا لا دع ولدي لديَّ فان الارض وما وسعت لا تعوضني منها لذَّة سهري عند سريره بالله ابقِ لديك ابن حليلتك فلا اسمح لهـا ان تعانق ولدي كلاَّ كلاَّ انني لا ارضى بسواه بدلاً خذوا عني هذا الولد الغريب وعليَّ بابني لا تتهددني ولا تتوعدني بالقطيعة اعطني ولدي وافعل ما بدا لك كوي جرِّد نفسك من السوء واعمل بما تقضي به حقوق الانسانية مالي اراك تصمُّ اذنك عن سماع هتافي وتغض طرفك عن مرأى دموعي اياك ان تاتي الخلاف واخشَ الرحمن على كبر سنك فانهُ يعاقبنا عقابًا شديدًا آه اخاف يا كوي مقاضاة اولادنا اذ يطالبنا كلٌّ منها بما له علينا فنكون لعنة في فيها وقد يتراءى لي الآن ان ولدي يتحامل عليَّ فيتهددني بل يتقدم ليلطمني . بالله ارفعوه عني أني تجرأ على لطمي ألا يدري انني امهُ . فصفحًا يا كوي وعفوًا لقد كفاني ما عانيت وحسبي عقابًا بما قاسيت عفوًا ايها الخليل اذ لم يبقَ مني بقية اقوى بها على الاحتمال والطاعة

وفي ذلك الحين فتح باب الغرفة من جانب سلم الدار وطلع منهُ نوال على عادته مكمد اللون مكفهرًا لكنهُ كان ساكن البال مطمئنًا . ولما ابصرتهُ المحتضرة اخذتها رعدة شديدة فجحظت عيناها واهتز جسمها فرفعت راسها قليلا وقبضت كفها موجهة الى نوال وقالت

— ويحك يا جاني

ثم اشتدت عليها الرعدة فالتفتها على وسادتهـا فدنوا منها ليتاملوها فاذا هي قد ماتت

فنكس الحاضرون رؤوسهم وبهتوا شان من يحدق بمحتضر اما تلك الكلمة التي بدرت من فم فالري لم تدهش السامعين لانهم عرفوا دلالتها على البرت الا الزاهدة فانها لم تكن لتفته شيئًا من الحديث الذي دار بينهم

اما نوال فلاحت على وجهه اثار الحزن والغم فسقط باكيًا عند سريرها واخذ يدها فقبلها وغسلها بدموعه نادبًا حظها متاسفًا على فقدها وكان الى جانبه الزاهدة والكاهن يصليان الى الله ليتداركها بعفوه ويقابلها بحلمه ورحمته

اما الحزن على فالري فكاد يذهب بروح الكونت دي كومارين لولا ان كلارا والطبيب قد تقدما اليه فرفعاه الى جانب النافذة ليتنسم الهواء لان القلق والاضطراب كانا قد اشتدا عليه فكادا يعبثان بانفاسه وما لبث قليلاً حتى زالت كربته وخفت شدته فمال بانصاره الى فالري تلك التي جادت بروحها حبًا به ووجدًا عليه

وكان يود لو ان الله فسح باجلها زهاء الساعة فعاودها الرشد لينطرح على اقدامها مستغفرًا عما اساء به اليهــــا ساكبًا دموع الندامة على اعتسافه وانقطاعه عنها دون سبب الا الوهم فعنف نفسه واخذها ليس فقط بالجناية على فالري بل على حليلته التي اماتها ايضًا حبًا به . فلا ريب ان الله قد عاقبهُ بذالك عن سوء فعلاته فعظم الخطب على الكونت حتى لم يسعهُ الصبر عليه فعلق يبكي نادمًا على جهله وغروره . ولما رآه شقيق مدام جردي يتحب رثا لهُ وتقدم منهُ قائلاً

— تاكد ايها الكونت ان شقيقتي قد محت خطاءك واغفلت ذنبك قبل وفاتها فخلِّ عنك البكاء واذا كنت لا ترضى بقولي فما زلت تعتقد بكدرهــا فانا اغفر ذنبك واصفح عن خطائك

— اني أشكرك جزيل الشكر ولكن رباه ما كان اشد وطأة الهمّ على قلبها قبل موتها

فاعترضتهُ كلارا قائلة — حسبها مزايلة الدنيا وفي نفسها من الحزن

لصاب ابنها ما تنوء بحملهِ اعظم الابطال

فقال الكونت — يقتضي ان نسعى يا نوال في انقاذ ابنها من السجن فتقوم لديهِ بما ترتب علينا ذكرى لجميل امهِ الفقيدة

— انني وعدتك يا ابي بالسعي في انقاذه جهدي

وكانت تلك المقابلة اول عهدها بنوال فنظرت اليهِ نظرة تؤذن بالكراهية والجفاء فتبينها نوال دون ان يعترض عليها فقالت كلارا

— ان البرت دفع عن نفسهِ التهمة التي رموه بها اعتسافًا لكننا نطلب الآن تسريحهُ مستوداً الى الحقيقة التي اطلع عليها المستنطق

فسألها نوال — ما هي تلك الحقيقة

— ان البرت كان عندي ليلة حدوث الجناية

فحدجها نوال متعجبًا من كلامها المرسل دون حجة تؤيد صحته ليصح بناء الحكم عليهِ . فاحست كلارا بريبهِ فرفعت راسها تيهًا وقالت — لا تعجبنَّ من كلامي وانا كلارا كريمة دارلانج

فعندئذٍ اخذ الكونت دي كومارين يقص القصة التي روتها كلارا بتفصيلها حتى اذا انتهى قال لهُ نوال

— انك تعلم الآن يا سيدي بحالي فلا يسعني اجراء المرغوب وغداً نتباحث في هذا الشان

فاعترضهُ الكونت قائلاً — لئن كنت تكرم هذه الفقيدة فعليك في نجاة ولدها من ربقة الذل والعار

فحنا نوال راسهُ احترامًا وقال — ان طاعتك يا مولاي غنم فاني انطلق الليلة الى القصر وعسى ان يكون لي الفوز بالمرام فابلغك نتيجة ما ينتهي اليهِ جدي برفقة البرت

— ثم انصرف عقيب ان ودع الفقيدة الوداع الاخير وتلاه الكونت وكلارا فغادرا الزاهدة عند سرير فالري اما الجندي فكان قد شخص الى دار

الشيخ حيث ترتب عليهِ ان يقوم بما تفرضهُ عليهِ الشريعة من الرسوم المألوفة عند انصرام الاجل

الفصل السابع عشر

ترجمة حياة الأَيّمة لروج

ان رواية كلارا كانت قد ذهبت بروع المستنطق فاذهلتهُ وبينما يصعد الدرج التي تفضي بهِ الى رواق غرفتهِ ابصر تاباري في ناحية فسر بلقياه ودعاه اليهِ

لكن الثقاف المتطوع كان في اضطراب شديد يمنعهُ من الوقوف في سبيل ما يقصده فدنا من المستنطق وقال لهُ بعد التحية

— لا تلمني يا سيدي اذا سالتك العذر لتعذري عن اطالة الوقوف لديك فان لي اشغالاً تدعوني الى قضائها عجلاً في منزلي

— لكن آمل ان القى منك . . .

— لا فائدة يا مولاي من الاسهاب وقد تحققت براءة المتهم وقد بدا لي بعض ادلة اطلعك عليها قريبًا . . . لكن لديك الرجل المشنف الآذان الذي تكلم عنهُ جفرول فسيطلعك عما كان من امره ولا بد ان ياتيك بفائدة يحسن الوقوف عليها

وانصرف تاباري يعدو في طريقهِ واستمر دابيرون سائرًا الى ان وقف

عند غرفتهِ وكان ثم البرث جالسًا هناك على متكأ بخفره الجند فقال لهُ دابيرون وهو يفتح الباب

— سادعوك اليَّ عاجلاً

فدخل دابيرون الغرفة حيث كان كونستان في انتظاره يناظر رجلاً يوهم الناظر اليهِ لحسن بزته انهُ من المثرين فما وقف عنده المستنطق بل وجه الخطاب الى الكاتب فسالهُ قائلاً

— هل انتهت اليك رسائلي

— نعم يا سيدي وقد اجريت ما تؤذن بهِ فان المتهم عند الباب وها ان صاحبنا مارتين قد عاد الان من محلة الانفاليد

— هل تحققت الامر طبق المرام

ثم حوّل نظره الى الشرطي وسالهُ قائلاً

— ما رأيت

— ان الطارق كان قد تسلق الجدار

— هل كان ذلك منذ امد مديد

— كلاَّ ان المدة لا تتجاوز خمسة ايام

— أأنت على يقين من الامر

— لا ريب فيهِ

— هل وضحت لديك الدلائل والآثار

— وضوح النور في هذه الساعة وان السارق كما تبين لي من قصد الطارق في الحيلة التي اتخذها للدخول الى الحديقة قد تسلق الجدار فتدلى قبل المطر وانصرف بعد هطلهِ كما قدم المستنطق في بيانهِ وقد استجليت ايضًا الحقيقة في ما بدا لي من الآثار الراسخة على الجدار في الثقوب التي احدثها السارق ليسهل عليهِ تسلق الجدار فمنها ما كان جافًا ومنها ما لاح فيهِ اثر الوحول . لكنهُ عند خروجه يلوح لي انهُ صعد سلمًا الى اعلى الجدار فرماه في

سفحهِ لجهة الحديقة وتدلى لجانب الطريق وقد قلت بوجود السلم لما تبين لي ايضًا من آثاره في الارض وعند ذروة الجدار

— هلاً تبين لك شيء آخر

— نعم انني عثرت على شيء من الجلد يشبه ان يكون من الكف الذي كان في يد السارق وقد تمزّق عند انحداره من نشبثهِ بالزجاج المرصوف على طول الجدار

فاخذ المستنطق قطعة الجلد فتاملهُ فاذا هو كما قال الباحث قطعة من جلد الكف ثم قال للرقيب

— املي ان تكون قد اجريت ما عهدت بهِ اليك خفية فلم تدع احدًا يدري بهِ

— مولاي دونك الحيلة التي دبرتها توصلاً الى المرام انني دخلت دار المركيزة فطلبت اليها ان تسمح لي في البحث عن طائر لي فرّ من منزلي الى الحديقة وقد استقر على اغصان شجرة عند الجدار فلم تنكر عليّ الطلب فجلتُ في الحديقة برهة ثم انصرفت الى ما قصدت لهُ

— احسنت يا مارتين وسابلغ رئيسك عنك ما يكون لك في نتيجتهِ كل الرضى

ولما فرغ الشرطي من سرد تفاصيل بحثهِ ودع المستنطق مسرورًا من ثنائهِ غانمًا رضاه وانصرف لشانهِ تاركًا المجال خاليًا لدخول البرت . وعندما مثل بحضرة المستنطق سالهُ قائلاً

— اما نهاك المكر الى واجب الاقرار بما كان من امرك ليلة حدوث الجناية واين كان مقامك فيها

— لقد اخبرتك يا مولاي بما عندي من العلم بذلك

— كلاً وقد اراك تدعوني باصرارك على الانكار الى التكذيب باقرارك

فاحمرّ وجه البرت عندما تلقى هذه الشتيمة من فم المستنطق وانقدت

عيناه كيدًا فلبث صامتًا لا يجد ما يدفعها عنهُ فاستانف المستنطق خطابه قائلاً

— لقد علمت يا البرت بما كان منك في تلك الليلة وكما قلت لك ان ما من خافية تخفى على الحكومة

ثم استطرد البيان الى ان قال بصوت خافت — انني لقيت كلارا كريمة ارلانج

فعندئذٍ انبسطت اسرة جبين المتهم وحدثتهُ نفسهُ عند ذكر هذا الاسم بقرب النجاة من خطر كان قد قنط من التنصل منهُ لكنهُ لم يحرِ جوابًا

فقال لهُ دابيرون — ان كلارا اخبرتني بمكانك في تلك الليلة وما قولي كذا إحبولة اريد اقتناصك بها لكننا قد اخذت عنها تفصيل ما كان منك تمامًا

فعند هذا الكلام فتح البرت فاهُ وسرد القصة تؤيد بوجوهها ما فاهت بهِ كلارا حتى لم يعد بعد ذلك من مظنة او ريب

ان التوفيق بين الروايتين وصحة اسنادهما ذهبا بالريب لكن لا بد لذلك القتيل من قاتل لان الحكومة اذا عثرت على جناية ما كان لا بد من الوصول الى الجاني

فقال المستنطق مخاطبًا البرت بكل عنف — انك خدعتني في اقرارك الاول بل كنت حملتني وحملت الحكومة معي على ان نقتحم الخطر في هدر دمك فلمَ لم تنطق بالصدق جوابًا عن اسئلتي

— مولاي ان كلارا كانت قد عاهدتني على كتم السر عندما اباحت لي. مقابلتها خلسة فلم يسعني اذن ان ابوح بسرها معرّضًا شرفها لدى الحاكم

— هل كنت ترضى بسفك دمك حرصًا على ذلك السرّ

— مولاي لم اكتمك ذلك السر الاّ لعلمي بان كلارا ستوافيني عاجلاً عندما يتصل بها خبر سجني فتدفع عني بما تعلمهُ من حقيقة امري فتكون قد كفتني ملامتها في اباحتها من نفسها ما حرّمتهُ عليّ

— احسنت يا البرت اما الآن فعد الى السجن حيث نقيم حرًّا الى حين

يبدو لنا وجه الحكم النهائي في دعواك وساوعز الى الخفراء الأ يعارضوك في حرّيتك

فودع البرت دايبرون وانصرف الى محبسهِ . ولما خلت الغرفة دعا المستنطق الشاهد الذي جاء بهِ جيرول فدخل وكان احمر اللون قصير القامة اشمط شعر الراس قوي البنية تلوح على محياه اثار الفضيلة والنزاهة فلما مثل بحضرة المستنطق سالهُ قائلاً

— ما الاسم

— ماري بيار لروج

— أأنت نسيب كلودين لروج

— انا زوجها

— كيف تقول ذلك وقد عرفها الكل انها أيمة

— ربما انها ارجفت بذلك لتغمر سيرتها التي هجرتها من اجلها

— اما عرفت انها قتلت

— ان الثقاف الذي كان يجد في طلبي اخبرني بذلك وقد نالت جزاءها

— اترضى لها بهذه الميتة وانت زوجها

— مولاي لا تلمني اذا كنت انكر عليها الرحمة لانني لقيت منها في قيامي معها عذابًا لم يبقِ في فوادي على الحنان والشفقة وقد كفاني ما قاسيت عقابًا لعصياني امر والدي وانكار نصيحته وقد كان اشار اليَّ قديمًا ان اقلع عن الاقتران بها لما كان يعلم من سوء سيرتها وحيدها عن نهج الآداب فسددت دون ندائهِ اذني وتعاقدت معها ولكن على العذاب واحتمال الشتائم واستقبال الاهانة على اختلاف ضروبها وكفى بوقوفي الآن في هذه الدعوى حطة لقدري فلا يحتقرن سيدي شاني لرثّ سرباني وقد شهد بكمالي وكمال آلي كل من عرفني وعرفهم في البلاد . فتبًا لها من شقية لقد دنست شهرتي بسيرتها التي كثيرًا ما انذرتها بسوء العاقبة اذا استمرّت عليها

— هل انت انذرتها بسوء المصير

— نعم يا سيدي و ياليتها اصغت الى الانذار

— وما السبب الذي كان يدعوك الى انذارها فبيّنهُ الآن ولا توجسن في نفسك خيفةً من سوالي فمتى كان عهد هذا الانذار

— قديمًا من نحو ثلاثين سنة لانها كانت قد طمحت بها نفسها المغترّة الى التداخل في شؤُون الكبار زاعمة ان من كتم السرّ على السوء جلب لنفسهِ السرور والمال . اما انا فكنت انذرها بالضرّ والبوار قائلاً لها — ما لكِ وللتداخل في كتم مساوىء الناس فان ما يعود عليكِ للحال لا يغنيكِ عن الخسار في الاستقبال

— عجبًا كيف انها لم تكن تصغى لاوامرك وترضخ لها وانت زوجها ولك حق السيادة عليها

— اسفاه يا مولاي انني كنت اذعن لاشارتها مأمورًا

— فما هي الامور التي كانت زوجتك تحاول التداخل فيها اياك الكتمان لان الحكومة تطالبك بابراد الحقيقة كلها فضلاً عما فطرت عليهِ من التزام الصدق وانكار الباطل

فصرّح الرجل للحال قائلاً — انني منذ زهاء خمس وثلاثين سنة كنت قد كلفت بهذه المرأَة فواضعت ابي الراسب في التزويج منها فابى وارسلني الى الغربة امل ان يسليني حب كلودين فاقمت شريدًا مدة ستة اشهر لم يرق لي فيها طعامًا ولم يذق جفني منامًا فابتُ الى ابي وانا ضئيل ناحل البدن لان حب كلودين كان لم يزل يفعل في قلبي فعل النار في الشمع . فلما راى ابي ان لا حيلة في التفريق بيننا خاف ان ينالني من سقمي علة متلفة اباح لي اخيرًا الاقتران بها

واذ رآه المستنطق قد حاد عن الموضع الذي يبغي الوقف عليهِ قال له

— عجل بالنتيجة المرغوبة

— لا بد يا مولاي من التوطئة وما اقوله تمهيدٌ الى ما تريد . ففي الايام الاول اقمت معها على سعة عيش ورخاء راضياً عنها كل الرضى على رغم ما كانت تكلفنيهِ من النفقات في سبيل حلاها وزينتها . . .

— لله خلِ هذه التفاصيل وصرّح بالمقصود

— الى ان طاف ذات يوم في دارنا خادم الكوست دي كومارين النازل في قصر على مسافة ربع ساعة من القرية وكان اسمهُ جرمان وهو الذي كان لهُ يدٌ في ذهب تلك الفتاة التي كانت تنزل في جيرتنا وقد توارى في الحجاب دون ان يعلم احد بوضعها . فلما رايت الرجل في الدار سالت زوجتي عما كان من غرضهِ في الوقوف عندنا فاجابت انهُ يريد ان يقدم لي طفلاً ارضعهُ فانكرت ذلك وكشفت لها رغبتي في انكار ارضاعه لان الرزق الذي قدره الله لنا يكفينا تلك الخدمة . اما هي فاحتالت اليَّ بالف سبب قائلة انها لم تخلق لتلازم البطالة بل تود العمل لتوفير المال ذخيرة للاستقبال وخصوصاً لتعوضني من كد يمينها ما اسرفتهُ وما زالت بي حتى اقنعتني

— اما اخبرتك بالعمل الذي يكلفونها الاشتغال فيهِ

فدهش لروج من هذا السوال وتبت لديهِ سرًّا ان ما سمعهُ عن الحكومة كان حقيقة لا تمويهاً وهو انها لا تزال تدأب السعي والبحث حتى تقف على جلية الامر الذي ترغب فيهِ . ثم استطرد بيانهُ الى ان قال

— مهلاً يا سيدي ستعلم ما كان شيئاً فشيئاً . و بعد تلك المقابلة بثمانية ايام عاد الرسول اليها مساء وفي يده كتاب يطلبون اليها فيهِ ان تقصد باريس لتحمل الطفل الى دارها . فاجابت الى الطلب واعدة بالسفر صباح الغد على العربة . ولما كان الصباح نهضت كلودين فتزينت وتاهبت الى السفر فرغبت برفقتها فسرّت بذلك ولم يلح لي ثمَّ ما يوءذن بانكارها واذا انتهينا الى باريس شخصت كلودين الى دار احدى السيدات واسمها مدام جردي لتحمل الصبي واقمت بانتظارها في الحانة الى ان مرَّ بي ساعة وانا على تلك الحال ففصلت

من موضعي وخرجت اطوف بدار تلك السيدة فسالت الخدم عن شانها ومكانتها فأُخبرت انها خليلة الكونت دي كومار بن فتكدرت جدًا وساءني ان ارى زوجتي مرضع المسبع لكن ما الحيلة وقد كان لها ملء الرغبة في القيام بتلك الخدمة . . .

ان هذه التفاصيل المملة كانت قد افنت صبر المستنطق فتأوّه وقلق جدًا فقال للملاّح — لله خلّ المماطلة والاسهاب واكشف لنا الحجاب عن جوهر المسئلة

— ان كلودبن كانت عنية عنيدة فلم تعدل عن عزمها وابت الاّ الخدمة عند الكونت وتوصلت الى ان اقنعتني ايضًا مستندة في اقناعي الى الحب المعقود بيننا ثم افهمتني ان المراة التي كانت تريد ان تعهد اليها بتربية طفلها قد انكرت عودنا على الجدّ والحت علينا شحًا براحة ابنها ان نركب عربتها الخاصة ولو طال علينا المدى فسرّني ذلك الراي اذ يتسنى لي ان اجيل النظر في غرائب الطبيعة التي تنبسط لديّ عن جانبي الطريق الذي نسلكه فركبنا العربة بالطفلين اي ولدي وولد الكونت فاستطار لب زوجتي فرحًا واخذت تعانقني كل لحظة وتطلي عليّ الحال برنة الدينار الذي وضع على كفها اما انا فتكدرت جدًا من تلك المظاهر وغضضت الطرف خجلاً عند لقيا مال لا حظ لجهدي في كسبهِ فلما لاح استيائي لكلودبن حاولت ازالتهُ بسرد الحقيقة زعمًا منها بانني اضرب عن فعلتها اذا جلا لي السبيل الذي استوردت المال فيهِ فقالت وهي تهزّ جيبها لتسمعني رنة الدينار

« كن مطمئنًا فاننا سنجمع مذ الآن من المال ما يكفينا الفاقة في الاستقبال
» وهذا سبيلهُ : ان الكونت رزق في هذه الايام غلامًا آخر من زوجتهِ الشرعية
» فرغب في ان يتخلى عن مالهِ وجلائهِ لمسبعهِ النازل الآن على ايدينا وقد
» اعتمد على همتي وامانتي في تنفيذ مآربه ورغائبه وسنلقى على طريقنا الخادم
» جرمان والمرضع التي تعني برضاع طفلهِ الشرعي فننزل كلنا في نزل واحد

» ونأوي جميعاً فيهِ الى غرفة واحدة فاعمد ليلاً الى تبديلها وقد جعل لي
» الكونت جزاء هذه الكلفة نحوًا من خمسمائة دينار نقدًا ووعدني ايضًا براتب
» خمسين دينارًا استوفيها مدى حياتي »

فاعترضهُ المستنطق قائلاً — أَرضيت عنها بما فعلت وقد ارالك تعتزُّ بمكانك من الادب والصدق اما كان لك ان تصدها عن الاشتراك في الغواية بل المغايرة على الجناية بكلمة واحدة

ارجوك يا مولاي ان لا تقطع بي عن اتمام القصة فتحكم عليَّ بما سمعت منها وهو بعض الذي كان

— كمل اذن روايتك

— فما كدت يا سيدي اعي حديثها حتى تغلب عليَّ الغضب وضاق صدري بهِ فخفت ان اعاجلها على الطريق لغيظي بما لا تحمد عقباه فصبرت على تلك الحال اما هي فلما ادركت سرَّ غضبي اخذت في حديثها طريقًا آخر وعلقت تمازحني قصد ان توجه افكاري الى عكس الموضوع قائلة

« يا لك من غبيٍّ مهلاً فلا تحتدم غيظًا قبل ان تدرك الحقيقة وهي ان
» الكونت يطلب ان يرى المسبع في داره فاولاني من المال ما اولاني طمعًا في
» ابدالهِ اما خليلته فقد ابت ذلك ولم تسلم ابنها الاّ مخافة اغضاب خليلها وقد
» اخذت الأُهبة لاسترجاعه بطريقة سرّية كاشفتني بها عندما خلت بي في
» الغرفة وحالفتني عليها فقالت انها لا تقوى على هجر ولدها وتربية الغريب
» وطلبت اليَّ ان اعدل عن تبديلها سرًّا فتنقد ني نحو خمسمائة دينار وتعدني
» بما وعدني بهِ الاب مدى حياتي على انها ترقب اعمالي فتعلم بحقيقة ما يكون
» مني في هذا الشان اذ جعلت في جسم ابنها علامة لا تمحى وقد سعيت جهدي
» عبثًا في استجلائها . فاعلم الآن انني سابقي على هذا الطفل فلا ابدلهُ فاموّه على
» الكونت بالخلاف و بذلك يتسنى لي ان احرز من الجهتين مالاً يكفينا
» الفاقة ويكفل لنا الراحة والسعادة . فبدد الوهم عن سماء فكرك واعتقد

» بحذاقة ودهاء زوجتك »

ذلك ما نقلتهُ عن كلودين رويتهُ على مسمعك بالحرف الواحد

ان هذه المسئلة اقلقت دابيرون وازعجتهُ جدًا فتاه رشده في تشعب المسالك اليها واختلاف وجوهها فبيناه اهتدى الى الحقيقة من وجهٍ فيها انتقض عليهِ الآخر برواية مسنودة الى حجج موكدة فكان يود لو يستكشف لروج مليًا فيسالهُ بيان كل كلمة فاه بها ولكن تعذر عليهِ ذلك لجهل الملاَّح وغباوته فكان يضطر دابيرون ان يصغى اليهِ دون اعتراض خشية ان يقلق افكاره فيضيع رشده وهداه في سرد القصة . ثم استطرد لروج حديثهُ الى ان قال

— ما كنت لاصدق كل ما كانت تفعلهُ كلودين ولم يكن يرتاح خاطري الى ارائها لكن الحب كان يمسك بي عن مناوأتها فكنت احمل على الرضوخ لها قهرًا ومما كان يقضي عليَّ بالاغضاء عن اعمالها انها لم تبغ بها اصلاً مضرة القريب . ولما كان المساء افضت بنا الرحلة الى نزل على الطريق فترجلنا ودخلنا كلنا للمبيت فيهِ فاستقبلنا ذلك الطاغي جرمان ومرضع على يدها طفل آخر عليهِ حلة تحاكي حلة الطفل الذي كان على ذراع كلودين فاوجست عندئذٍ خيفة لا سيا عندما رايت ان العربة التي كانت بانتظارهم تحاكي عربتنا بوضعها فداخلني الريب وهجست قائلاً . ربما كانت كلودين قد اختلقت الرواية الثانية قصد تسكين غضبي فعزمت للحال على مراقبة الطفل الذي كان في كفالتنا فجعلتهُ على ركبتي الليل كلهُ وعقدت علامة على كشحيهِ منديلاً . وعقيب ان فرغنا من الطعام جرى بيننا ذكر المنام وموضعهُ فلم يكن في ذلك النزل الاَّ غرفتان للمبيت كانهم قد بنوها خصوصًا لتنفيذ مآربهم . فقال صاحب النزل يبيت النساء في غرفة والرجال في غرفة وكنت في تلك الاثناء قد تبينت لحنًا خفيًا في حديث كلودين مع جرمان فاشتد غضبي وكيدي غير انهُ لم يسعني الاَّ الصبر على مرّ الايام فسعيت في ابطال نظام صاحب النزل متظاهرًا بالغيرة

على زوجتي وما زلت مصرًّا على ملا منها حتى اضطر اولئك الاشقياء على اجابة طلبي فبت اذن مع كلودين والمرضع في غرفة معًا واقمت الليل كلهُ منتبهًا لا اكرى حذر ان اعرّض ذاك الطفل لخطر الحرمان في تبديلهِ ولما انتصف الليل سمعت حركة من جانب كلودين فتربصت اذ ذاك بها شرًّا الى ان تاكدت سوء قصدها بما شهدت فدنوت منها وامسكتها بيدها وعلقت اوجعها ضربًا حتى افاقت زميلتها فصاحت مذعورة الى ان اسمعت جرمان الماكر فاتى الينا وبينا نحن في تجاذب وانقباض بدا لي اخيرًا هذا الري وهو انني انتضيت مديتي و بضعت بها زند الطفل الذي كان الى جانب كلودين علامة ترسخ عليهِ مدى حياتهِ . ثم طلبت الى جرمان والمدية في يدي ان يوقع مع المرضعين بيان الحال الذي خطر لي تسطيره فلبى للحال وعاهدني على كتم الامر لئلاً يعلم بهِ سيده فيقضي عليهِ بالطرد بل بالتلف

فقال لهُ دايرون — هل حفظت عهده فابقيت تلك الشهادة لديك

— نعم يا سيدي وهي معي

— هاتها

فاخرج للحال لروج الصك وقد ابلاه الزمان فقال المستنطق — خذها يا مولاي مختومة منذ الليلة التي سطرت فيها

فاطلع عليها دايرون وقرأ القصة ملخصة طبق الرواية التي سمعها باذنهِ فقال في نفسهِ

— ترى فماذا جرى بالشهود الذين وقعوها

فظن لروج انهُ يسالهُ بيان حالهم فقال — ان جرمان قضى نحبهُ غرقًا وكلودين قتلت كما علمت اما المرضع الاخرى فلم تزل حية . وقد اتصل بي ايضًا انها قصت القصة على زوجها واسمهُ (بروسات) يترل في قرية كومارين

فعلق دايرون اسم المراة ورجلها ثم سالهُ قائلاً :

— فما كان بعد ذلك

— في الغد تمكنت كلودين من تسكين روعي وتحويل غضبي اما الطفل فشفي من جرحهِ ولا بد ان يكون راسخًا على ساعده

— هل اتصل بمدام جردي شيء مما جرى بينكم

— احب اليَّ الجهل في هذه القضية

— لماذا

— لما كان بعد ذلك

— قل لي وما جرى

— مولاي ان ما جرى كان امرًا خاصًا بي

— قل ولا تكتمني شيئًا لان من كان متجملاً بصفاتك حريصًا على الادب ضنينًا بالصدق لا يهاب امرًا في مجال التصريح بهِ وخصوصًا اذا كان قد تعرض مثلك تغريرًا للشر فاقدم عليهِ قسرًا فبح بما عندك تكفيرًا عن ذنبك وتيقن انهُ اذا لم يكن في ما تصرّح بهِ فائدة لتأييد الدعوى حسب سرًّا لا يسوغ اذاعته واذا كنت تخجل في سرده فاجعل ذلك عقابًا لما كان منك في الماضي

— كفى يا سيدي بما نلتهُ عقابًا لتلك الزلة لان المال المحرز بالخداع يجني على صاحبهِ فحسبي اذن جناية عليَّ سيرة كلودين معي ونترعها في الغواية فان منزلي اصبح بوجودها مثابة اللهو والطرب ينتابها شبان البلد على اختلاف مكانهم وفي احدى الليالي بعد اذ كنت انذرت كلودين بسفري الى (روان) تضليلاً لها عدت الى المنزل بداهة فوجدت كلودين تجالس شابًا مفسودًا فدنوت من الشاب فاخذتهُ بتلابيبهِ والقيتهُ من النافذة الى الارض ثم عمدت الى زوجتي فاوجعتها ضربًا ولكن لا مجال للرجل ان بالضرب يتسنى له اصلاح امرأته لان كلودين اخذت منذ ذلك الحين تحتال في استقبال خلانها سرًّا وتموّه عليَّ بظواهرها . وفي تلك الاثناء استرجعت مدام جردي ابنها فكانها بهذه الذريعة قد رفعت عن عاتق كلودين كل ما كان يقعد بها عن التمادي

في الشرّ فخلا لها الزمان وطابت ساعات انسهِ لديها وكان لتلك الشقية والدة تسير سيرتها وترى رأيها في الغي والضلال فكانت تساعدها على طلب اللهو والبغي وبالجملة ان منزلي غدا بوجودهما حانة بل قل (مجمع الخلاّ ن) يتألب اليهِ الشبان اثناء تغيبي فيشربون ويطربون وينهمون حتى الصباح الى ان دارت الالسنة في القرية بسوء سيرتي فتوهم البعض رضاي عن تلك الفعلات واشتراكي فيها متسائلين عن مورد المال الذي كانت تنفق منهُ ابدًا زوجتي في الخمر واللهو والزهو على انها كانت كلما نفد وطابها بعثت الى الكونت وخليلته بالطلب اليهما فيأتيها منهما ما يكفي لملاذها وكفاء رغائبها

فلما سمع دايبرون هذه القصة اخذتهُ الشفقة على لروج فامر لهُ بالجلوس قائلاً

— أسرّي عنك ولا تكتئب

— دعني يا مولاي افرغ جعبتي واشفي كربتي باكمال حديث اود كتمانهُ مستانفًا . فرثى لي احد الاصدقاء وهو كاهن الرعية فاعلمني بما كان من امر زوجتي اثناء تغيبي فللحال قصدت احد المحامين وطلبت اليهِ ان يرشدني طريقًا اتنصل بهِ من ربق تلك الباغية . فلم يرَ في ذلك حيلة يدفع بها عني فحرت في امري فعولت اخيرًا على ان اتخلى لها عن كل ما اتصل بي منها بسبيل الخديعة وكتبت اليها رسالة ابلغها فيها هجرها والانفصال عنهـا ما دمت حيًا لانني آبى ان ادفع كرامتي للذل والهوان غير انني حرّمت عليها بيع الارض التي كنت اشتريتها قصد الانتفاع بريعها في مستقبل الايام وزايلت الدار بابني جاك

— وما جرى لامراتك بعد هجرانك ؟

— غاية ما اعلمهُ عنها في تلك الاثناء هو انها هجرت البلد بعد عام من رحيلي

— هلاّ لقيتها مذ هجرتها

— كلاّ

— أنىّ تنكر ذلك وقد كنت في دارها قبل حدوث الجناية بثلاثة ايام

— صدقت يا مولاي ولكن رجوعي الى الدار كان اضطرارًا وقد احوجني الاهتداء اليها الى ان اسال عنها مسجلي وهو الذي توصل من العالم بعنوان مدام جردي الى مقرّ كلودين لانهُ كتب اليهـا يسالها الدلالة فاجابتهُ الى ذلك . واذ كنت في ذلك الحين في روان طلب اليَّ صديقي جرفي ان أسافر الى باريس على سفينتهِ فلبيت امره . ودخلت دار كلودين فانقبض صدري وتصرمت انفاسي كدرًا لانني رأيتها على الحال التي كنت هجرتها عليها فلم تبدل من عوائدها شيئًا فرايت الخمر الى جانبها تترشف منهُ على هواها

— كل ذلك يا اخي لم يفدني الجواب على سوالي وهو ما كان غرضك عند امرأتك

— جئتها يا سيدي بطلب رضاها عن زواج ولدي جاك في صك سطره المسجل وقد وقعتهُ فدونكهُ

فاخذ دابيرون الصك وبعد ان تصفحهُ جيدًا سالهُ قائلاً

— هلاَّ بحثت عن الفانك بزوجتك

فاضرب لروج عن الجواب فالحّ عليهِ المستنطق بهِ قائلاً — هلاَّ رميت احدًا بظنك

— تلح عليَّ يا مولاي في بيان ما وضح لديك ولا خفاك ان الفانك كان ربما احد الذين سعت كلودين في خدمة مآربهم فاستنزفت اموالهم جزاء فعلتها

ولما استوفي دابيرون العلم بما يريد صرف لروج عنهُ مشيرا اليهِ ان ينتظر جفرول خارجًا ليصير معهُ الى النزل حيث يقيم على نفقة الحكومة الى حين ثم قال لهُ

— اننا نثيبك لقاء جهدك وعنائك

فما كاد لروج ينفصل عن المقام حتى نهض كونستان حائرًا من رئيسهِ في

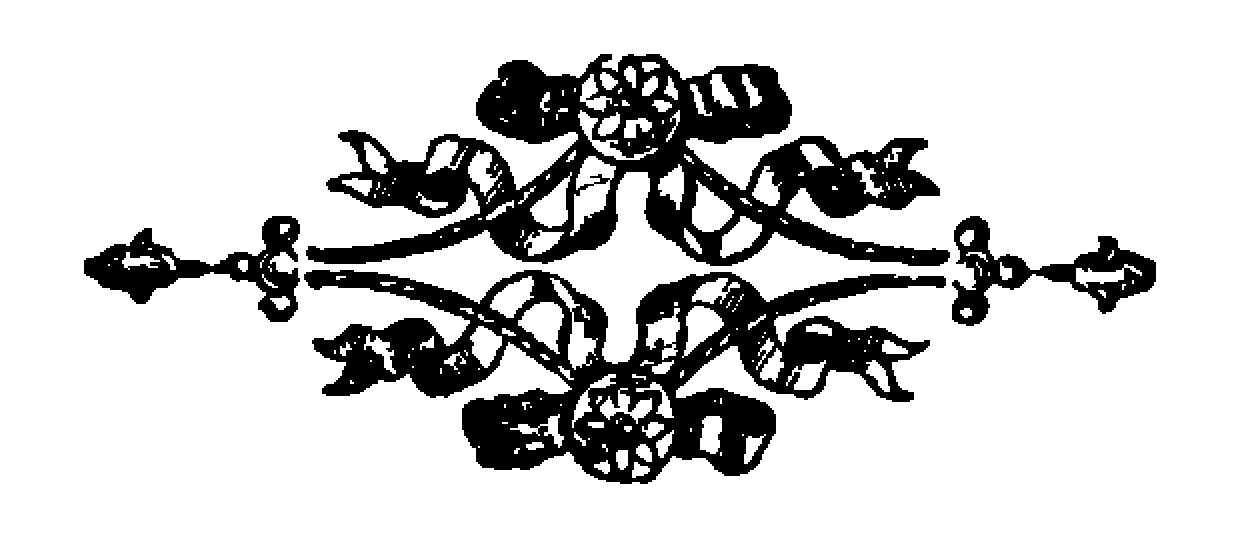
تعجيل ارسال الشهود قبل ان يستكشفهُ الامر تماماً فقال

— اري ياسيدي عجباً في كلام الرجل وقد كان من الواجب اطالة الوقوف معهُ لاستجلاء ما يكنهُ صدره

اما دابيرون فصدف كشحًا عن الجواب وغاص في لجة الفكر يتجاذبهُ من فواده عاملان قويان وهما الواجب والحب فلم يرَ للتفريق بينهما سبيلاً فلزم حدود الاوَّل وراعى الثاني جهد الطاقة لان مشافهة كلارا كانت قد اذكرتهُ عهداً ادمى فواده وطلَّ دموعه فآلى على نفسهِ ان يهجر مهنته فيخلص من لوم نفسهِ وجواها . ثم عاود الافتكار في الدعوى التي اصبحت لديهِ من اعظم البلاوى فقال في نفسهِ — كيفما تحولت القضية ان البرت هو ابن الكونت دي كومارين الشرعي فلم يكن الجاني كما دلتني عليهِ الحال ومن اللازم ان ابعث بطلب الاب الحيّ فنظر الى الكاتب وقال لهُ

— وجه يا كونستان من ياتيني بالكونت دي كومارين

يا لحيرة دابيرون في وقوفهِ ازاء الكونت واضطراره للعدول عما قرَّره لديهِ قبلاً بشان ابنهِ نوال ويا خيبة امل هذا الشاب عند تبليغهِ القضاء بانحطاطهِ من ذروة السعادة الى حضيض الذل . لكن ترى من يكون الجاني منهما . فاخذ يردد الخواطر فيرمي تارة هذا وتارة اخرى بصيب ذاك الى ان طالع عليهِ الكونت دي كومارين وكان قد لقيهُ رسول دابيرون عند انصرافهِ بكلارا من دار فالري او مدام جردي



الفصل الثامن عشر

تحقيق الوهم

ان ناباري كان اذا رأى امرًا سعى في تنفيذه عجلاً اي ان قولهُ كان مقرونًا بالفعل فلما انزاح عنهُ المستنطق فحاد عن نهجهِ اخذ يجد من نفسهِ بمساعدة بعض اصدقائهِ واعوانهِ توصلاً الى الجاني فشخص الى بوجيفال ودخل بالحيلة منازلها كلها باحثًا منقبًا واستمرَّ على هذه الحال نحو ثلاثة ايام الى ان تبين ما يأتي :

ان الجاني لم يترجل عند موقف رويال جريًا على عادة ركاب تلك الضواحي بل استقام في سيره الى شاتو وقد تصوَّر ناباري الجاني شابًا اسمر اللون اسود شعر اللحية كما حققهُ لهُ رئيس الموقف وعمالهُ . وكان هذا الراكب قد بلغ الموقف عند الساعة الثامنة ونصف مساء فما كاد يطأ الارض حتى فرَّ كالظل وقد رآه يعدو على طريق بوجيفال رجل وامرأة من مالمزون فاجاز الى ما وراء المجاز القائم على ضفتي السان فادى ما عليهِ من حق المرور على ذلك الطريق دون ان يلوي على شيء . ثم رأى رقيب طريق رويال شابًا يعدو سريعًا الى ان بلغ الموقف فطلب الى الرئيس ان يجيز لهُ الركوب في القطار الى باريس . وقد اتت كل الادلة طبق الصورة التي رسمها العمال في شاتو ورقيب المجاز . فضلاً عن ذلك انهم هدوه الى خباز ازنيار فكتب اليهِ ان يوافيهِ عجلاً

ذلك ما وقف عليهِ تاباري فقصد بعدئذٍ دار الحكومة ليتحقق ما رآه من الاوراق التي تضمنت تفصيل دعوى الايمة اروج فلم يجد تلك الاوراق لكنهُ التقى في الرواق بجفرول وصاحبهِ الذي مرَّ بنا الكلام عنهُ فلما رأى جفرول تاباري ناداه فخاطبهُ قائلاً

ما فعلت يا صاح أَوَجدت الجاني الذي تسأَّلت عنهُ في ابحاثك قصد ان تزري بهمتي فتسعى في ابعادي من خدمتي

لكن تاباري لم يتعرَّض للجواب على كلامهِ لان الخطأَ الذي اقتحمهُ في سرعة الحكم على البرت ليَّن عريكتهُ وعدَّل طبعهُ فقال

— يحق لك يا جفرول ان تقول ما شئت استصغارًا لشاني

— اما توصلت الى ادراك هذا السر الغامض بعلو همتك وحذاقتك

فهز تاباري رأسهُ وقال — اني اودعت دار الحكومة بريئًا لا ذنب عليهِ وهي الآن تصدني عن السعي في تخلية سبيلهِ

— ان هذا الامر لعجيب واعجب منهُ الخطأُ الذي ارتكبتهُ في ما ادعيت

— لا تلح في ملامتي واعلم اني وان كنت شيخًا فلا ازال في هذا الفن فتيًا وقد غرَّتني الصدفة واطمعني التوفيق في موافقتي مرات تهت فيها وفخرت على اقراني وقد ارعويت الآن واهتديت الى الصواب فعرفت جهلي وتحققت غباوتي فالله يا رئيسي جفرول بدل ان تعذلني اسرع في مساعدتي على الخير علمني كيف اسير لادرك السول مدني برأيك فانجح والاَّ قعدت على بساط الذل والقلق مدى حياتي

ولما كان جفرول فخورًا اثر فيهِ تذلل تاباري وخضوعه فهوى معاضدته فقال لهُ

— ربما كان حديثك اشارة الى حادثة لاجونشار

— اسفاه اني كنت قد توهمت نفسي قادرًا على السعي وحدي في سبيلها فسرت متكلاً عليها فلم انجح ونلت شرًّا اضناني

ان تظاهر تاباري بالذل والخضوع كان حيلة يريد بها استخدام جفرول في غايتهِ اما الزعيم فاصرَّ على التردد في الجواب طمعًا في زيادة التذلل على تاباري فقال له

— سرِّي عنك ولا تكتئب فانني لا انكر عليك المساعدة والاخذ بيدك لكن ارجوك الانتظار الى الغد فان الاعمال التي تزاحمني اليوم لا تسمح لي بالتفرغ الى السعي والبحث ومع ذلك فانني انير سبيلك اليوم لتهتدي اليهِ فاسالك هل عرفت الشاهد الذي قدم في صحبتي

— من يكون

— ان الرجل الذي ينتظر عند باب غرفة المستنطق هو زوج الأَيمة لروج

— يعزُّ عليَّ تصديق ذلك . أَتسخر مني يا اخي فتستقلني

— كلاَّ وان شئت البرهان فتقدم اليهِ بالسوال عن اسمهِ يجبك انهُ بطرس لروج

— هلاَّ كانت أَيمة كما ادعت

— كلاَّ وها زوجها لم يزل حيًا

— أَ يعلم شيئًا من امرها

فاعاد الزعيم بايجاز رواية لروج ثم سال تاباري قائلاً — ما قولك بذلك

— لا راي عندي الاَّ ... ولكن لا لا انني لا ارى شيئًا

ثم استوى تاباري واقفًا ولطم جبينهُ شأْن من تذكر امرًا يعنيه فاغفلهُ وقال

— اخاف ان اتعدى الاجل الذي ضربتهُ للاجتماع بالخباز . ثم تقدم الى جفرول فودعه ووعده باللقاء في الغد

فتوهم الزعيم ان جفرول كان تائهًا في مرادهِ لكن المتطوع كان صحيح العقل سليمهُ فراح يعدو لموافاة الخباز قيامًا بالعهد الذي بينهما وبينا هو منطلق

لقيهُ دابيرون فلم يقف بحضرتهِ بل استمرَّ سائرًا دون مهل . واخذ يهجس في طريقهِ قائلاً

— ان نوال الذي كان يتمنى على زمانهِ المجد والعز اخشى ان يفقدها بعد الاياس بها برهةً لان وجوده في دار الكونت لا يغنيهِ شيئًا اذا رمتهُ الاوهام واستهدفتهُ الظنون وما اخالهُ عالمًا بتلك الادلة التي اتى بها لروج بل كان قد اعتقد اعتقاد الكونت بوقوع الابدال والتغيير وكذلك مدام جردي فانهُ لم يتصل بها شيء من ذلك غير انهم ربما اختلقوا قصة لبيان اثر الجرح . ولكن مدام جردي كانت تعتقد كل الاعتقاد بان نوال ولدها ولا بد ان تكون قد نظرت في الدلائل عند استرجاعه

وهنا وقف تاباري وقوف من اعترضهُ في مسيره افعى فخاف عاقبة الامر الذي انتهى اليهِ في هجسهِ وهو — ان نوال كان قد عمد قتل الأرملة لروج بغية ان يقطع بها عن الاقرار بحقيقة الابدال فاحرق ما لقيهُ لديها من الرسائل والصكوك التي تؤذن بذلك

ثم انكر هذا الوهم كما ينكر الاديب السوء فقال في نفسهِ

— تبًّا لهذه المهنة ومشاقها لقد ادت بي الى الاعتقاد بما تأباه نفسي فانّى لي ان ارتاح الى الخواطر التي تدور في خلدي وقد كان لديَّ نوال في مقام ولدي فآلفتهُ زمانًا طويلاً وعرفت منهُ الوفاء والهمة والدراية والحكمة الى غير ذلك من الصفات التي مالت بي اليهِ فحملتني على ان اقف عليهِ كل ما ملكت يدي من نقود وعقار . فضلاً عن ذلك ان القاتل او السفاك لا بد لهُ من محرّك عظيم يبعثهُ على ارتكاب الجناية ولا محرك لنوال الاَّ اذا حسبنا الصفات التي ذكرنا سببًا في جملة الاسباب التي تدفع الانسان الى الشر

فما زال يسير هاجسًا في بالهِ مترددًا بين الوهم والحقيقة الى ان وقف بباب داره فرأى عنده عربة فقال في نفسهِ — ان جيراني يستقبلون الكرام في ديارهم وبينا هو مفكر في امر الراكب طلع عليهِ من الجيرة كلرجو وهو الصراف

الذي مرَّ بنا ذكره فان هذا الرجل ما انتاب محلاً الاَّ و بعث الناس على الاعتقاد بخراب ذلك البيت كما يدل وجود النعش بباب المنزل على موت احد سكانهِ . ولما كان تاباري عارفًا بهِ استوقفهُ وسالهُ قائلاً

— ما لي اراك في جهتنا هل انصلت اموالك الى الجبيرة

— هكذا الدهر قضى

فارتبكت افكار تاباري فرغب في زيادة البيان لانهُ كانْ يأبى ان يوآجر من كان في عسرٍ وضنك فاستانف السوال قائلاً

— فبخراب من تنذر

— لم اسعَ ولن اسعى في خراب احد واذا شاب قلبك ريب فعليك باستكشاف المحامي صديقك وهو ينبئك عن حسن معاملتي لهُ

فساء تاباري هذا الكلام وقوي في نفسهِ جانب الخوف والحذر من نوال ولكن فطن للمال الذي جاد لهُ بهِ فعدل الى السكينة وحبًا بالاطلاع على جلية الامر قال

— لا ينكر ما تتكلفهُ مدام جردي من المال في نفقاتها

فرأى كلرجو ان يدافع عن اصحابهِ دأبهُ في كل حال فقال — لا تشدد النكير على مدام جردي ونوال بل على تلك الخلابة النهمة التي استنزفت ثروة نوال ولو تأتى لها ان تلتهمهُ لما تقاعدت عنهُ طرفة عين

فعظم على الثقاف المتطوع الامر ولكنهُ رأى ان يكتم كدره لئلاً ينبه خاطر الصراف فيمسك عن الفائدة فقال لهُ موافقًا رأيهُ

— انني عالم بسيرة نوال ولكن من كان في عمره لا يوآخذ بالهوى غير انني اسالك بيان ما تكلفهُ تلك الفاتنة من المال

— لم يخصصها بمال معدود ولكن ربما كانت النفقة تتجاوز نحو خمسمائة الف فرنك في اثناء اربع سنوات

كأن بحروف هذا الجواب صواعق قد انقضت على رأس تاباري فردد

ذكر القيمة حائرًا دهشًا ثم حاول تسكين اضطرابه فقال

— لقد بالغ نوال في نفقاته ولكن من كان مثريًا لا يبالي ببذل الالوف

— لا توهم يا صاح بمقدرته فلا يخفاك انه غدا صفر اليدين لا يملك شيئًا ولكن يسرّني ما علمت انهُ عازم الاقتران بفتاة تسعدهُ على الوفاء وقد بلغ مهرها نحو ٣٦ الف فرنك ذلك ما حملني اخيرًا على امهالهِ

وهنا ودع الصراف تاباري فاستأنف المسير وغادرهُ في الطريق حزينًا شأن الاب اذا علم بسوء سيرة ولده وعلى رغم ما اتصل بهِ من اخبار نوال كان تاباري لم يزل يحاول ازالة الاوهام من خاطره والارتياح الى الاعتقاد بهِ اديبًا حكيمًا . وبيناهُ يفكر في حال نوال مرت بهِ امرأة عليها لمحة الجمال من السحاب فركبت العربة وطارت بها دون أن يتبين الشيخ محياها مليًا . فطرق الباب ودخل اثرها للحال فاستقبلهُ البواب وبيدهِ قبعته وعلى كفهِ دينار يبصر فيهِ معجبًا بسخاء المرأة فقال لسيده

— ما رأيت امرأة احرزت كمال هذه الزائرة التي فصلت عنا منذ بضع دقائق فيا ليتك تقدمت قبل انصرافها لتتحقق وصفها

— من تكون هذه السيدة

— انها اتت تطلب الحيَّ العلم بحال نوال جردي وقد اطمعتني على التصريح بدينارها فسالتني حقيقة ما اشاعهُ الناس عن اقترانهِ وقد رايتها مزعوجة من تلك الاشاعة فما خلتها الا خليلته يوعدظني بها خروجه كل ليلة اليها

— أ كان يخرج نوال ليلاً دون ان اعلم بذلك

— مولاي انهُ كان ينصرف خفية من باب الموقف فحسبتهُ يراعي بذلك راحتي فاضربتُ عن التوسع في السوال عن هذا الانصراف الخفي

فما كاد ينتهي البواب من تفصيلهِ حتى انقلب تاباري راجعًا الى الطريق يريد اقتصاص اثر تلك السيدة ولحسن الجد كانت عربتها قد بلغت عطفة شارع سان لازار فجد في اثرها وما زال يعدو وراها الى ان اوقف العربة

الزحام اضطرارًا على مسافة منهُ ولكن ما طوى بعض المسافة حتى استأنفت العربة الكرّ وجهة محلة «ترونسه» فجدد عزيمته واصر يكرُّ وراءها وهو يقول. ما الذي اذهلني عن تعليق اسمها في مناظرة الصراف اما كان من الواجب على من يرغب في نيل غرضهِ ان ياخذ الاهبة اليه . ولما كان تاباري شيخًا اجهده السير فخاف ان يقعد بهِ اللغوب عن اللحاق فعاجلهُ التوفيق بعربة تكرُّ من الجهة الاخرى قاصدة الناحية التي ينتحيها فاشار الى السائق بالوقوف فركب بعد ان وعدهُ بالمكافأة دون ادراك الغاية التي يطلبها فجرت بهِ العربة وكان تاباري قد تصرمت انفاسهُ جهدًا فاستراح قليلاً ثم اطل من العربة فلم يرَ غرضهُ فسال السائق موضعهُ فاجابهُ انهُ لم يزل نصب عيني فقال لهُ تاباري اياك ان تذهل عنهُ ولك مني ضعف ما وعدتك بهِ

ان تاباري كان يودُّ لو اباح مالهُ توصلاً الى الحقيقة فيريح بالهُ من الاوهام التي ازعجتهُ ولا سيما في تعطيل شهرة من احبهُ محبة الاب ابنهُ

ولما كانت العربة قد انتهت بهِ الى ما وراء «الشوسه دانتين» ابصر السائق عربة المراة واقفة على مسافة ثلاثين خطوة منها فقال لتاباري

— سيدي ان العربة قد وقفت قريبًا

فاطل تاباري ليتحقق القول فابصر تلك المراة تعدو على الرصيف ثم دخلت مصنع بائع الكشمير فقال في نفسه — لا غروَ اذا انفق نوال مالهُ اثناء اربع سنوات ولهُ خليلة تنتاب مثل هذه المصانع ولم يكن الاَّ القليل حتى خرجت من ذلك الموضع لتلج اخر وما زالت تنتقل من محل الى اخر وتاباري يذوب جزعًا الى ان عاودت الركوب في العربة وجدت بها على طريق «فوبورمونمارتر» ثم عطفت على محلة لا بروفانس حيث ترجلت المراة عند باب منزلها

ولا حاجة الى القول بان تاباري كان يقفو اثرها وقد تلهب فؤاده غيرة على الاجتماع بها بغية تحصيل الفائدة منها عن العلم باحوال نوال فلما وقفت بالباب ترجل تاباري فدفع الى السائق ما وعده بهِ واز يدوطلب اليهِ الانتظار

وراح رجلاً اليها فطرق كن البواب وسالهُ

– ما اسم السيدة التي مرت بك الان

فامسك البواب عن الجواب

فالح عليه تاباري بلهجة توءذن بالسيادة والكرامة فاضطر اخيرًا البواب الى الجواب فقال

– انها تدعى مدام جوليات شافور

– اين ماواها

– في الطبقة الثانية

فصعد المتطوع اليها وطرق باب ماواها فاستقبلته الجارية وادخلتهُ الردهة قبل موافاة سيدتها اليه فانتهز تاباري الفرصة ليتعهد ما فيها من الاثاث علهُ يجد بيان سر صاحبه فكان كل ما ازدانت بهِ تلك الردهة محكم الوضع ثمينا فقال عندئذٍ في نفسهِ – لقد صدق كلرجو

وقبل ان يتوغل الزائر في الافكار دخلت جوليات عليه بعد ان بدلت ثيابها الفاخرة فجملت عليها ثوبًا اخر لا يضل ناظرها في استكشاف امرها وابتلاء سر يسرها

فدنت منهُ وحيتهُ قائلة – ما غرضك عندي وقد طلبت مشافهتي

— انني من اخص المقربين الى نوال

— فاجلس غير مامور

فجلس تاباري وجوليات ازاءه فبادرها بهذا الخطاب – اني جئت بشان معضلة يهمك الاحاطة بها علمًا فان شخوصك الى دار جردي . . .

فصاحت جوليات وهي في حيرة شديدة من اذاعة سر ذهابها – من اعلمك بذلك هل كان جردي ممن يبثون الرقباء والعيون على الطرق . وقد تبين لي الآن بعض الغرض من زيارتك وفيما اتيت . فقد كلفك ربما مواخذتي بالذهاب اليهِ لكن لا يخفاك ايها الزائر الكريم ان تغيبهُ عني افنى صبري وذهب

بتماسكي فلم ارَ الاَّ موافقاته رغبة في الوقوف على اسباب ابطائهِ

— لقد اقتحمت بذلك حذرًا

— لماذا . أ لعلهُ رغب عني فمال الى الاقتران بسواي . فلمَ لا يبوح بسره

— لا علمَ لي بذلك

— بلى بلى وقد اتصل بي شيء من سرّ انقطاعه عن لسان كارجو صرافهِ فضلاً عن ذلك ان سيرتهُ معي واحتجابهُ عني كل هذه المدة دليلٌ بيّن على ما ينويه

ان تاباري كان يود ان يستنبط من مناظرة جوليات العلم بمكان نوال ثلاثا المرفع فمدّ لذلك احبولة يقتنص بها طائر الفكر حائمًا حول هذه القضية فسالها قائلاً

— اتنكرين زواج نوال

— كفى بوجودي معترضًا دون عقده ولكن فليتزوج بمن يشأ ويكفيني سوء اعمالهِ

— هلاَّ تحبينهُ

— كنت احبهُ من قبل حبًا صادقًا اكيدًا اما اليوم تبدل بمحجة فصرت اود هجرانه

فاجابها تاباري منكرًا عدول نوال عن حبها ناظرًا حيالهُ كانهُ يستشهد ما لديها من النفيس على صدق هيامهِ . فادركت جوليات من نظر تاباري معنى خطابهِ فقالت معترضة عليهِ

— اراك تحدق النظر في ما ازدانت بهِ ردهتي من الاثاث الفاخر لتوكد لي حب نوال ولكن اعلم انني لست ممن تغرهم الظواهر او ممن يعتدون بالعرض دون الجوهر فان المال عندي لا يقوم مقام الحب فقد كان الخليق بهِ ان يغنيني بجوهر قلبهِ عن جوهر عبو

— ما اخالهُ يصد عنكِ صدود من كفر بحبك

— كيف لا وقد رأيته يابى الاجتماع بي جهارًا كما يابى الوباء ويعرض عني كما يعرض عن البلاء و ينتي على ذلك انهُ في الثلاثا من الاسبوع الماضي قصد بي الملهى فاكترى مباءة جعلني فيها لذاتي وانصرف عني تلك الليلة

— ومن كان رفيقكِ عند انفصالك عن الملهى

— انهُ عاود الملهى عند نصف الليل فانصرفت معهُ الى المرقص ومن ثم الى مناولة طعام العشاء فلم يكن لي اثناء وجودي معهُ حظ النظر اليهِ والايناس بحديثهِ

وهنا وضح لدى تاباري ما اكد لهُ جناية نوال فاربد وجههُ وخفق قلبهُ ولولا ان جوليات كانت في تلك الساعة شديدة الغيظ للاح لها ما اعترى تاباري من الاضطراب والقلق ولكنهُ لم يملكها . . .ة فرصة الانتباه الى ذلك فاستطرد حديثهُ قائلاً

— ربما كان قد عوضك من انس جلوسهِ معك على العشاء ما امسك عنهُ في الملهى

— كلاَّ وكأنك لم تجتمع بهِ في مجالس الانس لتختبر طباعه فلا يند عنك ان نوال اذا جلس على مائدة الشراب فترشف منهُ ملء زجاجة فقد رشده وغادر بسكره رداءه وظلته ومحفظته . . .

فما اتمت جوليات حديثها حتى نهض تاباري وقال

— ويل امّ الشقي الطاغي لقد ادركت الآن ما قصدت لهُ

ثم انصرف وغادر جوليات في خوف شديد من مظاهر الغضب والحدة فدعت وصيفتها وقالت لها

— لقد غدر بي الزائر فاسمعتهُ عن نوال قذفًا وطعنًا اخاف ان ينو بني منها شرٌّ جسيم فاخرجي الى الشارع وائتني برسولٍ اوجههُ اليهِ برسالة خاصة انبه خاطره فيها الى غدر الرجل وسوء . . .

فلما ركب تاباري العربة انقلب بسرعة البرق الى دار الحكومة وقد

اوغر صدره حقداً على نوال علماً منهُ انهُ هو الجاني على تلك الاية

وكان يود لو اختلفت الحكومة آلةً للعذاب غير التي تعمل بها لذلك العهد فتجازي من لم يرتكب فقط جناية افعل بل من سعى بحيلهِ ان ياخذ ابيضاً البريء بذنبهِ فاضمر في نفسهِ الانتقام من نوال ثم همس قائلاً — لا بد ان هذا الشقي قد غادر لباسهُ في القطار ليسرع الى خليلتهِ ولكن ترى لو ذهبت للتنقيب عنهُ أأعثر عليهِ لا لا لا ريب انهُ يكون قد عاد فاخذهُ حذر ان ينم بهِ . فما برهاني وحجتي عليهِ وانا لا ثقة لي في مدام شافور لانهُ اذا طالبتها بالشهادة فرأت نكبة خليلها رثت لحالهِ وبخلت بها

ولما بلغ منتصف جادة ريشليو شعر تاباري بشيءٍ غشى على بصره فخاف ان يعرض لهُ عارض في الطريق ياخذ بحياته فيستفيد نوال من موتهِ خيرًا فاستانف المسير الى ان انتهى الى بطاقة كتب عليها اسم طبيب فاستوقف العربة ودخل المنزل وهو على حال من القلق والاضطراب لا توصف فحالما مثل امام الطبيب طلب اليهِ ان يفصدهُ للحال فاراد الطبيب ان يعترض على طلبه فابى تاباري الاَّ الفصد وشمر عن ساعده فاذعن الطبيب اخيرًا الى الطلب فارتاح تاباري من الشدة التي كانت قد استولت عليهِ وانحدر من منزل الطبيب بعد ان قابل عناءهُ بما تيسر وسار الى دار الحكومة فتسلح بالاوامر اللازمة للبحث في موقف القطار ومضى اليه في صحبتهِ ضابط فاسفرت البحاثة عن الغرض المقصود اذ عرف ان العمال في ادارة الموقف قد وجدوا مساء ثلاثا المرفع في القطار رداء وظلة فدفعوهما الى تاباري و بعد التحقيق عرف انهما لنوال ثم القى يده في جيب الرداء فعثر على الكفوف الرمادية اللون وعلى جواز سفرٍ من شاتو لم ينتفع به صاحبه . وعقيب ان احرز تاباري تلك الادلة الصريحة على تخطئة نوال عاد بالضابط للحال الى دار الحكومة يرغب في الاجتماع بالمستنطق

فاتفق ان دابيرون كان قد تاخر في ذلك اليوم عن الخروج من

غرفته بداعي اختلائهِ بالكونت دي كومارين ومفاوضتهِ بالحديث الذي نقلهُ لهُ لروج وقد كان الامير توهمهُ ميتًا منذ اعوام . فدخل تاباري غرفة المستنطق ملهوفًا دون ان يبالي بمن كان حاضرًا لديه فصرح جهارًا بما عنده قائلاً — انني اهتديت الى القاتل الحقيقي وهو وربي نوال

فنهض دابرون حائرًا من مبادهة تاباري وقال . لقد اصاب ظني الغرض — فعجل اذا يا سيدي بورقة الطلب اليه قبل ان يمعن بالفرار لانني اخشى ان تتقدمنا خليلته بالخبر فيفر من بين ايدينا

فاراد المستنطق ان يستزيد المتطوع بيانًا فاضرب تاباري عن الجواب قائلاً لهُ — ارجوك قبل البيان بما هو من همك الآن ان تطلق سبيل البريء للحال

— لا يشغلنك من امره شاغل وقد كنت عزمت ان ارسلهُ قبل قدومك

فلما سمع الكونت اسم نوال تقلص ظلهُ من الغرفة دون ان يدري بهِ الثقاف والمستنطق

الفصل التاسع عشر

بلاء وهناء

كان نوال قد آلى على نفسهِ بذل ما في وسعهِ دون انقاذ البرت من ظلمة السجن فطرق باب اولياء الامر عبثًا دون طائل . ولما كانت الساعة

الرابعة شخص الى منزل الكونت غاية ان يفيده حبوط مسعاه . فاجابهُ الغلام دانيس — ان الكونت قد خرج نحو ساعة ولكن لا باس اذا انتظره سيدي فربما يعود بعد قليل

— ابيك

— ارجوك يا مولاي ان نتقدم الى غرفتك الخاصة طبق اشارة ابيك

فقام نوال الى الغرفة حيث اخذ يقلب النظر في اثاثها شأن المالك في ملكهِ فوقع نظرهُ على شجرة النسب المرسومة في لوح موشى بالذهب ومناطة بالحائط فشمخ بانفهِ عند ما رأى اتصالها بالملوك والامرا وبينا هو يحدث نفسهُ بالمجد الذي رقي ذروته دخل الكونت الغرفة فاحنى نوال راسهُ احتراماً لديه ثم رفع نظره اليه فلاح لهُ اضطراب الكونت واغضابه حتى كاد يخشى منه التلف

فاراد نوال ان يستكشفهُ السبب . فاعترضهُ دي كومارين قائلاً — مه يا شقي انيّ لمثلك ان يكون ابي بل ان يدعي بنسبي وحسبي . تباً لك من فاتك ظالم انك لم تكتف بما جنيت على تلك الايئة حتى رايت ان تعقب فعلتك بالجناية على امك مدام جردي والايقاع بمن كان بريئاً

فحاول نوال ان يدفع عن نفسهِ التهمة

فقاطعهُ الكونت بقولهِ — خل عنك الخداع وقد وضحت الحقيقة . نعم انت الجاني ولو سمعت باذنك ما فاهت بهِ والدتك عند آخر دقيقة من حياتها لما اثرت البقاء . وقد شهدت على غدرك بقولها عند الرمق الاخير . هو الجاني هو الجاني

وبينا كان الكونت يصرح بهذا الكلام احجم نوال حتى استند الى الجدار وقد شخصت عيناه فاخذتهُ الرعدة وسكت وجنناه قصة خوفهِ فاذاعت سر هلعه واضطرابه

فاستطرد الكونت حديثهُ الى ان قال — كفى بما علمت دليلاً على

اعدائك ولم اعلم بذلك وحدي بل قد اتصل امرك بالحكومة وقد ارسلت في طلبك • ومن الواجب عليَّ ان ادفعك اليها لكن اطلب اليك قبل ان نفصل عن هذا المقام ان تسطر على الورق اقرارك بالذنب ثم اذا شئت الانتحار فافعل ولديك في السحابة ما تختار من آلات العذاب

— لا حاجة الى سلاحك فانني قد اخذت بالاسباب التي تمنعني من البقاء في ظلمة هذه الحياة • لكن لا افعل الآن

— تبًا لك من ذليل

— لا افعل قبل ان اقنط من سبيل الخلاص

— انك تحملني على ان اخذ بيدي منك

— مالك الآن وللحديث في ما لا جدوى منه وقد دنا الاجل فاعلم اني قد ارتكبت ما ارتكبت من الذنوب ولا انكر كما اني اعتقد يقينًا انك انت الذي حملتني على ارتكابها . فاسعدني على النجاة وانا اوكد لك وفاتي قبل ان يقبض الشرط عليَّ

— كلاَّ

— فعليه انني ادفع نفسي الى الحكومة مختارًا واصبر اذا شئت على ما ينالك اثر ذلك من البلوى وما يدهمك من الذل في دخولي السجن

فغضب الكونت غضبًا شديدًا ثم هوى لجهة السحابة يريد ان ينتزع منها السلاح فاعترضهُ نوال قائلاً — خلِّ الخصام فلن تقوى عليَّ

فاحجم الكونت مترددًا في نفسهِ بين التسليم لرغبة نوال او القبول بالذل والعار ولما كان شديد الحرص على شرف شهرتهِ راى ان يرضخ لهُ بالمال المطلوب فيكفى شره و يسلم من غدره فقال لهُ — ما حاجتك اليَّ

— قلتُ لك ان تنقدني ما ملكتهُ هنا في هذه الغرفة

ان الكونت كان قد استورد من صرافهِ مبلغ ثمانين الف فرنك بغية ان يوثث بها المنزل الذي كان من عزمهِ ان ينزل فيه نوال فخطر لهُ ان يدفعها

اليه فقال لهُ — خذ ماعندي الآن وقيمتهُ ثمانون الف فرنك

— ان هذه القيمة غير وافية بالمرغوب توصلاً الى النجاة من شر الاعداء وكنت قد اعتمدت عليك فقدرت حاجتي الى خمسماية الف فرنك حتى اذا مددتني بها كفيتك شر وجودي وبلاء قيامي في بلدك

و بعد مفاوضة عنيفة عمد الكونت فرارًا من شر نوال الى صندوقهِ فاخرج منهُ رزمةً من القراطيس المالية فطرحها عند اقدامهِ ازدراءً بهِ

فقال لهُ نوال — لا تتمادى في الاحتقار انك بذلك تحملني على ان ادفع بنفسي الى الحكومة ومن كان لا يملك شيئًا لا يخش في اقتحامهِ الاهوال خسرانًا فاربأ على ضلعك

ثم هوى الى الارض فالتقط القراطيس قائلاً — عدني بانجاز المطلوب مما بقي عليَّ

— اذهب وكن على ثقةٍ من تلبية مرغوبك

— وانا اعدك بان الحكومة لا تدانيني حيًا فاودعك الآن واودع اذنك هذا الحكم وهو انك انت جرثومة هذا الشر الذي نالني فاسال الله ان ينتقم لي منك

ولما كان بعد ساعة من رحيل نوال دخل الخدم غرفة الكونت فوجدوه طريحًا على الارض دون حراك

خرج نوال من دار الكونت فاخذ في جادة «الاونيفرسيتي» بقدم يعثر من الوجل عند دنو الاجل فكانت تميد بهِ الارض لشدة اوهامهِ وتراكم وساوسه فخيل لهُ ان ما عليها من حي وجماد شهودٌ عليهِ تجاهرُ باسمهِ وتصرّح باثمهِ فيتهادى في مشيهِ يمينًا وشمالاً محاذرة الوقوع في ايدي من يطارده على انهُ لم يكن لهُ في ذلك الحين من رقيب الاّ نفسه ولا معنف الاّ ضميره . وكان تارةً يتهيأ لهُ ان يدفع بنفسهِ الى الحكومة نجاةً من شاك الضمير واذاه وتارةً اخرى يحاول استنباط الحيلة ذودًا عن نفسهِ فيتجافا الرشد ويتاباه فاصر اخيرًا

يعدو ناحية محلة اللاتين على غير هدى عدو المجرم اذا جدَّ في اثره الشرط وما لبث ان وقف وسط الطريق بداهةً كأن بخاطر من نفسهِ قد امسك بهِ عن السير فارشده الى العدول عن السرعة رحمةً بهِ لئلا يتهمهُ الناس فيعارضوهُ . و بينا هو على تلك الحال هجس في نفسهِ قائلاً

— لا بد لي من حذرٍ انتهي اليهِ ورأي اعول عليهِ . ولكن أنيَّ لمن كان كان على حالهِ من القلق والارتباك ان يستجلي الحقيقة او يهتدي الى الراي الصواب وما زال يضرب اخماسًا باسداس الى ان بلغ على مقربة من الاوديون فنتجت لهُ الفكرة على اضطرابها ان يبدل زيهُ حذَر ان يداهمهُ الشرط فيلقوا القبض عليهِ اعتمادًا على ما اتصل بهم من تحقيق حالهِ فلاح لهُ على طريقهِ حانوت حلاق واذ عمد الى الزر ليغمزه اعترضهُ من نفسهِ خاطر آخذ عليهِ اقتحام هذا الحذر فقال في نفسهِ اخاف ان يتلمح الناس من نزع لحيتي سببًا ياخذونني بهِ فاكون جنيت على نفسي بيدي . ولما جنَّ الليل عاودت بوال الراحة والطانينة ولا غروَ فان الليل كافر فخطر لهُ الجلاء عن الوطن بانتحال شهرة غريبة فطفق يناجي نفسهُ بالبلد الذي يلجأ اليهِ و بيناهُ يقلب الفكر في ذلك مرَّ بهِ ذكر جوليات فمحا من ذهنهِ اثر السفر فشق عليهِ فراقها بلا امل لا سيما انها كانت اصل تلك البلية وعلة سيرتهِ الشقية فعدل قائلاً ان من الواجب عليها ان تقاسمني البلاء والشقاء كما قاسمتني الهناء فمن اجلها جنيت وحبًا بها عنيت فلبث نوال مترددًا في خواطره وكأن بقلبهِ في تلك الساعة قد غدا مجالاً للمساجلة بين العقل والشهوة

فقال — ان جوليات تسر بفراقي بل ربما تمنت على الزمان طلاقي ولم يبقَ لديَّ من سبب اتمسك بهِ فقد افنيت في غرامها مالي وطويت في هيامها ايامي فاحرزت من بعدي مالاً يكفيها الحاجة في بعدي

اما العقل فكان يناجيهِ بهذه الخواطر قائلاً — اياك ان تصحب في سفرك امراة جميلة فتزري بحسنها الناس فيتساءلون عنها وعنك فتغدو تلك التي

اخترتها لسلواك هداية لبلواك

اما الشهوة فكانت تعترض عليهِ بهذا الكلام - ما ضرك لو اتخذتها لك معينة في رحلتك فتساهمك العناء وتعاني معك صنوف البلاء . فضلاً عن ذلك ان فوادك يأبى تجافيها وان جافتك فلا يسعك الاَّ تصافيها . ثم عاد فناجى نفسهُ قائلاً - ولكن انَّى لي الذهاب اليها دون خطر التعرض للرقباء الذين بثتهم الحكومة في كل الانحاء . لا لا ربما جهلت الحكومة هيامي بجوليات ففاتها النظر في الاحتياط عندها . ولو عدلت عن الذهاب الى الكتابة لعظم الخطب واشتد الحذر . فتقدم اخيرًا الى موقف في جهتهِ وطلب الى السائق همسًا ان ياخذ بهِ الى منزلها فركب العربة واضطجع فيها غير ناظر الى مستقبلهِ ولا مفكر في حاضره لا يزعجهُ من نفسهِ الاَّ الافتكار بالحادثة التي مرَّت بهِ فجلبت عليهِ تلك الشجون . فتذكر الاسباب التي دفعتهُ الى الجناية فكانت القاضية على حبل اجلهِ بالانصرام

ان نوال لما كان قد فرغ وطابهُ وضاقت عليهِ الموارد وهو لم يزل حريصًا على حب جوليات ساقهُ القدر الى الاطلاع على تلك الرسائل التي تصفحها القارىء وعلى غيرها مما كان لنوال ارب في كتمها لما وعت من الادلة التي توكد لهُ اعتقاد الكونت دي كوماربن بحصول الابدال والتغيير

فضنَّ بها وسرَّ سرورًا شديدًا فحسب نفسهُ في مقام ابن الكونت الشرعي الى ان نقضت والدتهُ مدام جردي اعتقاده وضربت على اوهامهِ بما كشفت لهُ من البراهين الناصعة وخصوصًا بما وسمتهُ بهِ حذر ان تمكر بها الايَّة لاروج فتخلف بوعدها لها وعهدها عندها

فساء ذلك نوال وغدا كالغريق في اليمّ اذا رأى شجرة تشبث بما تدانى اليهِ من اغصانها على السواء دون ان يميز بينها فاخذ ذلك الكتاب الذي بعث بهِ الكونت الى والدته وقد اشار بهِ الى حقيقة حصول التبديل

فحاول اقناعها على الخلاف وطلب اليها ان تسلم الى القول بالمقايضة

طمعًا بالربح المالي والمنفعة الخاصة التي كان يرجو ادراكها عند الكونت اما والدته فكانت تأبى السكون الى رأيهِ والعمل بهِ ولما طال بهما النزاع والخصام دون جدوى عمد نوال الى الفتك بكلودين

ان كلودين لروج كما رأينا لم تكن أيمة وقد وقفنا بزوجها في غرفة المستنطق غير انها كانت قد انكرته على كل من يسالها عنهُ حتى كتمتهُ مدام جردي فقال نوال اذا فتكت بتلك المرأة كان لي في ابطال شهادتها كل النفع فاحرق ما كان لديهِ من الرسائل التي توءذن بالمقايضة ولم يبقِ الاَّ على ما كان يؤيد التهمة عليه وتلك الرسائل عينها هي التي اطلع البرت عليها فحذره من موضوعها قائلاً لهُ — انهُ اذا اتصل الامر بالحكومة رجعت بهِ على من كان لهُ في القتل غنيمة

وكل ذلك لم يكن قصد الايقاع بالبرت ولا الانسام بسمة الامراء بل توصلاً الى المال الذي اعوزه في غرام جواليات

وعقيب ان دبر الحيلة ومهد السبيل الى الفتك سمى ثلاثا موعدًا المرفع ليقرن القول بالفعل وتضليلاً للحكومة قصد في تلك الليلة الملهى بجواليات ومنهُ سار الى المرقص . وقد كان تكدر جدًا لفقد ردائهِ خيفة ان ينمَّ بهِ لدى الرقباء لكنهُ ازال الهم من صدره بقولهِ — ليس فيهِ ما يعبث بمصلحتي . فكان منهُ ما كان واقام على تلك الحال ينتهز الفرص لادراك سوءاهِ

ولما عثرت مدام جردي على خبر قتل الأيمة لروج تكدرت جدًا وعرفت للحال ان اليد التي سطت عليها هي يد ابنها نوال فقصدت ان تجاهر باسمهِ لكنهُ تقدمها بما رآه من الحيل فوجه خاطر التفاف الى البرت وهداه اليهِ فتمكن من اكتساب شهرتهِ وثروتهِ . وقد استنجد تاباري لياخذ بيده فاطلعهُ على الرسائل علمًا منهُ بما بين تاباري والتفاف من الصلة

فلبث نوال مضطرب الفكر الى ان جادت امهُ بروحها فعندئذٍ سري عنهُ اذ بوفاتها تذللت في سبيلهِ كل العقبات ولكن ما طال زمان سروره حتى

اعقبهُ كدر شديد باذاعة اسراره

فلما بلغت بهِ العربة محلة لابر وفانس ترجل سريعاً فدفع للسائق الاجرة وولج باب المنزل بعد ان نفض الطريق فاستقبلتهُ شارلوت بالترحاب وقالت لهِ

— اهلاً بسيدي فما الذي اقعدك عنا الى هذا اليوم اما علمت ان طول تغيبك عن سيدتي لمن الاسباب التي تذهب براحتها

فلما سمع المحامي بخبر كدر جوليات وانزعاجها اوى لها وقاطع الجارية الحديث رغبة في سرعة الدخول على خليلتهِ لكنهُ اوعز اليها ان تقفل الباب دون كل طارق

ان جوليات عندما سمعت صوت نوال كانت قد وافتهُ مسرعة فاخذها بيدها وقصد بها الردهة عجلاً دون ان يملكها فرصة السلام . فلما خلت بهِ جوليات و بصرت في وجههِ رأتهُ قد تغير جدًّا فما تمالكت ان سالتهُ

— ما الامر

فلم يجبها نوال على سوالها بل تقدم اليها وامسك بيدها وقال — لا اطلب اليك يا جوليات الاَّ الخلوص والصدق في مودتي

فمن هذا الطلب عرفت جوليات ان في المسئلة اشكالاً يريد استكشافها بهِ او نازلة قد دهمتهُ فيريد ان يواضعها الراي في صرفها فقالت لهُ

— آه لقد نلت يا نوال ما انت من اهلهِ

— بالله دعي التعنيف واصغي الى كلامي فلا تجاوبيني الاَّ على ما كان في موضوعه

وعقيب ان اشتفت جوليات بدلّها وتيهها عليهِ قالت لهُ

— نعم اني احبك حبًّا خالصًا . وهل انت حتى الان لم تتاكد صدقهُ

— ان كنتِ حقًّا توديني فاهجري مالكِ واتبعيني عاجلاً فان الوقت يدهمنا بشره . . .

— لله ما الامر وما جرى

— ان هيامي بكِ حملني على ان اقتحم الاخطار طمعًا في توفير المال لاكفي رغائبك وقد صرت الان غرضًا لعيون الحكومة فآثرت الفرار في صحبتك

ان الدهشة اخذت بلب جوليات فلم تصدق حديثهُ فقالت لهُ

— واي ذنب ارتكبت

— اقتحمت جريمة القتل حبًا بكِ

ان نوال كان قد خشي القطيعة والصد من جانب جوليات اذا تجرأ على اذاعة شره بحضرتها ولكن تلك الخلابة قد ادركت سر خليلها قبل ان يبوح بهِ فبدل ان تجافيهِ او ان تبعده منها ارتمت على عنقهِ فعانقتهُ وضمتهُ الى صدرها بكل لهفة كأ نهُ قد افادها اعظم بشرى كانت تتوقعها من كرامات الايام وما اكتفت بالعناق حتى قفتهُ بهذا الكلام — كيف لا احبك وقد شهدت من خلوصك الآن ما لم يخطر لي ببال ام كيف لا انفانى في هواك وقد شقيت من اجلي

— فهلمي بنا اذن عجلاً قبل ان يدركنا الرقيب وقد اشتبهت عليَّ وجوه اقبالهِ الينا . فتذكرت عندئذٍ جوليات حالة يوم اتاها زائرًا مضطربًا فقالت لهُ

— ما كان اشقاني اذ كنت سبب بليتك بل ربما جالبة منيتك آه أليس ان عهد الخطر من يوم الثلاثا الماضي

— نعم منذ ذاك اليوم

— اسفاه لقد بحت بذلك الى صديقك الشيخ دون ان اعلم بسر الامر

— هل جاءكِ تاباري زائرًا

— نعم

— بدارِ بدارِ اذن قبل ان يعود اليكِ

وجذبها بيدها يريد ان ينطلق بها اما هي فتنصلت منهُ وقالت

— مهلاً ان لديَّ مالاً وحلى اريد ان انقلها معي

— ما لكِ والاهتمام بالمال فانني اعوضكِ من ثروتي ما تفقدين

وكانت جوليات قد عمدت الى سفط السفر فالقت فيه شيئًا من اللباس وما عندها من النفيس فاعترضها نوال قائلاً — اخشى ان اقضي اسىً بتقاعدك عن الذهاب وابطائكِ في اجابة طلبي عاجلاً

ثم هجس في نفسهِ قائلاً — ما اشد حب جوليات بالحقيقة انها تودني مودة خالصة يؤيدها لي مبادرتها الى السفر معي عرضة للخطر

فما كادت جوليات تقفل السفط حتى طرق الباب فقال نوال — ها انهم قدموا الينا وكان قد اكمد لون وجههِ واربد فاختلجت اعضاؤه وتلجلج لسانهُ فمكث وخليلته جامدين لا يستطيعان حراكًا

فكرر الطارق نقس الجرس فقامت شارلوت الى الباب ثم عادت الى سيدتها فقالت لها — ان بالباب نفرًا يهمسون

فلما طال على الطارقين الوقوف بالباب صرخ احدهم قائلاً — راعوا الاحكام

فقال نوال — قطع الرجاء وخاب الامل

— لا لا اننا نخدر من سلم الخدمة

— أتخالينهم ذهلوا عن الوقوف عنده

— فما الحيلة اذن

— دعيهم يشتغلون في معالجة الباب ان لنا بذلك فرصة نملكها التدبير الحيلة

ثم خرجت جوليات وشارلوت الى الخارج ليرقبوا حركات الطارقين ففي تلك الاثناء اخرج نوال غدارته السداسية من جيبهِ وصوّبها الى صدره وقبل ان يطلقها كانت جوليات قد عادت اليهِ فامسكت بيده ولكن لم تمنعهُ من اطلاقها وبدل ان تصيب صدره نفذت في جهة المعدة فتخاذلت ركبتا نوال ومع ذلك كان لم يلبث مستويًا مسندًا الى المستوقد فحاولت جوليات ان تنتزع

منهُ الغدارة قائلة لهُ — لا اجيز لك الانتحار ولا سلطة لك على نفسك فانت لي ومالك قلبي فلن تنتحر ابدًا . فما ضرك او دخل الطارقون فالقوا القبض عليك فاودعوك السجن . ألا تامل بالنجاة واما من ورائك حصن منيع اعدل عن الانتحار واتكل على صدق عهدي معك فاني انقذك من الهلكة التي تخشاها ... لا تخف فاني اشري بنفسي عنك

... قد دفعوا الباب فانتهوا منهُ الى الباب الداخلي وكان موصدًا ايضًا فاخذوا يعالجونهُ كالاول . فقال لها نوال وقد وهت قواه وقلت عزائمه — دعيني اموت قبل ان التقي بهم

فاخذ الغدارة بعنفٍ من يد جوليات فدفعها عنهُ بعيدًا وانفذها في قاع ... فلم يدرك كل الغاية لارتجاف يده من صبيب الدم

وبينا هو على تلك الحال احدق بهِ الشرط فصاحت بهم جوليات دونكم والطبيب فانهُ لم يزل حيًّا

فطار احدهم الى الطبيب واخذ الباقون تحت رئاسة تاباري يعنون بشان نوال فرفعوه على الاكف والقوه على سرير جوليات

فقال تاباري في نفسهِ — اسال الله ان تكون تلك الضربة القاضية

وقبل ان يتمادى في هجسهِ اعترضهُ نوال بتنفس الصعداء فقالت لهم جوليات ... فلا تحتفزوا عليهِ بل ربما شفي من جرحهِ

فاشار الجريح ... منهُ فهمس في اذنها قائلاً — ان ثروتي اسفل الوسادة خذيها بارك ... ثم نظر الى الشرط فقال لهم — انا الجاني . فاكتبوا اقراري وان شئتم ... لس من العدل ان يوخذ البريء بجريرتي

وعندئذٍ تدفق الدم من فيهِ كالسيل فتمكن نوال على رغم شدته ... يخاطب تاباري بهذا الكلام — ما كان املي ان تتهم نفسك فتجني عليها ... لا باس فان من كان اعوانهُ من النساء كان من الخاسرين

فما كاد يتم هذا الكلام حتى كانت الروح قد بلغت الحلقوم فلم يأتِ الطبيب الأ ليشهد منيته

* وعقيب انتحار نوال ببضعة اشهر كانت المركيزة دارلانج جالسة في دار صديقتها كريمة دي كويلو تقص عليها حفلة زواج البرت بحفيدتها كلارا بعد ان تبرأت ساحتهُ من التهمة التي كانت قد لحقتهُ عفوًا فخالف ... كل ما ملكت يداه وتخلف عنهُ رغبة في عيشة الخلاء

اما المستنطق دابيرون فاستقال رئيسهُ منصبه وانقطع الى الاقامة في واتو حيث يامل الاقتران

وكان لجوليات بما ورثتهُ عن خليلها من المال اعظم سلوى ولكن ما توالت عليها الايام حتى انهدر قسم عظيم منهُ بغيها وضلالها

اما تاباري فآلى على نفسهِ كفارة عن ذنبهِ باتهام البرت البريء ان يبذل الجهد والنقد في الاخذ بناصر المظلوم من الظالم والضعيف من القوي

—•ooo—ooo•—